فؤاد مَطَر

روسيا الناصريّة ومصر المصريّة



روسيا الناصرية
ومصر المصرية

فــؤاد مطــر

روسيا الناصريّة ومصر المصريّة

أين أصبح
عبد الناصر
في جمهورية
الساداتـ
-٢-

دار النهار للنشر

« اللي تعومه ... تعوزه . واللي تكره
وشه يحوجك الزمان لقفاه » ...

مثل مصري

« الذي يستريح كما يجب يعمل جيدا .
والذي يحزن بعمق يفرح بعمق » .

مثل روسي

المحتويات

تقديم

لو ان الاتحاد السوفياتي هو الذي اتخذ من جانبه خطوة سحب الخبراء والمستشارين العسكريين من مصر كما فعل الرئيس انور السادات لكانت اعتبرت تلك الخطوة موقفا وليس وسيلة ، ذلك بأن خطوة السادات وسيلة لتحقيق هدف ما اكثر منها موقفا . ولو ان الاتحاد السوفياتي أقدم على تلك الخطوة لكان سقط نهائيا في نظر العرب ، ولكان كل عربي سيصاب بخيبة أمل ويقول : هل هذه هي الصداقة ؟ وهل هذا هو الحليف ؟

كان الاتحاد السوفياتي متنبها لهذه الناحية وهو من اجل ذلك لم يتخذ هذه الخطوة من جانبه وان كان ضمنا رحب بها . انه لم يتخذ الخطوة ، ولم يوافق حتى على صدور بيان ودي مشترك بسحب الخبراء والمستشارين ، وهو في ذلك كان بعيد النظر ، وفي الوقت نفسه منسجما مع موقفه . بعيد النظر لانه رمى على الرئيس السادات كل اوزار خطوة لو كان هو (أي الاتحاد السوفياتي) أقدم عليها لتسببت له في اشكالات وفي سقوط درامي في المنطقة العربية . وكان منسجما مع موقفه في عدم موافقته على صدور بيان مشترك لانه ارسل الخبراء من دون صدور بيان وبطلب من مصر ويجب ان يعودوا كما ذهبوا ، اي من دون صدور بيان من جانبه وبطلب من مصر ايضا .

وعلى هذا الاساس ، فان الخطوة المصرية خدمت الاتحاد السوفياتي بحيث انها اراحته قليلا او كثيرا من مآزق التورط ، من دون ان تفيد السادات بنسبة الفائدة التي جنتها موسكو ، الا اذا كانت الخطوة ستساعد مستقبلا على تعبيد الطريق امام الحل السلمي ... او المعركة .

وكان يمكن خطوة السادات ان تفيده كثيرا لو انها تمت في وقت ليست بلاده محتلة من الاسرائيليين . لكن استمرار الاحتلال خطف البريق الذي احدثته الخطوة على صعيد « تحرير الارادة الوطنية » . وهذا التعبير ليس لي وانما للفريق اول محمد احمد صادق وزير الحربية المصرية الذي استمر حتى زيارته لموسكو في حزيران (يونيو) ١٩٧٢

يقف على رأس المعارضة العسكرية المصرية للوجود السوفياتي ، لكنه عاد بعد الزيارة التي جرى له في خلالها استقبال لم يجر لقائد عسكري غير سوفياتي من قبل ، يقول كلاما جيدا في حق السوفيات .
(ملاحظة: ان الابن الاكبر للفريق اول صادق واسمه احمد يدرس الصحافة في موسكو . وكان قبل سفره تخرج في كلية الاقتصاد في جامعة القاهرة) .
ان اصواتا كثيرة انطلقت في مصر في السابق تنادي بحرب التحرير الشعبية . ولم يشجع جمال عبد الناصر هذه الفكرة كما أن الرئيس السادات حذا حذوه . لكن هذه الاصوات التي خفتت انطلقت تنادي من جديد بعد اخراج الوجود العسكري السوفياتي من مصر ... ولكن اصحابها اكتشفوا أنهم يصرخون في اودية .
ولقد قوبلت قرارات السادات اخراج السوفيات بارتياح لا نظير له واعادت الى الرجل شعبية اهتزت بعض الشيء بعد انفجار الموقف الداخلي الذي كان لطلاب الجامعات الدور الاساسي في تفجيره . لكن السؤال الذي استمر مطروحا هو : هل تستطيع مصر ان تحارب في غياب السوفيات ؟
وحدث ان قوات الدفاع الجوي المصري اسقطت — وردود الفعل لقرارات السادات اخراج العسكريين السوفيات حديث العالم كله — طائرة اسرائيلية كانت تقوم على الارجح بعملية اختبار للقدرة العسكرية المصرية في غياب السوفيات . وكان اسقاط الطائرة ردا مباشرا على المشككين في القدرة المصرية ودليلا قاطعا على ان هذا الجيش في امكانه ان يحرز انتصارات سواء في وجود السوفيات وفي غيابهم . وفي الوقت نفسه فان هذا الحادث شجع على المطالبة بالمعركة التي اكد السادات انها لم تتأجل وانها يجب ان تبدأ انما في الوقت المناسب .
شعر الرئيس انور السادات بأن امرا ما حدث في القمة الاميركية — السوفياتية التي تمت في موسكو . تفاهمت الدولتان الكبيرتان على التعايش وعلى الا تدخلا في مجابهة مهما كلف الامر . ومثل هذا الاتفاق وضعت اسسه في لقاء « غلاسبورو » بل لعله يمكن القول ان اللقاء الذي تم بين بريجنيف ونيكسون كان امتدادا للقاء الذي تم بين الرئيس الاميركي السابق جونسون ورئيس الوزراء السوفياتي اليكسي كوسيغين . وكان على مصر وكل الدول المستفيدة من صراع الجبارين الاميركي والسوفياتي ان تتنبه لهذه الناحية منذ تم اللقاء التاريخي في غلاسبورو . ولكن مثل هذا الشيء لم يحدث . الذي حدث هو ان قمة موسكو جاءت حقيقة ثابتة لتؤكد أن مصائر الصغار هي في ايدي الكبار ، الا اذا قرر الصغار أن يسلكوا المسلك الفيتنامي فيتحدوا الكبار ، وهو ما لن يحدث بالنسبة الى الدول العربية وبالذات تلك المعتمدة على الاتحاد السوفياتي ،

لاسباب بعضها موضوعي .

اننا عندما نتحدث عن المسلك الفيتنامي نعني بذلك حرب التحرير الشعبية أي أن يتحول كل مواطن الى مقاتل . ولقد انطلقت بعد حرب ١٩٦٧ أصوات كثيرة في مصر تطالب بحرب التحرير الشعبية ثم هدأت تلك الاصوات لان النظام لم يتجاوب . والان في غياب السوفيات الذين كانوا سندا اساسيا ، وفي اختفاء البديل ، يجد الحاكم المصري — اذا كانت خطته النهائية خوض المعركة ايا تكن النتائج — ان تحويل كل مواطن الى مقاتل واجب ملح . فليس منطقيا ان يكون دور الجبهة المدنية مقتصرا على بعض الاستعدادات وعلى انتظار ما ستحققه الجبهة العسكرية . وفي خلال الانتفاضة الشهيرة لطلاب الجامعات المصرية طرحت بصوت عال المطالبة بحرب التحرير الشعبية ، والارجح ، بل من الطبيعي ، ان تطرح بصوت عال ايضا ، بعد أن يعود الطلاب الى جامعاتهم من اجازة صيف كان مثيرا وخطيرا في احداثه ومضاعفات هذه الاحداث .

ان الاتحاد السوفياتي ، كما يتبين في صفحات كثيرة من فصول هذا الكتاب ، لم يتجاوب مع مصر في موضوع السلاح الاساسي . والحجة التي كثيرا ما ابداها السوفيات امام المصريين أو انهم ابدوها امام أطراف اخرى لتبلغها المصريين ، هي أنهم يتخوفون من نكسة جديدة ، وانه اذا كان لا بد من اعطاء السلاح الهجومي فانه يجب ان يبقى تحت اشراف سوفياتي .

ومصر كما يتبين في صفحات كثيرة من فصول هذا الكتاب شعرت بان الاتحاد السوفياتي لا يريد تلبية طلباتها لانه ضد المعركة ولان نظرته الى قضية فلسطين قريبة من النظرة الاميركية لا من النظرة العربية . . . ناهيك بأنه ضد شخص السادات .

وكما ان للاتحاد السوفياتي ايضا مآخذ ووجهات نظر واجتهادات، كذلك فان لمصر مآخذ كثيرة ووجهات نظر كثيرة واجتهادات اكثر . وهذا التباين في استراتيجيتي البلدين جعل الرئيس السادات يقرر الحسم مع السوفيات . صحيح أن الاتحاد السوفياتي لم يقل اما تسوية سياسية واما لا شيء . لكن الصحيح ايضا هو ان مصر لم تستطع في خلال خمس سنوات من الهزيمة ان تحصل على موقف سوفياتي صلب الا بعد مشقة . ولقد تمثل هذا الموقف في « موافقة » الاتحاد السوفياتي على ان يكون لمصر الحق في استعمال كافة الوسائل من اجل تحرير الارض العربيــة .

والذي يدعو الى التساؤل ان هذا الموقف صدر عن السوفيات قبل قليل من انعقاد قمة موسكو ففقد بذلك اهميته ، لان اهمية الموقف كانت ستبدو فعالة لو ان موسكو وواشنطن لم تتفقا على الا يتجاوبا من اجل

الصغــار .

ان موسكو لم تقل مرة اما تسوية سياسية واما لا شيء . وبعد ذلك قالت ان من حق مصر والدول العربية استعمال كافة الوسائل . . . ولكن مثل هذا الموقف كان مجرد نظرية وبقي كذلك . في غياب تلك الوسائل التي تريدها مصر وطالبت بها ؛ وهي الاسلحة الهجومية .

وهكذا جاءت قرارات السادات انهاء الوجود العسكري السوفياتي في مصر خطوة — برغم محاذيرها — لا بد منهــا لتقويم الوضــع . فالعلاقات المصرية — السوفياتية يجب الا تبقى تنمو فوق تناقضــات وخلافات وتباين في وجهات النظر . وصحيح ان الخبراء والمستشارين العسكريين ليسوا هم الرمز المضيء لتلك العلاقات التي تعود الى قرابة عشرين سنة ، الا انهم كانوا الوسيلة لتعبــير مصر — عــن طريق اخراجهم — عن امور كثيرة .

ان مصر تعتبر — وهي محقة في اعتبارها هذا — ان الاتحاد السوفياتي لم يعطها بقدر ما أعطته . اعطاها سلاحا بثمن وقروضا تدفعها في انتظام . ولكنها أعطته مجدا لم يكن يتصور انه ســيحصل عليه . نقلته من وراء أسواره الحديدية الى الشرق الاوسط . الى البحر الابيض المتوسط . الى البحر الاحمر . واصبح في خلال خمس عشرة سنة قوة عظمى بالفعل .

ولكن هل أن قرارات السادات انهاء مهمة الخبراء والمستشارين ، وغيرها ، قللت من كون الاتحاد السوفياتي دولة عظمى ؟ هل ان خلو البحرين الاحمر والمتوسط من ذلك العدد الضخم من المدمرات السوفياتية سيقلل من اهمية دور موسكو على الصعيدين الديبلوماسي والعسكري حيال مشاكل العالم وبالذات مشاكل المنطقة ؟

ان الاجابة عن ذلك كانت تكون نعم لو ان قــرارات السادات وخطواته جاءت مبكرة وليس بعدما تفاهم الجباران السوفياتي والاميركي على كل شيء او على بعض الاشياء .

ولكن خلو البحرين المتوسط والاحمر من ذلك العدد الضخم مــن المدمرات والغواصات السوفياتية ليس في اي حال لمصلحة مصر التــي استمرت حتى بعد انهاء مهمة الخبراء والمستشارين وتضاؤل الوجــود البحري ، تعتبر ان الولايات المتحدة واسرائيل سيان .

ان مأساة الاتحاد السوفياتي انه لم يستطع دخول مصر والمنطقة العربية ثقافيا او فكريا . وعندما دخل عسكريا شُبّه له انه كعضو زرع في جسم لم يتقبله .

هنالك اوجه شبه بين قرار مجلس الامن الدولي المؤرخ ٢٢ تشرين

الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ وقرار الرئيس السادات الذي اتخذه يوم ٨ تموز (يوليو) ١٩٧٢ واعلنه للملأ يوم ١٨ منه والذي قضى بانهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات .

قرار مجلس الامن وضع لكي يكون صيغة ملائمة لحل ازمة الشرق الاوسط فاذا به يصبح مع الوقت مأزقا وتصبح الازمة من نوع معقد وصعبة الحل .

وقرار السادات اتخذه تحت تأثير ضغوط داخلية وتجاوبات عربية يرافقها تباطؤ سوفياتي في تنفيذ طلبات مصر من السلاح من جهة ، واستمرار للشكوك السوفياتية في نظام السادات وفي رغبته في اعتماد المعركة وقدرته على ذلك ، من جهة اخرى . وعندما اتخذ القرار كان في ذهن السادات انه حل لامور كثيرة معقدة ، ثم تبين انه مأزق ، وانه اذا كان الاحتلال الاسرائيلي لم ينته برغم الوجود العسكري السوفياتي فانه لن ينتهي بسبب رحيلهم .

والقرار الذي اتخذه السادات كان نقطة تحول بارزة في تاريخ العلاقات المصرية ــ السوفياتية . واذا جاز التعبير فان انهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات كان عملية تهجير وترك على صفحات ملف العلاقات المصرية ــ السوفياتية علامة ، بل علامات استفهام قد يكون من الصعب الاجابة عنها في المستقبل القريب .

ولقد تمت عملية التهجير في وقت كان المطلوب ان تكون العلاقات المصرية ــ السوفياتية اكثر ترسخا ، الا ان الظنون لعبت دورا اساسيا في هذا المضمار .

وثمة امر يثير الدهشة . لقد استمرت العلاقات المصرية ــ السوفياتية ايام جمال عبد الناصر محصنة . وكانت في بعض مراحلها معلبة . صحيح ان دقة التعليب منعت عنها الهواء كي لا تفسد ، لكن هذه العلاقات كانت في اشد الحاجة الى ان تنشر في الهواء الطلق . والمقصود بدقة التعليب هو حظر مناقشة هذه العلاقات المتميزة . والمقصود بنشرها في الهواء الطلق هو تشجيع مناقشتها بل والسماح بذلك من دون ان يعتبر ذلك من المحرمات .

المهم ان العلاقات المصرية ــ السوفياتية تجتاز ادق مرحلة . وهي من النوع الذي لا يمكن تصليحه الا اذا بادر الطرفان المصري والسوفياتي الى تحقيق ذلك . انها علاقات متميزة ولا مثيل لها ولا يمكن طرفا او اطرافا اخرى ان تبذل مساعيها لتحقيق انفراجات او حالة توفيق .

ان التضاريس كثيرة والغيوم الملبدة في سماء تلك العلاقات كثيفة لدرجة انها تحجب الرؤية . ولقد حاول الاتحاد السوفياتي شق الشعبية التي احدثتها قرارات السادات في صفوف المصريين بالايحاء بان الاتحاد السوفياتي مع الناصرية والناصريين . ولم تنجح المحاولة لان السادات

كان سبق السوفيات فأعلن ان القضية قضية مصر اولا واخرا ... وهو طرح لقي من المصريين اذانا مصغية .

ولكن هنالك حقيقة اساسية وثابتة هي ان التعايش كان مثاليا بين الاتحاد السوفياتي وعبد الناصر . ومنذ تسلم السادات الحكم وهـذا التعايش ظاهره مثالي ، ثم تبين انه قائم على شكوك وخلافات وفقدان ثقة. ومن هنا كانت خطورة الموقف . ومن شدة الخطورة اعلن السادات انهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات . وسمـح للصحافة بأن تمارس حريتها في التصدي للحملات السوفياتية احتجاجا على تلك القرارات والخطوات التي تلتها .

تميزت السنة الثانية من حكم السادات بحرائق وبتـــطورات سياسية مذهلة . لقد اعلن السادات قراراته يوم ١٨ تموز (يوليو) ١٩٧٢ . وصادف وقوع الحريق الثالث والعشرين في ذلك اليوم وكان في احد مشاغل سكة الحديد في القاهرة . ولقد تم اطفاء كل الحرائق الا ان الحريق الاساسي ، اي انهاء الوجود العسكري السوفياتي في مصر ، ما زال متوهجا وما زال صعبا اطفاؤه . كذلك ما زال غير واضح من هو الفريق الذي سيتضرر اكثر من هذا الحريق . هل هم السـوفيات ام نظام السادات .

وبعد بدء الحريق الاساسي بأيام كان المصريون يتزاحمون لمشاهدة عرض فني اقيم في ظلال الاهرامات وفيه يروي ابو الهول بصوت صاحب فكرة العرض زكي طليمات لابن البلد المصري امجاد مصر منذ ايزيس واوزيريس حتى عبد الناصر والسادات . ولقد صفق الذين شـاهدوا العرض طويلا لاحمس الذي عاد هازما الهكسوس ... وبعضهم بكى . وكلهم تمنى .

... ويبقى من هذه الثلاثية ختامها .

فؤاد مطر

بيروت ــ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٢

١ ـ القرار المباغت ... ودور القذافي

كان اعلان الرئيس انور السادات قراراته انهاء مهمـه الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات أمرا مذهلا ، ربمـا لان الرئيس المصري اعتمد مبدأ المباغتة . لم يكن احد يتوقع تلك المفاجـأة مـن السادات . كان المتتبع لسير العلاقات المصرية ـ السوفياتية يلاحظ أن ثمة تباينا في وجهات النظر . وكان يلاحظ ان داخـل الجيش المصري تململا مقلقاً من الوجود العسكري السوفياتي الذي اتسع نطاقه بحيث ان عدد الخبراء والمستشارين العسكريين والمدربين السوفيات اصبـح يوازي عدد افراد جيش دولة كلبنان . لقد بدأ هؤلاء يصلون بعد هزيمة ١٩٦٧ كمجموعات صغيرة . وفي خلال سنتين وصل عددهم الى قرابة ٢٥ الف شخص .

ولقد اوجد هؤلاء حساسية داخل الجيش المصري . وكانت تغذي هذه الحساسية حالة وقف اطلاق النار . ونشـأت الحساسية بسبب تصرفات شخصية اقدم عليها افراد من هؤلاء ، وبسبب مشاعر دفينة داخل نفس الضابط المصري .

وفي كل مرة كانت تتصاعد نسبة الحساسيات كـانت القيادة السياسية المصرية تمتصها . وحرص السادات علـى زيارة الجبهـة عندما تسمح له الظروف بذلك هدفه امتصاص تلك الحساسيات ومحاولة خلق الفة بين العسكريين المصريين والعسكريين السوفيات .

وكان اكثر الذين يتململون من السوفيات هـم جنرالات الجيش المصري ، اما صغار الضباط فكانوا اقل ضيقا .

لماذا ؟

ان جنرالات الجيش هم المفروض فيهم ان يضعوا الخطط من اجل المعركة . ومهمة الخبراء والمستشارين العسكريين هي أن يكونوا مرجعا لواضعي الخطط وراسميها . ومن طبيعة مهمتهم أن يلغوا خططا او يعدلوا فيها . وكثيرا ما الغيت خطط أو عدلت خطط وضعها جنرالات

الجيش المصري . ولان العقلية العسكرية السوفياتية المبنية على عقيدة لا تسمح بالمناقشة فانه كان يؤخذ برأي الخبير او المستشار العسكري السوفياتي . ومن الطبيعي ان ذلك كان يولد في نفس الجنرال المصري ضيقا كبيرا .

أما صغار ضباط الجيش المصري الذين ينفذون خططا تصل اليهم فكان ضيقهم من الخبراء والمستشارين السوفيات اقل . ولم يكن ضيقهم على صغر نسبته بسبب الخطط بقدر ما كان مشاعر وطنية .

وصغار الضباط هؤلاء كانوا لا يخفون اعجابهم بمدربيهم السوفيات . وهذا الاعجاب له سببه بل أسبابه .

كان الضابط المصري من رتبة رائد وما دون يلاحظ انه اذا اصاب الدبابة عطل ما يأتي الاختصاصي السوفياتي ويتمدد تحتها ويقوم بتصليحها من دون ان يتأفف من بقع الزيت التي تعلق بثيابه ، او من حرارة الرمل التي تكوي اطرافه . وكان لا يخرج من تحت المصفحة الا بعد أن يكون انجز تصليحها تماما . وبعد ذلك تصبح الدبابة جاهزة وقادرة على ان تسير ثلاثة الاف كيلو متر .

وما يفعله الاختصاصي السوفياتي في الدبابة كان يفعله ايضـــا في المدفع المضاد للطائرات أو المصفحة او الناقلات الكبيرة . والحـال نفسها كانت تحدث في القواعد الجوية مع الطائرات النفاثة والقاذفة .

ان ضيق المصري عموما من الاجنبي امر تقليدي ومألوف . ومن هنا نشأ الضيق بين جنرالات الجيش المصري وبعض الضباط والافراد العاديين من دون ان يأخذ هؤلاء في الاعتبار أن هنالك فرقا كبيرا بـين الاجنبي الذي اعتادوه كالانكليزي مثلا الذي كانت مهمته استعمارية ؛ وبين السوفياتي الذي جاء بطلب ، بل بالحاح من الحكومة المصريـة ليدرب ويستشار ويساعد على اعادة بناء الجيش الذي مني بهزيمـة مفجعة في حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ .

هنا المشكلة . ان النظرة في بعض الاحيان كانت واحدة . الاجنبي اجنبي سواء أكان انكليزيا ام روسيا ام اميركيا ام فرنسيا . كل من ليس عربيا انما هو اجنبي .

ولان حالة وقف اطلاق النار تخلق مناخات ملائمة لنمو افكـار واتجاهات سلبية فان موجة اعتبار السوفياتي مجرد اجنبي بصرف النظر عن طبيعة المهمة التي جيء به من اجلها . انتشرت في شكل مثير . والذي ساعد على انتشارها ان اجازات العسكريين في حالة وقف اطلاق النار كانت سهلة وكثيرة . والذي كان يحصل على اجازة كـان يحدث اهله ومعارفه في القطاع المدني عن الروس وكيف انهم اصبحوا عبئـا حقيقيا ويشلون الارادة المصرية . وكـان هذا الكلام ينتشر فـي سرعة وتستغله بدورها شلل اليمين التي كانت تنمو وتزدهر مستغلة استمرار

حالة وقف اطلاق النار من جهة ولا مبالاة الاتحاد السوفياتي بالوضع الداخلي الذي يزداد تعقيدا نتيجة لتلك الحالة ، من جهة اخرى .

وفوق ذلك ان كون المصري متدينا ، بمن فيه العسكري ، زاد في نسبة الحساسيات . فما دام هو متدينا فانه كان يوجس خيفة من الخبراء والمستشارين والمدربين السوفيات لانهم شيوعيين والشيوعي في نظره ضد الدين .

وحدثت قبل فترة من اتخاذ قرارات اخراج الخبراء والمستشارين وقائع عززت ناحية الدين . فقد زار القواعد في الجبهة ، بطلب من القيادة العسكرية عدد من المفكرين المصريين والقوا في الضباط والجنود محاضرات عن الشيوعية والاسلام وكيف دخلت الشيوعية اوروبا الشرقية . وكان بين هؤلاء الدكتور سعيد عاشور الذي الف كتابا عن السيد البدوي الذي قلما لا يزوره المصري في طول البلاد وعرضها مرة في السنة حيث يتبرك من ضريحه المقام في طنطا .

كذلك انتشرت قبل فترة من اتخاذ القرارات اشاعات تفيد ان الشيوعيين المصريين ، بتشجيع من احدى السفارات الشيوعية في القاهرة ، هم وراء الحرائق التي كثرت وبالذات في القاهرة ، من حريق دار الاوبرا الى الكثير سواه .

واستغلت الشلل اليمينية ايضا حادثة وقعت قبل قرابة عشرة ايام من اتخاذ السادات قراراته انهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين لتعمق في اذهان الناس ان المعسكر الشيوعي يريد تدمير الجبهة الداخلية في مصر . فقد جرت مؤامرة لاحراق اوراق امتحانات مدرسة «القسطاط» الثانوية . ورفع مدير المخابرات اللواء احمد اسماعيل تقريرا الى السلطات العليا يحذر فيه من محاولة لضرب الجبهة الداخلية . وفي الوقت نفسه وزع على ضباط الشرطة تعميم بأنهم مسؤولون عن حماية البلد وطلب منهم الاحتفاظ بمسدساتهم . ومثل هذا الشيء لم يكن يحدث في السابق حيث ان كل ضابط شرطة كان عليه ، بمجرد الانتهاء من عمله الرسمي ، ان يودع مسدسه المركز الذي يعمل فيه ويذهب الى منزله اعزل .

كذلك بدأت الشلل اليمينية تعمم انباء تفيد ان في الجبهة تململا كبيرا من السوفيات وان ١١٠ ضباط برتبة لواء عقدوا اجتماعا في مكتب رئيس الاركان الفريق سعد الدين الشاذلي وحددوا طلبات منها ما يتعلق بالخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات ورفعوا مذكرة بطلباتهم الى الرئيس السادات .

(كان ذلك قبل أيام من اعلان السادات قراراته الخطيرة) .

ان قرارات السادات كانت مباغتة فاجأت المسؤولين المصريين قبل المسؤولين السوفيات . ولم يكن هنالك مسؤول مصري يتوقع ان يقدم

السادات على اتخاذ القرارات . حتى المجموعة المساعدة المحيطة بالسادات والتي يفترض انها تعلم بالامور او ببعضها قبل غيرها فوجئت . ورئيس الحكومة الدكتور عزيز صدقي الذي سافر الى موسكو على رأس وفد فوجىء هو الاخر بانه ذاهب الى العاصمة السوفياتية للتحدث الى قادة الكرملين في قرار اتخذه السادات ، وليس في قرار ينوي اتخاذه . والذين قراوا وسمعوا ان وفدا مصريا في رئاسة الدكتور عزيز صدقي سيسافر الى موسكو ـ هكذا فجأة ـ افترضوا كل شيء الا ان الدكتور صدقي سيبلغ القادة السوفيات قرارا اتخذه السادات ويتعلق بانهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين . ومن جملة الافتراضات ان عزيز صدقي ، حيال الحملة المتزايدة على الاتحاد السوفياتي في بعض الاوساط المصرية العسكرية والمدنية يريد أن يقوم بالدور الذي كان يقوم به في السابق علي صبري يساعده على ذلك انه من جهة وقف مع السادات في المناسبات الحرجة وبالذات بعد وفاة عبد الناصر وفي خلال مرحلة التجاذب المرهقة من اجل اختيار الخليفة ، وفي خلال صراع السادات مع مراكز القوى (علي صبري وافراد مجموعته) . ومن جهة اخرى انه صديق للسوفيات وهم يثقون به . وقد تأكد ذلك عندما جاء بعض افراد المجموعة الى السفير السوفياتي فلاديمير فينوغرادوف وقالوا له أن على الاتحاد السوفياتي ان يقف الى جانبهم فما كان من السفير الا ان أبلغ عزيز صدقي دون غيره . وهذا بدوره ابلغ السادات . وتكشفت اللعبة عندما قال هؤلاء في خلال التحقيق معهم ان الاتحاد السوفياتي ابلغهم انه يقف معهم ، ذلك بأن عزيز صدقي ثم السادات كانا عرفا الحقيقة من فينوغرادوف ولذلك لم يؤخذ بمنطق المجموعة .

ان كثيرين افترضوا ان الهدف من الزيارة المفاجئة التي قام بها عزيز صدقي الى موسكو هو ان السادات حيال تفاقم الموجة اليمينية في البلاد اراد أن يحاصر هذه الموجة بشكل او اخر واختار ليتولى المهمة الرجل الذي ارتبط اسمه منذ وفاة عبد الناصر بالعمليات الخطرة . فمهاجمة اعضاء مجلس قيادة ثورة ٢٣ يوليو (تموز) ١٩٥٢ عملية خطرة لكن عزيز صدقي تولاها لمصلحة السادات وكسب منها . وعملية مجابهة مراكز القوى بعد ذلك عملية خطرة لكن عزيز صدقي قام بها لمصلحة السادات وكسب منها .

لقد افترض الكثيرون ذلك ولم يخطر ببالهم ان عزيز صدقي انما توجه الى موسكو لابلاغ زعماء الكرملين اخطر قرار مصري في تاريخ العلاقات بين البلدين . وعندما قرأوا او سمعوا ان الرجل الاول في الكرملين ليونيد بريجنيف قطع اجازته في القرم وجاء الى موسكو ليجتمع الى رئيس الوزراء المصري ايقنوا ان عزيز صدقي يقوم بمهمة وليس بمجرد زيارة رسمية ، والا لما كان بريجنيف قطع اجازته ليجتمع اليه .

لكنهم في الـوقت نفسه كادوا يتصورون ان بريجنيف يريد ان يكـرر البادرة التي قام بها يوم زار علي صبري موسكو فـي كـانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٠ في نطاق اشمل خطة تحرك من اجل ايضاح الموقـف المصري من ازمة الشرق الاوسط . فبدلا من أن يعقد علـي صبـري محادثات مع مسؤولين في مستوى منصبه الرسمي فانه فوجيء بقـادة الكرملين الثلاثة يجتمعون اليه . صحيح انه كان لتلك البادرة ضجيـج معنوي كبير الا انها كانت من جملة الاسباب التي جعلت السادات يشكك في نيات السوفيات نحوه .

المهم ان عزيز صدقي توجه الى موسكو كمجرد رسول للسادات . فلا هو شارك في اتخاذ القرارات الخطيرة المتعلقة بانهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات . ولا هو عرف بها لوحده وانما مثل الكثيرين الذين عرفوا قبل ان يعلن السادات القرارات في اجتماع اللجنة المركزية وتتولى اجهزة الاعلام المصرية في اليوم نفسه تعميمهـا علـى الداخل والخارج .

صحيح أن السادات اتخذ من حيث المبدأ قراراته انهاء مهمـة الخبراء والمستشارين السوفيات الا انه ترك المجال مفتوحا امامالكرملين عل الامر يسوى ولا تعلن القرارات . وهذه كانت المهمة التي اوكلت الى عزيز صدقي .

وهنا لا بد من الدخول في التفاصيل لاستكمال الصورة .

يوم ٦ تموز (يوليو) ١٩٧٢ كان الرئيس السادات في استراحة القناطر الخيرية التي يتوجه اليها في كل مرة يسمح له الوقت ، وعندما يريد القاء خطاب، او اتخاذ قرارات تتطلب الكثير من التامل. واستراحة القناطر الخيرية مبنى متواضع تبعد قرابة عشرين كيلومترا عن قلب القاهرة . والمنطقة مزروعة بأشجار عالية وتخترقها مياه النيل . وكانت الاستراحة المكان المفضل لجمال عبد الناصر . وكان يحرص على ان يقضي فيهـا يـوم الجمعة والايام الاخرى التي يسمح له بها وقته .

وابلغ السادات وهو في الاستراحة بوصول الرسالة . ولم يكترث للامر الى درجة انه لم يطلب من احد مساعديه احضار الرسالة اليه . وعدم اكتراثه سببه انه اجتمع في ذلك اليوم الى وزير الدفاع السعودي الامير سلطان بن عبد العزيز الذي كان عائدا حديثا من واشنطن حيث اجتمع الى الرئيس نيكسون وبحث معه في ازمة الشرق الاوسط.وواضح ان السادات اراد ان يعرف من الوزير السعودي الجديد فـي الموقف الاميركي . وبسبب اتخاذ السادات قراراته المتعلقة بانهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات في أعقاب لقائه بالوزير السعودي

فان كثيرين ، بعدما اعلن السادات قراراته الخطيرة ، ربطوا بين اللقاء والقرارات وذهبت ظنونهم بعيدا الى حد ان الرئيس المصري اتخذ قراراته لان الوزير السعودي ابلغه كلاما مطمئنا سمعه من الرئيس نيكسون . واكثر من ذلك قيل ان نيكسون طلب من الامير سلطان ابلاغ السادات انه اذا اخرج السوفيات من مصر فان الولايات المتحدة ستساعد جديا على حل ازمة الشرق الاوسط وان السادات وافق وقرر انهاء الوجود العسكري السوفياتي في بلاده ثمنا لحل الازمة . وزاد في ذلك ان معلومات نشرت خارج مصر وافادت ان الامير سلطان بحث مع نيكسون في موضوع الوجود السوفياتي وان الوزير السعودي قال للرئيس الاميركي ان القيادة المصرية واعية وموضوعية ومتفهمة وهي تدرك انه ليس في السياسة عواطف دائمة انما مصالح دائمة .

الا ان السادات بدد كل الظنون بعد ذلك عندما نسف بقية الجسور العالقة مع الولايات المتحدة في الخطاب الذي افتتح به المؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي العربي يوم الاثنين ٢٤ تموز (يوليو) ١٩٧٢ واعلن فيه ان كل التعقيدات في الموقف سببها الولايات المتحدة .

ويوم ٨ تموز (يوليو) ١٩٧٢ وكان السادات عاد الى قصر عابدين لم يفتح الرسالة بنفسه وانما تولى ذلك احد مساعديه في حضور السفير السوفياتي والمترجم الذي قرأ وقرأ ثم توقف . وظن السادات ان الرسالة لم تنته بدليل انه قال ، وقارىء الرسالة ما زال ممسكا بها : « اما فين الاجوبة عن السبع نقط ، هل انتهت الرسالة ؟ » . ورد السفير : لقد انتهت . وكرر السادات السؤال نفسه وسمع من فينوغرادوف العبارة السابقة : لقد انتهت الرسالة . والنقاط السبع عبارة عن مطالب وتساؤلات وكان ضمنها رسالة بعث بها الى القادة السوفيات وانتظر طويلا الاجوبة عنها .

كان السادات قبل ان تصله الرسالة بفترة قال لوزير الخارجية الدكتور مراد غالب والسفير فينوغرادوف انه في انتظار الاجوبة عن النقاط السبع . كذلك طلب من السفير المصري في موسكو ان يراجع في شأن هذه النقاط . وعندما جاء الماريشال اندريه غريشكو وزير الدفاع السوفياتي الى القاهرة فعل الشيء نفسه ... ولا جواب .

ولقد تضايق السادات من الرسالة التي وصلته من القيادة السوفياتية يوم ٦ تموز (يوليو) ١٩٧٢ لانها ، بالاضافة الى عدم تضمينها اجوبة عن تساؤلاته : تجاهلت تماما ما يطلبه . ففي صفحتها الاولى كلام عما فعله السوفيات من اجل مصر وقد صيغ الكلام بشعارات . والصفحة الثانية تتحدث عن حملات التشكيك السائدة في الصحف المصرية وداخل الجيش ، في الاتحاد السوفياتي وموقفه . ومعظم الحديث كان حول المقالات التي كتبها محمد حسنين هيكل رئيس تحرير «الاهرام»

حول حالة اللاسلم واللاحرب . وفي الصفحة الثالثة كلام عن المعارك التي خاضها الاتحاد السوفياتي والمفهوم السوفياتي للمعركة وشروط المعركة وتلميح الى ان القوات المصرية ليست قادرة على الحرب .

لم يكن هنالك اي جواب عن النقاط السبع التي ضمنها رسالة بعث بها الى بريجنيف وانتظر طويلا الرد عليها.. والنقاط السبع تتفرع من نقطة اساسية كبيرة هي : يقول الاتحاد السوفياتي انه في ضوء محادثات القمة مع نيكسون حول ازمة الشرق الاوسط لا يتوقع تغييرا في الموقف الاميركي . اذا كان هذا هو الواقع فما الذي ستفعله موسكو؟ وهل ستعيد النظر في موقفها من موضوع السلاح ؟.

لقد شعر السادات بأنه يعامل بمنتهى اللامبالاة . فهو لا يطلب من قادة الكرملين ايضاحات تتعلق بقضايا تخص الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ولا هو اقحم نفسه في ما قررته القمة الاميركية ـ السوفياتية بالنسبة الى الامن الاوروبي . انه يطلب ايضاحات حول قضية تخصه اولا واخرا. وهو يستوضح من منطلق القلق ما اذا كانت القمة الاميركية ـ السوفياتية قررت المزيد من التأجيل لازمة الشرق الاوسط التي تكاد تدمر الوضع الداخلي في مصر من كثرة اتساع حالة التمييع التي تعيشها.

ثم ، اذا كان زعماء الكرملين تلقوا منه رسالة حول موضوع معين فمن اللائق الا يردوا ، او يردوا في حدود المستطاع على الموضوع المطلوب ، لا ان يتجاهلوا هذا الموضوع ويردوا برسالة طويلة تتحدث عن موضوع اخر .

وتملكت السادات حالة غضب . وقرر ان يتخذ «الوقفة الموضوعية مع الصديق» وهو التعبير التفسيري لقراراته الخطيرة المتعلقة بانهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات . وابلغ السفير السوفياتي بما قرره وسلمه رسالة متضمنة طلبين اساسيين ، فاتصل فينوغرادوف بموسكو وجاءه الرد : ان الموضوع يستدعي ذهاب وفد مصري على مستوى عال الى موسكو .

وعلى هذا الاساس تقرر ايفاد رئيس الحكومة الدكتور عزيز صدقي . وسافر صدقي ومعه وفد اختار السادات اعضاءه بنفسه .

وفي اجتماع استغرق ثماني ساعات متواصلة مع قادة الكرملين بحث في الامور بكثير من الصراحة. كانت الرسالة التي بعث بها السادات الى قادة الكرملين متضمنة الطلبين الاساسيين قد درست بعناية . لعلها كانت الرسالة الوحيدة من رسائل السادات الى قادة الكرملين التي يعيرونها اهتمامهم . ومرد ذلك ان صياغة لهجتها جديدة عليهم كذلك التحذيرات التي يطلقها الرئيس المصري عبرها .

ما هما طلبا السادات ؟

انهما :

الاول ــ تنفيذ كل الطلبات المتفق عليها وبالذات طائرات ميغ ــ ٢٣ وصواريخ ارض ــ ارض .
الثاني ــ وضع كل المنشآت السوفياتية في مصر في اشراف القيادة المصريــة .
وفي الجلسة الوحيدة والمطولة قال الوفد السوفياتي ان الطلب الاول من طلبي الرئيس السادات قابــل للنقاش اما الطلب الثاني فانه مرفوض .
وكانت التعليمات التي زود بها عزيز صدقي تقضي بابلاغ القادة السوفيات تمسك السادات بتنفيذ الطلبين ، والا . . .
والا : ماذا ؟
والا . . . يعلن قراراته انهــــاء مهمة الخبراء والمستشاريــن العسكريين السوفيات .
ومن التعليمات ايضا الا تكون هناك لقاءات ثنائيــة وان يحضر جميع اعضاء الوفد المصري المحادثات التي تعقد مع القادة السوفيات . وهدف السادات من ذلك هو انه يريد ان يتبلغ السوفيات كلاما واحدا منه ويتبلغ منهم كلاما واحدا ايضا .
وحيال استعداد القادة السوفيات لمناقشة الطلب الاول من طلبي السادات ورفضهم الطلب الثاني اقترح عزيز صدقي ان يتم اعلان انهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات العاملين مع الجيش المصري ، ببيان سوفياتي ــ مصري يتضمن كلاما وديا واشادة بالمهمة التي قاموا بها. واقترح صدقي ان يتضمن البيان العبارة الاتية : « ان الطرفين اتفقا على سحب الخبراء والمستشارين السوفيات بعد ان ادى هؤلاء مهمتهم في عملية اعادة بناء القوات المسلحة المصرية » .
وقال بريجنيف : لقد عرضــنا أربع مــرات سحب الخبــراء والمستشارين العسكريين العاملين في جيشكم ولا مانع من سحبهم .
وزاد كوسيغين قائلا : اذا أردتم ان تصدروا مثل هذه القرارات فهذا حقكم ولكنها في هذه الحالة ستصدر من جانب واحد اي من جانبكم. أننا سننفذ طلبات الرئيس السادات واذا كنتم ترون اصدار بيان فهذا متروك لكم أيضا .
كان السادات في انتظار الجواب الذي سيحمله عزيز صدقي الذي اختصر اقامته في موسكو وعاد . وبعدما ابلغه النتائج قرر اعلان انتهاء مهمة الخبراء والمستشارين أمام اللجنة المركزية في الاجتماع الذي عقدته يوم الثلثاء ١٨ تموز (يوليو) ١٩٧٢ .
ولم تنشر الصحف المصرية الصادرة في اليوم التالي سوى القليل القليل القليل من كلام السادات في الاجتماع ، ذلك بانه قال كلاما في منتهى الخطورة . اكتفت الصحف بنشر نص بيــان اصدرته اللجنــة

المركزية* بالاضافة الى كلام شرح فيه السادات تطور اتصالاته مع الاتحاد السوفياتي وظروف الخطوات الثلاث التي قرر اتخاذها وهي :

١ — انهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات في مصر وذلك ابتداء من ١٧ تموز (يوليو) ١٩٧٢ على ان يتحمل رجال القوات المسلحة المصرية المسؤولية الكاملة في الامور العسكرية والفنية على السواء . وقد نفذت هذه الخطوة فعلا .

٢ — تكون كافة المعدات والمنشآت التي اقيمت داخل الاراضي المصرية في خلال فترة ما بعد عدوان يونيو (حزيران) ١٩٦٧ ملكا خالصا لجمهورية مصر العربية وفي ادارة قواتها المسلحة .

٣ — الدعوة في اطار معاهدة التعاون والصداقة مع الاتحاد السوفياتي الى اجتماع مع القادة السوفيات لاجراء مشاورات بالنسبة الى المرحلة المقبلة .

وكانت عناوين الصحف المصرية الصادرة الاربعاء ١٩ تموز (يوليو) ١٩٧٢ مذهلة . صحيح ان قرارات السادات من الزاوية الصحافية في منتهى الاهمية وقد اعطتها الصحف حقها من حيث الابراز ، الا ان الاسلوب كان فيه الكثير من التحدي . وفي حين كانت « الاهرام » اكثر الصحف الثلاث هدوءا واتزانا ووضعت للقرارات عنوانا هو فقرة من كلام السادات « وقفة موضوعية مع الصديق تعطي لكل ذي حق حقه » فان « الاخبار » اندفعت كثيرا وكان عنوانها بالاحمر الفاقع « انهاء مهمة الخبراء السوفيات » . اما « الجمهورية » فكانت اقل اندفاعا . صحيح انها وضعت عنوانا بالاحمر الباهت هو « انهاء مهمة الخبراء العسكريين السوفيات » الا انها مثل « الاهرام » لم تخصص صفحتها الاولى كلها للحدث كما فعلت « الاخبار » وانما نشرت اخبارا اخرى كثيرة . وكما ان هدوء « الاهرام » واتزانها طبيعيان ، كذلك فان اندفاع « الاخبار » له ما يبرره . كذلك فان وقوف « الجمهورية » بين الاتزان والاندفاع له ما يبرره ايضا . ففي « الاخبار » تيار عارم ضد السوفيات . وفي « الجمهورية » تيار متعاطف مع السوفيات . اما في « الاهرام » فهنالك تيار متفهم للظروف .

وفي الفترة التي تلت اعلان القرارات استمرت « الاهرام » متزنة . واستمرت « الاخبار » مندفعة . واستمرت « الجمهورية » في الموقف الوسط .

لقد تهيأ للبعض ان عزيز صدقي انما سافر الى موسكو ليخفف من وقع قرارات السادات . ولكي يؤكد الرئيس المصري انه ترك المجال واسعا أمام السوفيات لكي يتفهموا الظروف ويلبوا الطلبات فانه اعلن

---

* نص بيان اللجنة في فصل الوثائق .

يوم ١٨ تموز (يوليو) ان مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات تنتهي ابتداء من ١٧ تموز (يوليو) اي بعد ثلاثة ايام من عودة عزيز صدقي من موسكو ولقائه بالقادة السوفيات . ذلك بأن عزيز صدقي سافر يوم ١٣ تموز (يوليو) وعاد يوم ١٤ منه . وكان واضحا ان السوفيات الذين لم يأخذوا في الاعتبار الضيق الذي كان يعانيه السادات من اسلوب معاملتهم لا يريدون ان يخضعوا لطلبات تفرض عليهم لان مثل هذا الخضوع مرة سيدخل تقليدا جديدا على طبيعة العلاقات المصرية ــ السوفياتية منذ بدات . وفوق ذلك ان المنطق المالوف هو ان الذي يساعد هو الذي يفرض شروطا وليس الذي يحصل على المساعدة .

ترك السادات المجال واسعا امام السوفيات علهم يعيدون النظر في موقفهم ولما لم يتجاوبوا ولم يكترثوا ولم يوافقوا حتى على ان يتم اعلان انتهاء مهمة الخبراء والمستشارين ببيان ودي قال عنهم كلاما قاسيا في اجتماع اللجنة المركزية . ولا بد انه استنادا الى الكلام الذي نقله اليه عزيز صدقي ، ورفض زعماء الكرملين اصدار بيان عن انتهاء مهمة الخبراء والمستشارين ــ في حين ان وكالة انباء « تاس » نشرت في اليوم التالي لاعلان القرارات أن سحب الخبراء تم باتفاق الطرفين ــ شعر بأن موسكو تريد احراجه بحيث ان اي ردود فعل ومضاعفات آنية ومستقبلية لقراراته لن تعتبر نفسها مسؤولة عنها وانما هو وحده الذي يتحمل المسؤولية .

وسار قدما في التحدي لمواجهة الاحراج السوفياتي . وقال في اجتماع اللجنة المركزية ثم في لقائه بعد ذلك مع رجال الأعلام كلاما لم تكن موسكو تتوقع أن يصدر عنه .

ما الذي قاله ؟

قال : أن هنالك قدرا هائلا من الشكوك بين القيادتين المصرية والسوفياتية . وهذه الشكوك موجودة من أيام عبدالناصر . وبسبب هذه الشكوك فان عبدالناصر بعد هزيمة ١٩٦٧ كلف الدكتور مراد غالب سفير مصر آنذاك مناقشة السوفيات في التوقيع على معاهدة وذلك لطمأنتهم . وقد رد السوفيات مؤيدين قيادته مؤكدين ثقتهم به . الا ان السوفيات اوفدوا الرئيس بودغورني الى القاهرة بعد الذي حدث « للاولاد المنشقين » (يقصد علي صبري وافراد مجموعته) ومعه نص المعاهدة « بالعربي والروسي موحين بذلك انهم مش واثقين بي » . ولكي اطمئنهم قلت لوزير الخارجية آنذاك محمود رياض : مشي الحكاية .

وفي خلال الاجتماع سأل احد اعضاء اللجنة المركزية : هل يحتمل اقدام السوفيات على ان يفعلوا أمرا ما ردا على قرارات انهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين ؟

واجاب : « انا عامل حسابي وسارد الصاع بعشرة » .

وقال ان « الاولاد المنشقين » شوهوا صورتــه امام السوفيات واوحوا الى قادة الكرملين بانه يريد فصم عرى الصداقة مع الاتحــاد السوفياتي وانهم وحدهم (اي علي صبري وافراد مجموعته) في يدهم المحافظة على استمرار هذه الصداقة .

واضاف : « ... وكان الصداقة خاصة بهم وليس بالبلد ككل » .

وقال بعض اعضاء اللجنة المركزية : « نرجوك من هنا ورايح تبقى الاجتماعات مع القادة السوفيات ، في القاهرة » .

واجاب : « ما عنديش في الفترة المقبلة اي ارتباطات لزيارات في الخارج » . (غادر القاهرة بعد ذلك الى ليبيا حيث وقع على اتفاق الوحدة الكاملة بين مصر وليبيا) .

واوضح السادات في اللجنة المركزية ان الخبــراء والمستشارين العسكريين جزء من المعونة السوفياتية وانه اتخذ القرار بسحبهم دون تشنج « ... وساحارب المتشنجين ضد روسيا . التشنج سلاح العاجز واحنا مش عاجزين » .

واشار الى ان سحب الخبراء والمستشارين العسكريين يمكن ان يزيل الحساسية التــي كانت بدات تتواجد داخــل الجيش المصري « ... خصوصا بعدما أدوا مهمتهم مشكورين » .

واوضح كذلك ان قرار انهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات كان يدور في راسه منذ فترة بعيدة وانه ارجا اتخاذه غير مرة ليعطي موسكو فرصة لتصحيح الموقف .

وقال ان السوفيات لم يلتزموا مواعيد تسليم الاسلحة الى مصر وماطلوا في تسليم الاسلحة المتطورة . وانهم اتفقوا معه على برنامج زمني تحددت فيه في شكل مفصل مواعيد تسليم الاسلحة وانواعها الا انهم لم يفوا بالالتزام برغم ان نسخة ثانية من البرنامج كانت لدى القادة السوفيات « ... واضطريت اقول ضباب واتحمل على صدري كل شيء » نتيجة لموقف السوفيات .

وساله احد اعضاء اللجنة المركزية عن كيفية العمــل اذا قامت المعركة . واجاب ان مصر كانت ستحارب بطريقة معينة لو ان طلبات السلاح نفذت اما وان هذه الطلبات لم تنفذ فان الحرب ستتم بطريقة اخرى .

واوحى من خلال كلامه في اللجنة المركزية بأن السوفيات لا يريدون الحرب ... ولا يريدون النظام ... ولا يريدونه بالذات رئيسا لهــذا النظام . وعلى هذا الاساس يتصرفون . ولو كان الامر غير ذلك لما كانوا تباطأوا او ماطلوا في تلبية طلباته .

وثمة امر مثير اشار اليه السادات هو ان وزير الدفاع السوفياتي الماريشال اندريه غريشكو كانت مهمته اعلامية عندما زار مصر قبل ان

تبدأ زيارة نيكسون لموسكو واجتماعه الى القـــادة السوفيات . كان السوفيات قد أخذوا في الاعتبار ان القمة الاميركية ـــ السوفياتية في موسكو ستثير لدى اصدقائهم العرب تساؤلات واجتهـــادات وشكوكا كثيرة . ومن أجل ذلك بحثوا عن طريقة تغطي التساؤلات والاجتهادات والشكوك فأوفدوا الماريشال غريشكو ، وحرصوا على ان يكون هو بالذات ، اي الرجل العسكري الاول في الاتحاد السوفياتي ، لكي تكون التغطية مفيدة .

وفي هذا الصدد قال السادات امام اللجنة المركزية انه كان يعرف تماما ان زيارة غريشكو هي « تغطية اعلامية » وانه رغم علمه بذلك حرص على ان تبدي مصر اقصى الاهتمام بزيارة وزير الدفاع السوفياتي. ومن مظاهر الاهتمام اجتماعه مطولا اليه ثم زيارتهما معا قاعدة جوية متقدمة حيث شاهدا طائرة متطورة اهتم الاعلام المصري كثيرا بها لدرجة انه اوحى بان الطائرة هي ميغ-٢٣ وان معنى ذلك ان المصريين حصلوا من الاتحاد السوفياتي على ما يريدون وان موسكو لا يمكن ان تحيد عن موقفها الثابت وهي تريد محادثة نيكسون من موقع وقوفها في شكل قوي الى جانب مصر .

قال السادات انه كان يعرف ان زيارة غريشكو هي تغطية اعلامية سوفياتية لقمة موسكو ومع ذلك اهتم به ، لكنه بعد انتهاء الزيارة قال له في شكل حاد أمورا كثيرة وكرر طلباته من السلاح . لكن الكلام الحاد لم يمنع الاهتمام الكبير بالزيارة والايحاء بأن الاتحاد السوفياتي سلم مصر طلبها الاساسي وهو الطائرات المتطورة من ان يحدثا رد فعل نفسيا جيدا لدى المصريين والعرب اصدقاء مصر . وعندما تبين للمصريين بعد انتهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات ان الاهتمامات التي ابديت في خلال زيارة غريشكو انما ابديت في غير محلها تحول رد الفعل النفسي من جيد الى سيىء .

هنا أرى الاشارة ضرورية الى كلام قاله الرئيس الليبي العقيد معمر القذافي في خلال حوار اجريته معه في منزله في طرابلس ظهـــر الخميس الاول من حزيران (يونيـــو) ١٩٧٢ لمناسبـــة « ٥ حزيران الخامس » . قلت في ذلك اللقاء للعقيد القذافي : الا ترى ان القضية ، ونحن في ذكراها الخامسة ، مائعة في استمرار . الا يكفي الانتظار في ظل حالة اللاحرب واللاسلام . وهل انت مـــن الذين يرون جدوى في استمرار هذا الوضع المتارجح ؟

واجابني : « أنا ضد استمرار وقف اطلاق النار . يجب ان نحارب ولا أدري ما الذي يمنعنا من بدء المعركة . ولكن لا بد من وضع نقاط على الحروف بالنسبة الى هذا الوضع المتارجح . انني ارى ، بكثير من القناعة ، ان الاتحاد السوفياتي هو الذي يميع الموقف . كيف ؟

ان الاتحاد السوفياتي هو الذي ميع القضية لان المتعاملين معه ــ وبالذات مصر ــ لم يعودوا يعرفون اذا كانوا سيحصلون على مــا يطلبونه من سلاح بعد شهر او خمسة اشهر مثلا . انهم يطلبون السلاح ولا يعرفون متى سيوافق الاتحاد السوفياتي على الطلب . كذلك فانهم لا يعرفون اذا كان الاتحاد السوفياتي سيقدم السلاح الهجومي او لن يقدم . انه يفعل ذلك وما زال صديقا للعرب ، لكن اسلوبه هذا جعل القضية مائعة وضائعة في الضباب الدولي . ان العرب يتصورون ان الازمة تهمه كما تهمنا . ومن يدري فقد تكون ازمة الشرق الاوسط تحمل الرقم ١٠ وربما الرقم مئة في قائمة الازمات التي هو من بعيد او من قريب طرف فيها . ان أزمة الشرق الاوسط من القضايا التي تهم الاتحاد السوفياتي لكنها ليست القضية الاولى ومن هنا هذه البلبلة والميوعة » .

وقلت للعقيد : وهل من علاج ؟

اجابني: « الحسم هو العلاج. الوضوح هو العلاج . ان العلاقات العربية مع الاصدقاء والاعداء يجب ان تحدد في وضوح » .

وقلت له : لكن الاتحاد السوفياتي ، كما يقول الاخوان في مصر وعلى راسهم السادات ، قدم الى مصر كل ما طلبته . ثم اظنك سمعت أو قرأت او بلغك انه في خلال زيارة وزير الدفاع السوفياتي الماريشال اندريه غريشكو للقاهرة حضر مع الرئيس السادات في احدى القواعد الجوية عرضا جويا ظهرت فيه طائرة متطورة شغلت بال الاسرائيليين ويعتقد انها ميغ ــ ٢٣ ، حتى ان وسائل الاعلام المصرية أوحت بذلك .

اجابني : « الاتحاد السوفياتي دولة كبرى تبحث دائما عن الدعاية وعن أوراق في يدها تلعبها عند الضرورة . لقد جاء غريشكو الى القاهرة قبل ايام قليلة من زيارة الرئيس نيكسون لموسكو . وكان الحديث عن الطائرة البعيدة المدى مبالغا فيه . كــان الحديث تظاهرة . تظاهرة كبرى . الطائرة . الطائرة . الطائرة . الصحف تكتب عن الطائرة . الاذاعة تتحدث عن الطائرة . التلفزيون ايضا . الناس اصبحــوا لا يتحدثون الا عن الطائرة المتطورة التي شاهدها السادات وغريشكو في عرض خاص . وبداوا ايضــا يشغلون انفسهــم في تفسيرات وبداوا يتوقعون المعركة بين لحظــة واخرى. ما دامت الميغ ــ ٢٣ وصلت الى مصر . لكن الطائرة التي عملنا لها تظاهرة اعلامية ضخمة هــي الطائرة التي اقلت غريشكو الى دمشق ثم الى القاهرة . . . ثم اخذها معه عندما عاد الى موسكو من دون ان يترك لنا شيئا . الذي تركه هو تفاؤل المواطنين ورفع معنويات غير مبنية علــى اسس . لقد عملنا للطائرة دعاية اضرت بقضيتنا كثيرا في حين انها جعلت موقف السوفيات قويا في محادثاتهم مع نيكسون » .

واذا نحن حاولنا الربط بين كلام القذافي الذي اذكر انه قاله لي

بمرارة وبين القرارات التي أصدرها السادات بانهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات لوجدنا ان القرارات مكملة للكلام .

وهنا تجدر الاشارة الى نقطة اساسية . لقد اجريت الحوار مع القذافي في اليوم الاول من حزيران (يونيو) ١٩٧٢ ونشر الحوار في « النهار » على حلقتين . الاولى يوم ٤ حزيران (يونيه) والثانية في اليوم التالي الذي صادف بدء الذكرى السادسة لهزيمة ١٩٦٧ . وقررت الصحف المصرية ان تنشر مقتطفات من الحوار وتبرزها . وجمعت كل ما نقلته وكالات الانباء من كلام قاله الرئيس الليبي في الحوار وحولته الى مادة للنشر . لكن الرقابة في مصر اعترضت وتصلبت في موقفها ولم تسمح بالنشر ، ثم وافقت على نشر فقرات مجتزاة لا تعطي فكرة واضحة عن كلام القذافي .

لماذا حدث ذلك ؟

من الواضح ان الرئيس السادات عندما ابلغ كلام القذافي اخذ في الاعتبار ان الارضية السياسية المصرية لتبني هذا الكلام من خلال نشره في الصحف لم تنضج بعد ، وان نشره قد يعرقل خططه لمجابهة السوفيات وقد يؤدي الى بلبلة . ان السادات يستعد للطريقة التي سيجابه بها السوفيات الا انه في الوقت نفسه يريدها طريقة مثالية او شبه مثالية . وتبني كلام القذافي ، علما بأنه موافق عليه ، قد لا يحقق له الغرض .

ولا شك في ان كلام القذافي اثير بعد ذلك في القمة الثلاثية التي عقدت متأجلة بضعة ايام في مرسى مطروح . وسفر الرئيس السوري حافظ الاسد بعد ايام قليلة من انتهاء اعمال القمة كان بتكليف من الرئيسين السادات والقذافي . لكن حتى اشعار آخر يبدو ان الاسد سافر الى موسكو وهو غير عالم بأن السادات يفكر في انهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين . اما بالنسبة الى القذافي فلا بد انه كان عارفا بالامر بل ، ربما ، مطالبا بذلك متعهدا في المقابل بأن يتحمل مع السادات عبء المضاعفات التي ستنتج من ذلك .

ولقد حدثت تساؤلات كثيرة في هذا الصدد منها على سبيل المثال لا الحصر : كيف لا يطلع السادات شريكيه في اتحاد الجمهوريات العربية على قراراته انهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات ؟

وحول هذا التساؤل كان هنالك رد مصري شبه رسمي مفاده انه كان مفترضا ان يصل الرئيس السوري حافظ الاسد من موسكو يوم ٨ تموز (يوليو) ١٩٧٢ ، اي يوم قرر السادات اتخاذ القرارات ، وبذلك يكون اطلع على القرارات قبل اعلانها في اللجنة المركزية ، لكن الاسد تأخر فجأة الى يوم ٩ تموز (يوليو) وبذلك لم يتسن له الاطلاع على القرارات .

ونلاحظ هنا ان الايضاح كان فقط بالنسبة الى احد الشريكين الامر

الذي يوحي بأن الشريك الثالث العقيد معمر القذافي لا يريد مثــل هذا الايضاح لانه في الاساس مشارك عمليا في صنع القرارات . ومثل هذا الكلام انما هو اجتهاد لكنه من الذي يبدو ذا طابع رسمي ومؤكد .

وحيال ذلك ، كان من الطبيعي ان نتوقع أن يطالب القذافي بعد ذلك السادات بالغاء معاهدة الصداقة والتعاون التي عقدها مع الاتحاد السوفياتي وهي في اي حال مطالبة شرعية ما دامت مصر وليبيا اتفقتا على الوحدة الاندماجية .

ومن جديد أعود الى كلام آخر قاله لي القذافي في خلال الحوار الذي أجريته معه في اليوم الاول من حزيران (يونيو) ١٩٧٢ ، لان في هــذا الكلام اجابة أو بعض اجابة عن التساؤلات المتعلقة بمعاهدة الصداقة والتعاون المصرية ــ السوفياتية . هل تبقى ام هل تلغى ؟

كنت اتحدث مع القذافي حول الموقف الجيد الذي وقفه من معركة العراق مع شركات النفط . وسألته ان كان هذا الموقف يعني انفراجا في العلاقات الليبية ــ العراقية ، فأجاب :

« ما زلنا محتجين على العراق بسبب توقيعه على معاهدة مع الاتحاد السوفياتي . واحتجاجنا له مبرره لان التوقيع على المعاهدة يعني تفريطا في استقلال الوطن العربي . الصداقة صداقة والاحتواء احتواء » .

قلت له : لكن هنالك معاهدة بين مصر والاتحاد السوفياتي مماثلة للمعاهدة العراقية ــ السوفياتية ، ومع ذلك فان موقفكم مــن مصر طبيعي جدا كأنه ليست هناك معاهدة . الا يبدو ذلك تناقضا ؟

اجاب : « المعاهدة شيء مرفوض سواء أكانت مصر ام العراق ام غيرهما طرفا فيها . لقد ضحت الامة العربية كثيرا بسبب المعاهدات . سقط عشرات الشهــداء . قوافل من الشهــداء . كل ذلك بسبب المعاهدات . وانه لامر مرفوض ان نكون نعيش مرحلة نهاية الكفاح من اجل التخلص من مناطق النفوذ ثم نجد ان كل شيء ينهار وترتبط دولة بعد اخرى بمعاهدة » .

واضاف : « في اسوأ الحالات ان توقيع مصر على معاهدة مــع الاتحاد السوفياتي له ما يبرره مع العلم ان لا الاتحاد السوفياتي ولا غيره قادر على احتواء مصر واستعمارها . ان مصر تملك في استمرار قدرة مواجهة من يريد ان يحتويها اما العراق فان وضعه مختلف ، والمعاهدة التي وقع عليها مع الاتحاد السوفياتي ليست مستندة الى اسس صحية . النظام الحاكم في العراق ليس متجانسا مع النظام السوفياتي . العراق معــاد للشيوعية والبعث في العراق هو الذي ذبح الحزب الشيوعي . موسكو تعرف ذلك تماما وبغداد تعرف اكثر من ذلك . اين التجانس لكي يوقع العراق والاتحاد السوفياتي على معاهدة ؟ ان الامر مجرد خدعة . واحد

يخدع الاخر . ان المعاهدة العراقية ــ السوفياتية ليست ضرورة ملحة. قد يكون المازق الذي تجتازه مصر حتم عليها ان تتحالف مرحليا مع الاتحاد السوفياتي ، ولكن ما هي حجة العراق ؟ ان الامر يبقى مجرد خدعة ومجرد ابتذال ولعب بمصائر الشعوب » .

قلت للقذافي : وما هو في تصورك البديل من هذه المعاهدات ؟

واجاب : « البديل هو الوحدة العربية » .

ما الذي يمكن تلمسه من كلام القذافي . ومن كلام كثير آخر قاله ؟

لقد هاجم القذافي الاتحاد السوفياتي بعنف وهو شريك لمصر التي هي الحليفة الاساسية للسوفيات في المنطقة . قال ان الاتحاد السوفياتي يعمل مصلحته ومصلحته هي في الابقاء على الوضع مائعا . ولم تعلق مصر بشيء . وعندما انفجرت ازمة الخبراء والمستشارين العسكريين بدأ المسؤولون المصريون يقولون كلاما مماثلا .

وقال ان الاتحاد السوفياتي لا يقدم اسلحة هجومية الى مصر . ولم تعلق مصر بشيء . وعندما انفجرت ازمة الخبراء قال السادات نفسه الكلام الذي قاله من قبل القذافي .

وعندما نشبت الحرب الهندية ــ الباكستانية وقف القذافي الى جانب باكستان المسلمة وقال في رسالة شهيرة الى رئيسة وزراء الهند انديرا غاندي ما معناه ان عقد الهند معاهدة مع الاتحاد السوفياتي افقدها صفة الدولة غير المنحازة .

وكان السوفيات في استمرار يعاتبون السادات على المواقف التي يتخذها القذافي والتصريحات التي يدلي بها وكلها معادية للاتحاد السوفياتي والشيوعية . وكان السادات يهدىء من انفعالات زعماء الكرملين ويوضح لهم ان العقيد القذافي شاب ثوري ووطني وانه احيانا يقول له ــ اي للسادات ــ كلاما حادا ولكنه ــ اي السادات ــ يقدر مشاعر الرئيس الليبي وحماسته . كان السادات يجد نفسه مضطرا الى مثل هذه الايضاحات لكنه في الوقت نفسه كان موافقا ضمنا على كل ما يقوله القذافي في حق السوفيات . وتدليلا على هذه الموافقة فان محمد حسنين هيكل قال في ذروة الضيق السوفياتي من مواقف الرئيس الليبي ما معناه انه يجب أن يكون هنالك من يقول للاتحاد السوفياتي : « لا » عند الضرورة .

وفي المقابل لم يكن القذافي حريصا فقط على اتخاذ هذه المواقف ضد الاتحاد السوفياتي والشيوعية ، بل كان في استمرار يحرص على ان يقدم لمصر ما يساعدها على خوض المعركة .

ومن هنا اصل الى اننا يجب ان نعترف بأن القذافي لعب دورا اساسيا في موضوع انهاء الوجود العسكري السوفياتي في مصر . كذلك يجب ان نتوقع دورا آخر يلعبه بشأن فك ارتباط مصر بالمعاهدة . والا

فما معنى قوله ان الوحدة هي البديل من المعاهدة . وهو وضع الحجر الاساسي في بناء الوحدة عندما اتفق مع السادات على قيام وحدة اندماجية كاملة بين مصر وليبيا يتم اعلانها في الاول من ايلول (سبتمبر) ١٩٧٣ .

وعندما تقوم مثل هذه الوحدة فمعنى ذلك ان دولة جديدة قامت . وعندها تصبح مصر في حل من المعاهدة . الا اذا تدهورت العلاقات المصرية — السوفياتية الى درجة ان يعلن السادات في لحظة غضب مماثلة للحظة التي اعلن فيها انهاء مهمة الخبراء والمستشارين ، فك ارتباط مصر بالمعاهدة . او ان يسبق الاتحاد السوفياتي السادات ، تداركا منه لمثل هذا الاجراء ، فيعلن هو ذلك .

وهنا يجب التذكير بأن مصر تضايقت جدا لان الاتحاد السوفياتي وقع على معاهدة صداقة وتعاون مع العراق . وعكس هذا الضيق الاهتمام الاعلامي المصري الذي كان باهتا جدا . ولقد تصورت مصر ان الاتحاد السوفياتي يريد افهامها انه يسعى وراء حليف اكثر اهمية منها ، او وراء حليف بديل يثق به اكثر من ثقته بنظام السادات . وكانت مصر قادرة قبل ان يعقد الاتحاد السوفياتي معاهدة مع العراق ان تستفيد من عقدها المعاهدة معه — اي مع الاتحاد السوفياتي — عن طريق تذكيره في استمرار بأنها فعلت ما لا يفعل : وقعت على معاهدة ، وعليه ان يفعل هو ما لا يفعل : يقف بحزم الى جانب مصر ويلبي طلباتها .

كذلك يجب الا نسقط من الحساب ان من بين الاسباب التي جعلت سوريا لا تعقد معاهدة مماثلة مع الاتحاد السوفياتي ، موقف القذافي الذي ابدى استعدادا لتعويض سوريا ما يمكن ان تجنيه من المعاهدة . وهذا السبب يضاف الى الاسباب السورية وهي كثيرة واساسية في الوقت نفسه .

... وبقيت علامة الاستفهام الكبيرة .

كيف يصدر بيان مصري — سوفياتي مشترك ودي في وقت كان زعماء الكرملين قد ابلغوا بأن السادات سينهي وجود الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات في مصر ؟

لقد ابلغ السادات يوم ٨ تموز (يوليو) ١٩٧٢ السفير السوفياتي فينوغرادوف قراره انهاء مهمة الخبراء . ثم سافر رئيس الحكومة المصرية الدكتور عزيز صدقي يوم الخميس ١٣ تموز (يوليو) اي بعد خمسة ايام من تبلغ موسكو القرار .

والذين لاحظوا طريقة تشكيل الوفد المصري الذي رأسه عزيز صدقي ظنوا ان الرجل يريد ان يبني جسورا جديدة مع الاتحاد

السوفياتي ، او بعبارة ادق ، يريد ان يلعب الدور الذي كان يلعبه علي صبري في السابق ، بعدما تبين للسادات ان مثل هذا الدور ضروري ومثل ذلك الشخص ضروري . وفي الوقت نفسه كان هنالك من لاحظ ان زيارة عزيز صدقي للاتحاد السوفياتي تقررت فجاة ، وهذا يعني انه قد تكون هنالك أمور ما وان الرجل ذاهب في مهمة وليس في زيارة . وبعد الاختصار المفاجيء لزيارة عزيز صدقي من ثلاثة ايام الى يوم واحد رجحت كفة الذين تصوروا ان عزيز صدقي ذهب الى موسكو في مهمة وليس في زيارة رسمية .

ونسجل هنا فقرة من البيان المشترك الذي صدر عن محادثات عزيز صدقي مع زعماء الكرملين ، خصوصا ان البيان صدر في وقت كانت موسكو تبلغت قرار السادات انهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات .

تنص الفقرة « ان اسرائيل بتجاهلها الوقح لقرارات الامم المتحدة ورفضها المتعنت ــ بمساندة من الولايات المتحدة ــ سحب قواتها من الاراضي العربية التي احتلتها عام ١٩٦٧ انما تدفع الى تفاقم خطورة الوضع في منطقة الشرق الاوسط . ويشجب الجانبان بحزم سياسة اسرائيل التوسعية المكشوفة . ويؤكدان مرة اخرى عزمهما على النضال من اجل التوصل الى تسوية عادلة في الشرق الاوسط واقرار سلام وأمن دائمين في هذه البقعة من العالم . ويشارك الاتحاد السوفياتي راي مصر وغيرها من الدول العربية انه يحق للدول العربية استخدام كل الوسائل المتوافرة لديها من اجل تحرير الاراضي التي احتلتها اسرائيل عام ١٩٦٧ ، ومن اجل تأمين الحقوق المشروعة للدول والشعوب العربية بما في ذلك شعب فلسطين » .

ومن الطبيعي ان المصريين عندما قرأوا البيان المشترك وفيه الفقرة التي أشرت اليها لم يخطر ببالهم ان العلاقات بين السادات وزعماء الكرملين على غير ما يرام ، بدليل أن كلمات البيان ودية .

... ولكن العلاقات كانت متوترة ومرشحة للتدهور . وهذا ما حدث .

٢ ـ الحرب النفسية بين موسكو والقاهرة

ان الامر اللافت الذي يدعو الى المزيد من التساؤلات هو ان الاتحاد السوفياتي التزم الهدوء ولم تصدر عنه ردود فعل متشنجة حيال قرارات السادات . وهذا الموقف يخالف موقفه يوم ضرب الحزب الشيوعي السوداني في تموز (يوليو) ١٩٧١ ، كان رد فعله آنذاك في منتهى القوة، بدليل ان قمة شيوعية عقدت في القرم بحثت في الامر واصدرت بيانا سنأتي على ذكره في الصفحات المقبلة .

لكن الموضوع مختلف . ضرب الحزب الشيوعي السوداني شيء ، وقرارات السادات اخراج الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات شيء اخر . الوقوف الى جانب الحزب الشيوعي السوداني في محنته قضية عقائدية ولذا فمن السهل اتخاذ هذا الموقف . اما اتخـاذ موقف متشدد كرد فعل لقرارات السادات فليس بالامر السهل ، ذلك بان قيادة الكرملين اخذت في الاعتبار ان السادات الذي اتخـذ قراراته المتعلقة بانهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات بتلك السهولة ووجد صدى طيبا حيال ذلك في صفوف المصريين سيلجأ الى اتخاذ المزيد من القرارات لو ان السوفيات تشددوا او تشنجوا . وعلـى هـذا الاساس فضل الكرملين ان يعالج الامر من زاوية هادئة وان يخطط في الوقت نفسه لما يجب ان يفعله في المستقبل . فالمعالجة الهادئة أسلم من اي انفعال . المعالجة الهادئة يمكن ان تقود في النهاية الى ازالة اسباب التوتر والى فتح صفحة جديدة في العلاقات . اما الانفعال فان الرد عليه سيكون انفعالاً مماثلا وهكذا يتصاعد التدهور .

وفي الوقت الذي كان السادات بدأ اجتماعاته الى الرئيس الليبي معمر القذافي (الاثنين ٣١ تموز (يوليو) ١٩٧٢) في قاعدة جمال عبد الناصر الجوية في طبرق كانت قيادة الكرملين تعقد في القرم مؤتمر ذروة مع زعماء دول حلف فرصوفيا . وقد شارك في المؤتمر : ليونيد بريجنيف ونيكولاي بودغورني (الاتحاد السوفياتي) تودور جيفكوف (بلغاريـا)

يانوش كادار (المجر) ايريك كونيكر (المانيا الديموقراطية) يومجافين تسيدينبال (منغوليا) ادوارد غيريك (بولونيا) نيكولاي تشاوشيسكو (رومانيا) غوستاف هوساك (تشيكوسلوفاكيا) .

واذا كانت محادثات طبرق بين السادات والقذافي امتدت وانتقلت من طبرق الى بنغازي وانتهت يوم الاربعاء ٢ اب (اغسطس) ١٩٧٢ الى الاتفاق على قيام وحدة كاملة بين مصر وليبيا على ان يتم التنفيذ في مطلع ايلول (سبتمبر) ١٩٧٣ ، فان قمة القرم انتهت في اليوم نفسه (اي الاثنين ٣١ تموز (يوليو) الى بيان مقتضب جاء فيه انه « تم في خلال اللقاء تبادل مثمر في الاراء في صدد البناء الاشتراكي والشيوعي والتطور اللاحق للتعاون الشامل بين الدول الاشتراكية . ونوقشت كذلك القضايا الدولية الملحة . واشار لقاء قادة الاحزاب الشيوعية والعمالية الى التفاهم التام ووحدة الاراء في صدد كل القضايا المبحوثة . وجرى اللقاء في جو ودي خالص » .

بيان هادىء. بيان في منتهى الهدوء . لماذا ؟ لان الاتحاد السوفياتي يريد ذلك في انتظار ان تنضج الطريقة التي سيرد بها على قرارات السادات .

ومن الطبيعي ان بريجنيف اطلع رفاقه في قيادة المعسكر الاشتراكي على خطوات تمت وخطوات ستتم . ومن خلال الاختيار الدقيق للكلمات التي صيغ بها البيان يلاحظ ان الاتحاد السوفياتي حرص اشد الحرص على الا ترد كلمة مصر في البيان علما بان المؤتمر عقد من اجلها بعد قرارات السادات المتعلقة بانهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين . وهنا تجدر الاشارة الى ان البيان الذي صدر عن القمة التي عقدت بعد الضربة التي وجهت الى الشيوعيين السودانيين كان اكثر وضوحا وسمى الاشياء باسمائها .

ويبدو ان قمة القرم ارتأت ان تكون المعالجة ، معالجة الوضع الذي نشأ من قرارات السادات ، معتمدة على الناحية النفسية اولا .

وفي عدد « البرافدا » يوم الجمعة ٤ اب (اغسطس) ١٩٧٢ ، اي بعد يومين من اعلان الاتفاق على الوحدة الكاملة بين مصر وليبيا ، بدأت معالم الناحية النفسية تظهر . فقد نشرت الصحيفة رسالة لمراسلها في القاهرة افادت ان الخبراء العسكريين في وحدات البحرية الحربية المصرية عادوا جميعا تقريبا الى الاتحاد السوفياتي وان الخبراء العسكريين السوفيات الذين ساعدوا على بناء السلاح الجوي المصري الذي « مني بخسائر كبيرة في خلال العدوان الاسرائيلي سنة ١٩٦٧ اوشكوا على مغادرة البلاد » .

واضافت الرسالة « ان العسكريين السوفيات مكثوا في مصر بناء على طلب القيادة المصرية حول تقديم المساعدة في مجال ضمان القدرة

الدفاعيـــة للجمهورية لمواجهة العـــدوان الاسرائيلي . وان الخبـــراء السوفيات تركوا ذكرى طيبة ، وعملهم عاد بمساعدة لا تقدر بثمن على القوات المسلحة المصرية » .

لقد عكست هذه الصيغة التي نشرت فيها « البرافدا » الرسالة شدة استياء الاتحاد السوفياتي من قرارات السادات . ذلك بأن العادة درجت على ان تتفادى الصحف السوفياتية الاشارة الى هزيمة السلاح الجوي المصري في حرب ١٩٦٧ .

وفي اليوم نفسه صدرت مجلة « نيو تايمس » وهي مجلة الشؤون الخارجية السوفياتية وفيها تذكير بالمحادثات التي عقدها في موسكو في خلال تموز (يوليو) ١٩٧٢ وفد من الحزب الشيوعي السوري وصدرت في خلالهـــا تحذيرات « مـــــن اي محـــــاولة لتقويض الصداقـــة العربية ـــ السوفياتية » .

ويوم السبت ٥ آب (اغسطس) ١٩٧٢ وزعت وكالة «نوفوستي» مقالا بعنوان « سياسة الاتحاد السوفياتي تجاه البلدان العربية تنبع من منهج مبدئي » .

وركز المقال ، الذي جاء بمثابة خطوة متقدمة على صعيد الحملـــة النفسية ، على ان الاتحاد السوفياتي لا يمكن ان يساوم عـــلى حساب اصدقائه . وفي هذا النطاق تضمن المقال فقرات اساسية جاء فيهـــا : « بفضل تقديم الاسلحة السوفياتية وعمل الخبراء العسكريين السوفيات حصل عدد من البلدان العربية على امكان اعـــادة بناء قواتها المسلحة الوطنية طبقا لاحدث متطلبات العلم الحربي والتجهيز التكتيكي . وهذا يرتدي اهمية سياسية ، ويلعب دورا مهما جدا في نضال الدول العربية ضد العدوان الاسرائيلي والمكائد الامبريالية ، وفي سبيل توطيد سيادتها وامنها الوطني . والمحادثات السوفياتية ـــ الامريكية ـــ التي جرت اخيرا في موسكو (محادثات نيكسون وقادة الكرملين) وكذلك الوثائق التي وقع عليها في اعقاب هذه المحادثات اتسمت بأهمية فائقة بالنسبة الى شعوب العالم بأسره سواء من حيث اهميتها ، ام اتساعها ، ام افاقها . واعتمد الاتحاد السوفياتي في المحادثات مواقف طبقية وواقعية مبدئية . وقبـــل اللقاءا تـمع الرئيس الامريكي بوقت طويل حدد ليونيد بريجنيف الموقف السوفيـــاتي على النحو الاتي : « ان تحسين العلاقـــات بين الاتحـــاد السوفياتي والولايات المتحدة أمر ممكن . وهو ، فوق ذلك امر مرغوب فيه . ولكن ، بالطبع ، ليس على حساب اي بلـــدان او شعوب ثالثة اخرى ، ولا خلافـــا لحقوقها المشروعة ومصالحها . هـــذا هو موقفنا الثابت » .

ولم تنته عملية التذكير بما قدمه الاتحاد السوفياتي للعرب . فقد وزعت « نوفوستي » بعد يومين مقـــالا اوردت فيه ابرز المساعـــدات

الاقتصادية التي قدمت الى الدول العربية . وفي حديثها عن المساعدات التي قدمت الى مصر فقرة ذات معنى وهي : « ... وقد حسب الخبراء المصريون ان خزان المياه الذي سينشئه سد اسوان سيمكن من ارواء ١٨٤٠ الف هكتار من الاراضي الصحراوية . ويصبح مدى اهمية هذا الواقع مفهوما اذا اخذنا في الاعتبار ان ٩٦ في المئة من اراضي البلاد لا تزال تغطيها الصحراء الميتة غير المستصلحة » .

ولقد ركزت « نوفوستي » على ان الاتحاد السوفياتي بمساعداته الاقتصادية التي قدمها لم يكن هدفه نشر نفوذ له في الشرق الاوسط .

ولقد ظهر عدم رضى مصر عن الكلام المتعلق بالمساعدات العسكرية والاقتصادية الذي اوردته « البرافدا » و « نوفوستي » عندما اغفلت الصحف واجهزة الاعلام المصرية هذا الكلام فلم تنشره .

ووسط هذا الجو المفعم بالتوتر والتساؤلات والترقب لا بد ان القيادة السوفياتية وضعت في الحساب السؤال الاساسي وهو : وماذا بعد ؟ ماذا بعد ان قضي الامر واصدر السادات قراراته انهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات ؟ كان في الامكان البحث عن صيغة توافقية ما لو ان السادات لم يصدر قراراته ، ولكن قضي الامر واصدر الرئيس المصري القرارات تاركا المجال رحبا امام التأويلات والاجتهادات .

ثم لماذا لا يكون البحث منطلقا من زاوية جديدة ومن مرحلة ما بعد خروج الخبراء او اخراجهم ؟

لو ان الاتحاد السوفياتي اختار الاسلوب المتشدد فقط في رده على السادات وقراراته لكانت صيغة البيان الذي صدر عن قمة القرم حادة قليلا او كثيرا .

ومصلحة الاتحاد السوفياتي ، اذا كان ينظر الى الامر من زاوية مصالحه ، هي التجاوب مع السادات للاسباب الاتية :

— كلما كان السادات قويا كلما كانت المصالح السوفياتية في خير . ومشكلة هذه المصالح انها بدأت تهتز بعدما توفي جمال عبد الناصر واصبح اي شخص يحل محله ليس في قوته .

— صحيح ان عبد الناصر لم يبن قوته وشعبيته على اساس مجابهة الاتحاد السوفياتي كما حدث بالنسبة الى السادات . الا ان الانشغال بهذه المعادلة لا يفيد ولا يشجع على تقوية السادات . يجب النظر الى الامر من منظار واحد هو المساعدة على تقوية مكانة السادات حتى لو كان ذلك على حساب شيء من المصالح السوفياتية او السمعة السوفياتية .

ـ ان الاتحاد السوفياتي اذا تجاوب مع السادات ، ومع رغباته وطلباته ، سيجعله في نظر شعبه قويا جدا . وسيقول عنه مواطنوه انه تحدى الاتحاد السوفياتي ونجح في تحديه وبعد الان سيكـون اسلوب التعامل مختلفا وجديدا ومن النوع الذي ياخذ في الاعتبار سيادة الراي المصري . وماذا يهم ما دام السادات يدرك الحقيقة . وما دامت القيادة السوفياتية تدرك هي الاخرى .

ـ انه قد ثبت للاتحاد السوفياتي ، او على الاقـل شبه له ، ان قـرارات السادات انهاء مهمـة الخبراء والمستشارين العسكريـين السوفيات كانت تعبيرا عن غيظ من الاسلوب السوفياتي في المعاملة ، ولم تكن مقدمة لصفقة يبيع السادات فيها مصالح الاتحاد السوفياتي في المنطقة في مقابل حل ازمة الشرق الاوسط . ومن شان ذلـك ان يعزز الثقة بقيادة السادات . وهذه الاسباب ليست كل شيء . انهـا بعض الشيء . وفوق ذلك هناك الناحية الاساسية وهي ان تجاوب الاتحاد السوفياتي مع السادات وطلباته من شأنه ان يقنع الرئيس المصري بأن السوفيات يريدونه . وهذه الناحية كانت اساسية جدا بالنسبة اليه . وفي مرات كثيرة قال امام بعض حوارييه ان المشكلة التي لا حل لها هي شعوره بان الاتحاد السوفياتي لا يريده رئيسا لمصر ، وان هذا الشعور كان ينمو في استمرار منذ جاء كوسيغين الى القاهرة للاشتراك في تشييع جنازة جمال عبد الناصر .

وهكذا نصل الى المعادلة المستقيمة وهي ان السادات اصبح بعد اخراجه الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات قويـا في الداخل وحتى في الخارج خصوصا انه في الوقت نفسه لـم يشرع النوافذ امام اعداء الاتحاد السوفياتي ، وانما اتجه نحو الوحدة ومسح بعض الغبار الذي غطى الناصرية او علق بها . وتجاوب موسكو معه سيجعله اكثر قوة في نظر المدنيين وفي نظر العسكريين وفي نظر العرب في شكل عام . وعلى هذا الاساس فان من مصلحة القيادة السوفياتية ان تلبي طلباته او بعض طلباته . ومن مصلحتهـا ان تتعامل مـع رئيس قوي . ومن مصلحتها ان تزيل الشكوك العالقة في ذهن السادات .

ويوم الاثنين ٧ اب (اغسطس) نشرت « الاهرام » نبأ يفيد ـ اذا اعتمدنا التفسيرات والاجتهادات ـ ان الكرملين سائر في طريق التجاوب مع السادات في شكل او في اخر .

وخلاصة النبأ الذي كان النبأ الرئيسي للصفحـة الاولى فـي « الاهرام » ان السادات تلقى رسالة مهمـة من بريجنيف اعربت عن تقدير كبير للصداقة المصرية ـ السوفياتية واكـدت الاهمية القصوى لتركيز دعائم هذه الصداقة .

واشارت « الاهرام » الى ان الزعماء السوفيات يمهدون الطريق

امام اجتماع قمة مع السادات ، برغم ان وزير الدولة للاعلام ووزير الخارجية بالنيابة الدكتور محمد حسن الزيات الذي اكد في مؤتمر صحافي عقده في اليوم نفسه وصول الرسالة ، اعلن ان رسالة بريجنيف « لا تبين طرقا جديدة مفتوحة او تدعو الى القيام باي عمل في الوقت الحاضر » . وانه في ضوء ذلك قرر بصفته وزيرا للخارجية استدعاء السفير المصري في موسكو يحيى عبد القادر .

وفي ضوء الرسالة ـ التي قيل ان رئيس مجلس الشعب المصري السيد حافظ بدوي الذي كان اول مسؤول مصري يزور الاتحاد السوفياتي على رأس وفد من مجلس الشعب حملها الى السادات ـ قرر السادات استدعاء سفيره في موسكو يحيى عبد القادر للتشاور .

وكان حافظ بدوي امضى ثلاثة ايام في موسكو اجرى في خلالها محادثات لم تظهر الصحف المصرية اهتماما بارزا بها . ويوم عودته الى القاهرة طلب اليه ان يتوقف في القرم لان بودغورني سيقابله . وتمت المقابلة واستغرقت ساعتين وربعا . وقال بدوي عن المقابلة انها تمت في جو من الود والصراحة الكاملة ، وان بودغورني قال له بعدما ابدى ارتياحه الكامل الى الوحدة بين مصر وليبيا : « ان الشعب السوفياتي سيظل دائما على العهد وانه كان وما زال الصديق الاول لمصر » .

كذلك نسب حافظ بدوي الى بودغورني قوله ان الدعم السوفياتي لمصر سيستمر من اجل تحقيق النصر وازالة اثار العدوان .

وكما ان السادات عبر الزيات ـ وهي خطوة لا بد انها ضايقت وزير الخارجية الاصيل الدكتور مراد غالب* ـ قرر في ضوء الرسالة التي تلقاها من بريجنيف استدعاء سفيره في موسكو فان زعماء الكرملين قرروا بدورهم استدعاء السفير السوفياتي في القاهرة فلاديمير فينوغرادوف للغرض نفسه . وقد سافر فينوغرادوف الى القرم للاجتماع الى الزعماء السوفيات الذين كانوا يقضون اجازة هناك ، قبل يوم من وصول الوفد المصري الى القاهرة . وقبل سفره اجتمع الى رئيس الحكومة الدكتور عزيز صدقي والسيد حافظ اسماعيل مستشار الرئيس السادات لشؤون الامن القومي والدكتور مراد غالب وزير الخارجية الذي حرصت وكالة « تاس » على ان تذيع في اليوم نفسه الذي نشرت « الاهرام » النبأ المتعلق برسالة بريجنيف الى السادات ، خلاصة مقابلة اجرتها معه مجلة « اغنيوك » السوفياتية وقال فيها « ان معاهدة الصداقة والتعاون بين الاتحاد السوفياتي ومصر اكدت مبادىء

---

* يوم الجمعة ٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٢ جرى تعديل وزاري في الحكومة المصرية اسند بموجبه الى الزيات منصب وزير الخارجية بدلا من مراد غالب الذى عين سفيرا في وزارة الخارجية .

الصداقة المزدهرة والتعاون الوثيق القائمين بين بلدينا واللذين تمكنا عن طريقهما من دعم قوتنا وهو الامر الضروري لتحرير اراضينا وازالة اثار العدوان (...) . ان صداقتنا تعد مثالا يحتذى في مجال العلاقات التي يمكن ان تقوم بين دولة كبرى ودولة نامية على اسس من المساواة والاحترام المتبادل والسيادة . ولقد قدم الاتحاد السوفياتي الى مصر مساعدات مادية فعالة لاعادة البناء في المجالين الاقتصادي والعسكري».

ولم تتوقف الحرب النفسية التي بدأتها موسكو في اعقاب اعلان السادات قراراته انهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين . وعهدت الى « نوفوستي » في مواصلة شن هذه الحرب . وكانت موسكو تنتظر كل خطوة يخطوها السادات فتدرسها وترد عليها بما يناسب . كانت تترقب خطوات القيادة المصرية في عناية . وكلما خطت تلك القيادة خطوة ترد هي عليها بـ « اجراء » نفسي .

وحدث ان القاهرة اذاعت يوم الاربعاء ٩ آب (اغسطس) ١٩٧٢ نصي برقيتين تبادلهما الرئيسان نيكسون والسادات لمناسبة ذكرى ثورة ٢٣ تموز (يوليو) . وتولت وكالة « انباء الشرق الاوسط » الرسمية توزيع نصي البرقيتين .

وبرغم خلو البرقيتين من اي كلام يفيد او يفتح الطريق امام افاق تسوية ازمة الشرق الاوسط الا ان توقيت نشرهما تميز بمظاهر الاغاظة . فبرقية نيكسون الى السادات وصلت عشية الذكرى العشرين للثورة . وكما هو مألوف فان السادات رد عليها بعد ذلك باسبوع . وهنا نجد انفسنا امام تفسيرين . الاول ان السادات سمح بنشر البرقيتين بعدما اعد الرد وان اعلان برقية الرئيس الاميركي والبرقية الرد تأخر ١٨ يوما عن قصد لان السادات لو اذاع نصي البرقيتين في وقت كانت ازمة الخبراء في ذروة التصاعد لكانت التفسيرات كثرت ولكان اخراج الخبراء اعتبر صفقة وليس خطوة فرضتها ظروف داخلية واعتبارات وتطلعات معينة. اما التفسير الثاني فان الغاية من اذاعة نصي البرقيتين بعد ١٨ يوما قد تكون اغاظة الاصدقاء السوفيات ، خصوصا ان الرسالة التي تلقاها السادات من بريجنيف لم تأت بجديد على حد قول الدكتور الزيات وزير الدولة للاعلام ووزير الخارجية بالنيابة (انذاك) .

ماذا قال نيكسون في برقيته ؟

لقد جاء فيها : « يسرني لمناسبة الذكرى العشرين للثورة المصرية ان ابعث باسم الولايات المتحدة بالتهاني واطيب الاماني لكم وللشعب المصري، واني ارجو ان تنعم مصر بالرفاهية والسعادة في ظل قيادتكم» .

وبماذا رد السادات ؟

لقد جاء في برقيته : « باسم جمهورية مصر العربية وباسمي أعرب لسيادتكم عن أخلص الشكر على رسالتكم المتضمنة جميل مشاعركم وتهنئتكم للشعب المصري ولي لمناسبة الذكرى العشرين لثورة ٢٣ يوليو . واني لابعث باطيب اماني الصحة والسعادة لشخصكم والرفاهية والتقدم لشعب الولايات المتحدة » .

كلام في منتهى الرقة لكن اين الجديد فيه ؟ لا جديد ، انما هو كلام له دلالاته لانه جاء في وقت تجتاز العلاقات المصرية — السوفياتية ازمة خطيرة وفي وقت لا تزال العلاقات الديبلوماسية مقطوعة بين مصر والولايات المتحدة يرافق ذلك اتهام وراء اتهام من السادات لاميركا بانها هي واسرائيل سيّان .

وانتظرت موسكو يومين ثم وزعت « نوفوستي » مقالا ، لا مناسبة له ، يشيد بجمال عبد الناصر ولا ياتي على ذكر السادات . وجاء في المقال : « لقد أعطى الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، الابن البار للشعب المصري وقائد حركة التحرر الوطني العربية ، أعطى بنشاطه المبدع في سبيل التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي جوابا عن عدد من مسائل النضال المعادي للامبريالية والتطور الاجتماعي . وعلى اساس دراسة التراث الثوري للشعوب الاخرى وتجربتها ، ولا سيما الاتحاد السوفياتي ، توصل قائد الثورة المصرية الى الاستنتاج في الممارسة العملية لنضال التحرر الوطني لشعبه ضد الامبريالية ، انه من الضروري الجمع بين ثورة التحرر الوطني والثورة الاجتماعية . ان اغناء ثورة يوليو ١٩٥٢ في مصر بالمحتوى الاجتماعي اتاح لها رفع البلاد الى مرحلة جديدة من التقدم الاجتماعي . واتخذت الثورة في قيادة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر اتجاها اشتراكيا . . . » .

ان الاعلام المصري لم يعط اي أهمية لبرقية نيكسون ورد السادات عليها . فقد نشرت الصحف المصرية نصي البرقيتين في شكل عادي ومتواضع في الصفحات الداخلية . والمألوف بالنسبة الى الاعلام المصري انه عندما يريد اعطاء معنى لنبأ او قضية ما يطلب من الصحف ابراز النبأ او القضية في شكل معين . وعلى هذا الاساس فقد تكون الحساسية السوفياتية المفرطة هي التي جعلت القيادة السوفياتية تفسر البرقيتين وبالذات توقيت اذاعتهما بطريقة استثنائية . يضاف الى ذلك انه ربما كانت لدى السوفيات قناعات او معلومات في شان الموقف المصري حملتهم على ان يواصلوا حربهم النفسية ضد نظام السادات عبر كلام في « البرافدا » او سلسلة مقالات في « نوفوستي » .

وهذه المقالات وامثالها تكون عادة معدة سلفا ولذا يحتمل ان يكون المقال الذي وزعته « نوفوستي » يوم الجمعة ١١ آب (اغسطس) ١٩٧٢ جاء ردا على الكلام الذي قاله محمد حسنين هيكل في «الاهرام»

صبيحة اليوم نفسه ومفاده ان الاتحاد السوفياتي عندما دعي الــى المنطقة اخطأ عندما تصور في تلك الفترة ان هنالك فراغا عقائديا لمواجهة « فراغ الامن » الذي تصورته الولايات المتحدة .

وقال هيكل ان التصور الاميركي اصطدم « بقوة الوطنية والقومية العربية » .

واشار هيكل الى ان عدد الخبراء والمستشارين العســكريين وصل الى ١٢ الفا فقط . وروى حادثة هي بمثابة رد على التشكيك السوفياتي في قدرة المقاتل المصري واستعداده للحرب . وهذا التشكيك كان وراء مماطلة الاتحاد السوفياتي في تنفيذ طلبات مصر من السلاح . كذلك فان هذا التشكيك كان وراء معارضة الاتحاد السوفياتي — عبر ممارسات معينة — لفكرة الحل بالمعركة .

والحادثة كما رواها هيكل هي انه في حزيران (يونيو) ١٩٧٠ كان الطيارون السوفيات قد بدأوا القيام بمهماتهم الدفاعية عن العمق المصري . كانوا قد طلبوا بعد مجيئهم في اواخر شباط (فبراير) ١٩٧٠ مهلة يتأقلمون فيها مع الاجواء المصرية . وفي ١٨ نيسان (ابريل) ١٩٧٠ كانوا على استعداد للعمل وكانت هناك في العمق مناطق مخصصة لهم .

ويضيف هيكل :

« وذات يوم في اواخر شهر (يونيو) حدث شيء غريب : اختراق اسرائيلي بالفانتوم . وصعد الطيارون السوفيات الى الجو في قيادة سوفياتية وبتوجيه سوفياتي . وحدث اشتباك . واذا خمس طائرات سوفياتية بطياريها السوفيات تسقط في اقل من دقيقـــة واحــدة . واتذكر كيف عرفت بما حدث يومها . اذكر تماما : دق التلفون في مكتبي . وكان جمال عبد الناصر هو الذي يتكلم . وكان صوته مشحونا بهم ثقيل . وقال لي على الفور : لقد حدث شيء غريب . سقطت خمس طائرات بطياريها السوفيات . انني كنت احيانا أظلم طيارينا واتساءل : هل تأثرت روحهم القتالية . ولكني الان واثق بانهم في موقف بالغ الصعوبة» .

وهذه الحادثة رواها هيكل بعد الاشارة الى انه عندما طلبت مصر بعض انواع السلاح المتطور من الاتحاد السوفياتي « فلقد ظل يتردد وكان احيانا يبدي القول ظاهرا او خفيا بأن الروح القتالية لدى العرب ليست على ما ينبغي ان تكون ، وان الامر ليس أمر سلاح قتال وانما هو امر روح قتال » .

بعد فترة تجاوزت الحرب النفسية مرحلة التذكير الى مرحلة الهجوم القاسي والتجريح . ويبدو ان قيادة الكرملين ارتأت ان تشن صحيفة غير سوفياتية الهجوم . وهكذا كان . فيوم الاربعاء ١٦ آب

(اغسطس) ١٩٧٢ نشرت صحيفة الحزب الشيوعي المجري « نيزا بادساك » مقالا بدأ بانتقاد اتفاق الوحدة بين مصر وليبيا ، مشيرا الى ان اليسار المصري « يشعر بالقلق » ، حيال هذا المشروع بسبب عداء العقيد القذافي للشيوعية وللاتحاد السوفياتي .

وجاء في المقال « ان تاريخ مصر الثورة مرتبط ارتباطا وثيقا بالتعاون مع الاتحاد السوفياتي » ، واتهم القذافي بانه يدعو الى الوحدة مع مصر « ليصبح زعيم العالم العربي الحقيقي » .

وتحدث المقال عن الوضع الذي نشأ بعد اخراج الخبراء السوفيات من مصر وقال « ان استمرار الازمة يناسب الاتجاهات المتطرفة التي لا تطاق ، وان اخراج الخبراء السوفيات انعش اليمين المصري والرجعية العربية ، وان السادات ساهم في اضعاف السياسة الناصرية ، وهو بذلك سدد ضربة الى اليسار الناصري » .

وبعد يومين شنت « البرافدا » صحيفة الحزب الشيوعي السوفياتي حملة على السعودية موحية بان لها دورا في موضوع الخبراء الذين اخرجهم السادات .

ولم تنس « البرافدا » ان تخاطب السادات مداورة بقولها ان السعودية « هي حاملة لواء الامبريالية » وتريد ان تتزعم العرب . وارفقت ذلك بالتذكير بان الصديق الحقيقي للانظمة التقدمية العربية هو الاتحاد السوفياتي .

في المقابل لم تتوقف الحملة النفسية المصرية ضد الاتحاد السوفياتي . والفرق بين الحملتين ان الحملة السوفياتية كانت على مستوى صحافي وفي اضيق الحدود ، في حين ان الحملة المصرية شارك فيها المسؤولون بالاضافة الى بعض الكتّاب والصحافيين .

وبلغت الحملة المصرية الذروة عندما قال هيكل في مقاله الاسبوعي يوم الجمعة ١٨ آب (اغسطس) ١٩٧٢ « ان كثيرين في مصر كانوا يعرفون ان الاتحاد السوفياتي ليست لديه في الوقت الحاضر طائرة في الخدمة العامة توازي طائرة الفانتوم الاميركية » .

واضاف : « ... وكان البعض في مصر يلحون كثيرا في طلب طائرة توازي الفانتوم ، ووصل الالحاح الى حد اصبح فيه مداعبا للاصدقاء في موسكو حتى ان بريجنيف قال ذات مرة وبالحرف الواحد : « أرجوكم ... انني لم أعد اريد ان اسمع شيئا عن هذه الطائرة التي تطلبونها وتلحون في طلبها . ولا تعودوا الى هذا الموضوع . وحين يجيء وقته فاننا نحن سنفتحه معكم » .

وزاد هيكل فقال ان السوفيات يرون انه « ليس هنالك شيء اسمه أمة عربية . ربما كانت هناك أمة عربية في سبيل التكوين ولكن لا يجوز القول بان الامة العربية متكونة » .

لقد ركز هيكل على ان الاتحاد السوفياتي متخلف في مجال السلاح الجوي عن الولايات المتحدة . ومن قبل قال أن الطيارين السوفيات لم يصمدوا امام الطيارين الاسرائيليين . ثم ابرز الرفض السوفياتي لوجود الامة العربية . ثم اكد ان الكرملين تجاوب مع نيكسون في السماح لليهود بالهجرة . ثم عدد المكاسب الخيالية التي حققتها السوفيات من وجودهم العسكري في مصر . يضاف الى ذلك انه كان السباق دائما الى اختراق ما لا يمس ، أي العلاقات المصرية ــ السوفياتية ، وهو الذي قام بعملية اختراق جريئة عندما بدأ يركز على حالة اللاحرب واللاسلم التي يفضلها السوفيات .

وشارك هيكل في الحملة النفسية احسان عبد القدوس الذي يحظى بعطف قديم من السادات . وبالاضافة الى دعوة عبد القدوس الزعماء السوفيات الى الكلام وابداء رأيهم في ما جرى فانه ذهب بعيدا الى حد انه قال في مقال نشرته « اخبار اليوم » السبت ١٩ آب (اغسطس) ١٩٧٢ ما يشير الى ان الخطوة المصرية المقبلة قد تكون الغاء معاهدة الصداقة والتعاون*.

ومما قاله عبد القدوس ان المادة الثامنة من المعاهدة « تفرض بصراحة تامة على الاتحاد السوفياتي امداد مصر بالاسلحة الكافية لازالة آثار العدوان ، أي الكافية لاسترداد سيناء . ولكن الاتحاد السوفياتي كان يكاد يتجاهل هذا البند . وهو حتى لم يكن يضع المشكلة على اساس بحث علمي عسكري ومناقشة نوع الاسلحة المطلوبة ، بحيث اذا كان قادتنا يطلبون نوعا معينا من السلاح يمكن ان يعدلوا عنه الى نوع آخر له نفس قدرته الحربية او اكثر .. انما كان المتناقشون يتجاهلون الموضوع او يهربون منه ، وكان هناك حظرا سريا على توريد الاسلحة التي نطلبها كالحظر الذي فرضته فرنسا ...

«واصبح ما ينشر وما يصلنا مما يقال في بعض الدوائر السوفياتية، هو ان الحرب لا تعتمد على نوع السلاح ، ولكنها تعتمد على التنظيم الشعبي ، ويضربون مثلا بفيتنام ، فرغم انها لا تملك نفس قوة الاسلحة التي تملكها اميركا فهي تحارب .

« وهذا أسوأ ما يمكن ان يقال في حق تقدير المعاهدة المصرية ــ السوفياتية .. فان فيتنام تحارب منذ اربعين عاما حربا مستمرة ، وتحارب الولايات المتحدة منذ عشر سنوات ، وقد كنا نريد ان نستفيد من تجربة فيتنام ، اعتمادا على صداقة وتعاون الاتحاد السوفياتي ، بحيث نحارب على أمل الا تستمر الحرب اكثر من عام او اثنين او ثلاثة او خمسة نحقق خلالها النصر ، فنكون بذلك قد حققنا جديدا في وسائل

---

* راجع مواد المعاهدة في فصل الوثائق .

استعادة الحقوق واقرار السلام ، مع ثقتنا في ان الاتحاد السوفياتي ليس في صالحه ولا في نيته ان يترك حربا تستمر على ارضنا ويستشهد فيها كل ابنائنا لعشرين سنة اخرى او ثلاثين او اربعين ..

« واذا فشلنا .. وفشلت المعاهدة .. فلا شك اننا سنبدأ تجربة فيتنام » .

واختار عبد القدوس مادتين اخريين من المعاهدة ليؤكد ان الاتحاد السوفياتي لا ينفذ المعاهدة. المادة السابعة المتعلقة بالتنسيق والتشاور. وفي هذا الصدد قال انه كان على الاتحاد السوفياتي التشاور مع مصر قبل القمة الاميركية ــ السوفياتية في موسكو وبعدها. وهذا لم يحصل. والمادة التاسعة التي يتعهد فيها كل من الطرفين بعدم الدخول في احلاف او تكتلات او يشترك في اعمال او اجراءات موجهة ضد الطرف المتعاقد الاخر . وحول هذه الناحية قال عبد القدوس : « ... والاتفاق الذي تم بين موسكو وواشنطن قد لا يعتبر تحالفا وقد لا يعتبر تكتلا ولكنه فسر على انه « تعايش سلمي » وفقا للمبادىء التي قررها لينين . ولكننا نحن لا نتعايش تعايشا سلميا مع الولايات المتحدة ، فهل يعتبر ذلك خروجا من الاتحاد السوفياتي على المعاهدة التي تربطه بنا ؟ وقد يقال ان معظم الدول العربية مرتبطة بالولايات المتحدة ارتباط تعايش سلمي ايضا .. ولكن هذه الدول لم توقع معاهدة مع الاتحاد السوفياتي او معنا تنص على التشاور والارتباط في كل ما يمس العلاقات الدولية .

« وفي احد اللقاءات الرسمية التي تمت منذ اسابيع في الاتحاد السوفياتي ، قال بودغورني انه يرحب بالاتحاد بين مصر وليبيا ، ولكنه ــ اي بودغورني ــ يريد ان يسال سؤالا يريد الاجابة عليه .. فالرئيس معمر القذافي يهاجم الاتحاد السوفياتي بمناسبة وبغير مناسبة ــ هكذا قال ــ وانتم اصدقاء لنا فماذا سيكون موقفكم بعد الوحـــدة ، هل ستهاجموننا مثل القذافي ، أو سيكف القذافي عن مهاجمتنا مثلكم ؟..

« وانطلاقا من تساؤل بودغورني،ومع الفرق الكبير في كل ما يمكن ان يربط مصر بليبيا ، وما يربط الاتحاد السوفياتي بالولايات المتحدة ، فاننا نتساءل ايضا : « ان الولايات المتحدة تقف منا موقفا عسكريـا معاديا وهي التي أمدت اسرائيل بالاسلحة والخبراء والخطط والاموال للاستيلاء على ارضنا .. ترى ماذا سيكون موقف الاتحاد السوفياتي بعد اتفاق موسكو ، وبعد أن يرتفع راس المال الاميركي باستغلال ابـــار البترول السوفياتية ، وتسديد ديون الحرب و.. الى اخره ، هــل ستستخدم الولايات المتحدة الاموال السوفياتية والتعـايش السلمي السوفياتي في استمرار فرض الامر الواقع في بلادنا ، ام ان الاتحـاد السوفياتي اشترط حتى يتعايش سلميا مع الولايات المتحدة ان تقف معه في فرض الحل السلمي على اسرائيل ؟

وهذا التساؤل يدخل في نطاق المعاهدة السوفياتية ــ المصرية ».

وفي مقال لاحق نشرته « أخبار اليوم » السبت ٢٦ آب (اغسطس) ١٩٧٢ ، طرح عبد القدوس السؤال الاساسي وهو : هل توقف موسكو شحن قطع الغيار كوسيلة للضغط السياسي على مصر ؟ وقال ان مصر تضع المشكلة في مكانها الحقيقي فقط . فمصر لا تزال تزود الاسطول السوفياتي بالتسهيلات التي يحتاج اليها في كل الموانىء المصرية من دون ان تدقق في اسلحته لمعرفة ان كانت هذه الاسلحة تشمل اي سلاح ذري « وهي لا تعامل قطع الاسطول السوفياتي في نطاق محدد كما تفعل الجزائر ».

وتساءل عبد القدوس كذلك ان كان الاتحاد السوفياتي سينفذ اتفاقاته مع مصر في ما يتعلق بانشاء مصانع بينها مجمع للحديد والصلب. ثم طرح سؤالا آخر هو : لو افترضنا ان اميركا استطاعت فعلا ان تفرض على اسرائيل الانسحاب من كل الاراضي المصرية فهل ترفض مصر ذلك لمجرد انها اميركا ؟

ان الحملة المصرية النفسية كانت اشمل واعمق وتخللتها مواقف متفاوتة في حدتها . ولكنها في مجملها كانت توحي بان الموقف المصري ليس مدروسا في حين ان رد الفعل السوفياتي كان مدروسا اكثر . رد الفعل السوفياتي لم يتميز بالحدة وترك المجال مفتوحا امام عودة طبيعية الى العلاقات باقل قدر من العتاب والنقاش . اما رد الفعل المصري الذي تميز بالحدة الى درجة كشف الاتحاد السوفياتي سياسيا وعسكريا فانه سيسبب للسادات احراجات شديدة اذا ما قرر العودة بالعلاقات الى ما كانت عليه قبل ازمة الخبراء او الى ما كانت عليه ايام عبد الناصر اذا امكن ، الا اذا كان السادات مقررا سلفا عدم العودة هذه ومختارا الطريق البديلة التي سيسلكها . وهنا تجدر الاشارة الى ان السوفيات ارتأوا عدم ركوب الموجة الحادة بعدما تبين لهم ان الحدة افتقدتهم السودان . ولولا بيان قمة القرم الشهيرة في آب (اغسطس) ١٩٧١ ، لربما كانت الازمة السودانية ــ السوفياتية طـوقت انذاك بحيث لا تتدهور العلاقات بتلك السرعة .

ولو أن رد الفعل المصري اقتصر على الكتاب والصحافيين ربمـا كانت الحدة اقل ، لكن عددا من المسؤولين المصريين شاركوا في الحملة النفسية المضادة ، بينهم مثلا المهندس سيد مرعي الامين الاول للجنـة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي الذي قـال في اجتماع عمـالي في ضواحي الاسكندرية « ان الاتحاد السوفياتي كان يتصرف وفق مصالحه ونحن سنعمل ما يتفق مع مصالحنا » ، ثم قال في لقاء لاحـق بقيادات

التنظيم السياسي بالاسكندرية « ان الاتحاد السوفياتي لم يزود مصر بأسلحة حديثة تمكنها من تحرير ارضها المحتلة وانه سياتي قريبا دور المصالح الاميركية » .

في هذا الوقت كانت اصوات اليساريين المصريين خافتة : كانت الكلمة للاخرين الذين لهم مواقف تقليدية ضد السياسة السوفياتية . أما كتاب اليسار فكانوا لا يعرفون كيف يتصرفون . وفي ذروة تصاعد الحملة النفسية المصرية المضادة سجل عبد الرحمن الشرقاوي الذي يمثل يسار نظام السادات موقفا . المعروف عن الشرقاوي انه كان من الماركسيين المصريين ، وقد دفع ثمن ذلك غاليا ولم يعد الاعتبار اليه الا بعد حركة ١٥ مايو (ايار) ١٩٧١ عندما ضرب السادات علي صبري وبقية مراكز القوى . وكان الشرقاوي اول كاتب مصري يكتب مقالا — نشرته له صحيفة « الاخبار » انذاك — يهاجم فيه بعنف لا مثيل له مجموعة مراكز القوى ويؤيد خطوات السادات ، ومثل هذا الهجوم في ذلك الوقت كان شبه انتحاري لان المضاعفات كان يمكن ان تأتي خطيرة . وهذا الموقف من الشرقاوي جعل السادات يعيد اليه الاعتبار وفي شكل لائق وبارز اذ عينه رئيسا لمجلس ادارة «روز اليوسف» .

لقد سجل الشرقاوي موقفا لكن لا يمكن اعتبار ان هذا الموقف يمثل اليسار المصري وانما يمثل يسار نظام السادات ، ومن اجل ذلك نلاحظ ان كلام الشرقاوي صيغ بأسلوب يرضي النظام اكثر مما يرضي مشاعر اليساريين المصريين الذين رأت أكثريتهم في قرارات السادات خطوة معادية للسوفيات .

ومما جاء في مقال الشرقاوي الذي نشره في « روز اليوسف » يوم الاثنين ٢١ اب (أغسطس) ١٩٧٢ : « ان الوقفة بين الصديق والصديق لن تكون بابا تدخل منه المناورات او يتسلل منه الاعداء ، ولكنها فرصة للانتصار على الاعداء والاخطاء على السواء ، انها ليست نهاية صداقة ولكنها بداية مرحلة جديدة ينبغي ان تكون أسخى عطاء واعمق اصولا واهدى سبيلا . ان الصداقة المصرية — السوفياتية واجهت بعض نقاط الخلاف وهو خلاف يجب الا يزيد حجمه ، لان هناك دائما فرقا واضحا بين الخطأ الذي يرتكبه الصديق والخطأ الذي يرتكبه العدو . ان الخلاف الفكري والعقائدي بين البلدين وكذلك الاختلاف في انظمة الحكم لم يكن مثار خلافات ، وما ينبغي له ان يكون ، لاننا نحن نظام لا شيوعي ولكننا لا نتبنى سياسة العداء للشيوعية ، بل اننا ننبذها وقد أكدنا اكثر من مرة انها سياسة لا تخدم الامال القومية لشعوبنا .

« ان السياسة السوفياتية تقوم على حماية السلام العالمي وتوفير جو صالح للتعايش السلمي بين الانظمة المختلفة ، وتفادي المواجهة العسكرية مع اميركا ، وتوفير ظروف افضل للانتقال بالنظام السوفياتي

من مرحلة الاشتراكية المتقدمة الى مرحلة الشيوعية . اما السياسة المصرية في هذه المرحلة فتقوم على تحرير الارض العربية من الاحتلال الاسرائيلي ، وعلى تحقيق اهداف الثورة الفلسطينية ، وعلى توفير ظروف افضل للتحول نحو الاشتراكية والتطور الاقتصادي والحضاري .

« ان السياسة المصرية حريصة على حماية السلام العالمي ، وهي تتبنى اسلوب التعايش السلمي ولا تريد حربا عالمية بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة لانها تعرف أن في هذا نهاية العالم . ومع ذلك فان السياسة المصرية لا تجد امامها طريقا لتحقيق اهدافها الا بان تخوض حرب تحرير كاملة ضد قوى الصهيونية .تقدر كل التقدير ان المصالح الصهيونية والامبريالية واحدة ، وانها حين تخوض معركة مصير لتحرير الارض والانسان وتشييد البناء انما تصطدم اول ما تصطدم واكثر ما تصطدم بمخططات الامبريالية العالمية ومصالحها ، وفي طليعتها اميركا .

انها معادلة صعبة حقا واننا مطالبون بحلها حماية للمصير . ومن هذا التناقض بين ما هو مصيري وعاجل بالقياس الينا وبين الخط السياسي للاتحاد السوفياتي ، ينشأ الوضع الذي يقتضي هذه الوقفة بين الصديق والصديق للتوفيق بين الحاجة والضرورة ولازالة التناقض الذي تخلقه ظروف كل من الطرفين . وهو في النهاية تناقض فرعي لا ينبع من اختلاف المصالح او اختلاف الاهداف لأن المصلحة النهائية للجانبين لا يمكن ان تتحقق الا بالقضاء على الصهيونية والامبريالية والاستعمار . وهدف الصديقين هو تحرير الانسان وتحقيق التطور والرفاهية وحماية السلام العالمي » .

... ولم تضع الحرب النفسية اوزارها .

استمرت رحى هذه الحرب في الدوران ولوحظ ان الكلام الذي قاله احسان عبد القدوس ضايق السوفيات بعض الشيء . وقد عكست هذا الضيق صحيفة « الازفستيا » التي هاجمت عبد القدوس في عددها الصادر يوم الاثنين ٢٨ آب (اغسطس) ١٩٧٢ .

قال المعلق ميخائيل ميخايلوف ان مقالات احسان عبد القدوس تحتوي آراء « غريبة عن طابع العلاقات المتبادلة بين الاتحاد السوفياتي ومصر » . واضاف : « غير مفهوم مطلقا كيف يستطيع احسان عبد القدوس ان يضع تلك العلاقات في مصف واحد من حيث الجوهر مع العلاقات بين الولايات المتحدة واسرائيل . وفي مقال آخر يحاول عبد القدوس ان يضع تحت مستوى الشك وفاء الاتحاد السوفياتي لمعاهدة الصداقة والتعاون مع مصر . ومثل هذا الراي الباطل يمكن ان يفرح

الامبرياليين والحكام الاسرائيليين لكنه لا يمكن ان يجلب سوى الضرر على الشعب المصري ونضاله العادل من اجل ازالة اثار العدوان الاسرائيلي».

واتهمت « الازفستيا » عبد القدوس بـ « الافتراء على الاتحاد السوفياتي » وشددت على ان « التحولات التقدمية في مصر ونمو قدرتها السياسية والاقتصادية والدفاعية ، كما اعلن ذلك اكثر من مرة قادة مصر ، مرتبطة في صورة لا تنفصم بمساعدة الاتحاد السوفياتي ودعمه . ان الاتحاد السوفياتي وقف ويقف دائما الى جانب شعب مصر والشعوب العربية الاخرى لان قضيتها عادلة. واساس السلام في الشرق الاوسط لا يمكن ان يكون سوى التحرير التام للاراضي العربية من المحتلين الاسرائيليين » .

واختتمت « الازفستيا » تعليقها بالاعراب عن ثقتها بأن « الاتجاه السائد في مصر هو اتجاه الاستمرار في تطوير العلاقات الودية السوفياتية ـ المصرية التي لا تضر بها الاهتزازات الموقتة ، لانها نابعة من المصالح الجذرية لشعبينا » .

ولم يسكت عبد القدوس على هذا الهجوم فكتب مقالا عنيفا مضادا نشره يوم السبت ٢ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٢ قال فيه « ان الصداقة المصرية ـ السوفياتية لم تتعرض ولا تتعرض اليوم لاي اجراء اتخذته الامبريالية او الصهيونية (هكذا جاء في الازفستيا) . ان الصداقة اليوم معرضة لمشكلة واحدة هي مشكلة استكمال القوي العربية اعتمادا على الاتحاد السوفياتي . ويوم تحل هذه المشكلة بوضع الخط الصريح الثابت لاتفاقات التسليح فان الصداقة مستمرة بين الدولتين وبين الشعبين في جميع المجالات بعيدا عن الامبريالية والصهيونية . فلا يمكن ان تكون الامبريالية والصهيونية هما اللتين اوقفتا توريد الاسلحة » .

واقدم عبد القدوس على خطوة غير مالوفة عندما نشر مع مقاله نص المقال الذي نشرته «الازفستيا». وروى لي انه بعدما نقلت وكالات الانباء فقرات من مقال « الازفستيا » اتصل بمراسل « اخبار اليوم » في موسكو طالبا منه ارسال النص الكامل للمقال . ووصل النص ونشر مع رد عبد القدوس في صفحة واحدة . وفي الصفحة أيضا رسم كاريكاتوري يمثل مصريا وروسيا ينفخان في صحيفة لفت بشكل بوق وتحتها التعليق الاتي : انا من رأيي بدل ما نتكلم على الورق نقعد مع بعض ونتكلم . . .

ان مؤسسة « اخبار اليوم » هي التي تولت الحملة المضادة . ولقد اكد لي عبد القدوس عندما سألته هل انه يكتب ذلك بطلب من السادات انه لم ير الرئيس في مقابلة خاصة منذ تسلم الحكم سوى مرتين . وفي المرات الاخرى كان يلقاه مع جميع الصحافيين عندما يعقد السادات لقاءات مع رجال الصحافة والاعلام .

وقلت له : لكن ما الذي يمنع الكتاب الاخرين من معالجة الامر ؟

اجاب : ان المسألة مسألة مبادرة شخصية . وانا بادرت وعالجت الموضوع وغيري لم يبادر .

وبالاضافة الى احسان عبد القدوس فان موسى صبري احد رؤساء تحرير صحيفة « الاخبار » اقتحم ساحة الحملة المضادة وكتب.

وكما ان احسان عبد القدوس عندما بدأ يكتب عن العلاقات المصرية ـ السوفياتية في اعقاب انهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات ، وسع حجم مقاله من ثلاثة اعمدة في صفحة النصف من « اخبار اليوم » الى ثمانية اعمدة ، فان موسى صبري ايضا اعتمد التطويل . والهدف من ذلك هو اضفاء اهمية معينة على الموضوع.

وفي مقاله الطويل الذي نشره موسى صبري في « الاخبار » الصادرة يوم الاحد ٣ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٢ اوحى بأن السادات ربما اعلن اسرارا جديدة « عن حقائق مهمة اختفت وراء مؤامرة مايو » ، مشيرا في الوقت نفسه الى ان السادات عارف بدقائق العلاقات المصرية ـ السوفياتية واسرارها وانه كان قبل أن يصبح رئيسا للجمهورية يعقد اجتماعا اسبوعيا (كل يوم اثنين) مع السفير السوفياتي السابق (المتوفي) سيرغي فينوغرادوف لمناقشة كل ما يرتبط بالعلاقات بين البلدين « التي تعرضت لكثير من الخلاف في الراي بين الرئيس عبد الناصر والزعماء السوفيات » .

وما سجله موسى صبري في مقاله كان السادات قاله في اجتماعه الى رجال الصحافة والاعلام الذي عقد يوم الثلثاء ٢٨ آب (اغسطس) ١٩٧٢ . وفي هذا الاجتماع قال السادات ان مصر تواجه حملة اعلامية من الاتحاد السوفياتي وان السفارات السوفياتية في الخارج تتولى هذه الحملة وتغذيها .

وساله احد الحاضرين : وماذا نفعل في مثل هذه الحال . . .

وفي سرعة اجاب السادات : نرد عليهم من غير ان يكون هنالك تصعيد من جانبنا . اذا هاجموا نهاجم . اذا تطرقوا الى امور اساسية نتطرق الى امور اساسية . اذا اعتدلوا نعتدل .

٣ – التعايش المفقود ... والمنطق السوفياتي

اذا كان يوم ٢٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ هو اطول يوم في تاريخ مصر ، فان هذا اليوم كان اعقد يوم في تاريخ القيادة السوفياتية ... القيادة المتمثلة ببريجنيف وكوسيغين وبودغورني .

ففي ذلك اليوم توفي جمال عبد الناصر . ومـــن الطبيعـــي ان السوفيات يجب الا يكونوا فوجئوا لان اطباءهم كانوا دائما محيطين به منذ بدأت طلائع مرض السكري تظهر على الرئيس في الستينات . وفوق ذلك انه عولج في المصحات السوفياتية وعلى ايدي اشهر الاطبـــاء السوفيـــات .

وكان الملف الصحي لعبد الناصر من الملفات التي يرجع اليها زعماء الكرملين بين حين واخر . وفي ضوء الجديد في هذا الملف يقررون مواقف ومساعدات لمصر .

ان السوفيات لم يفاجأوا بان عبد الناصر توفي لكنهم فوجئوا بأن الوفاة جاءت مبكرة وليس وفق التقديرات الموجودة في الملـــف الصحي .

وكانت وفاة عبد الناصر بمثابة الصدمة الكهربائية ، هزت الكرملين ونقلته من وضع الى اخر . كل الحسابات تغيرت . كـــل التقديرات تغيرت . وهذا سببه ان العلاقة المصرية ـــ السوفياتية لم تكن قائمـــة بين شعبين وانما بين نظامين . بين النظام السوفياتي الذي كان يقوده خروشوف ثم بريجنيف وبين النظام المصري الذي كان يقوده جمال عبد الناصر . اما على المستويات الجماهيرية فلم تكن هنالك اي نقاط التقاء. كانت للاتحاد السوفياتي قاعدة جماهيرية متواضعة في مصر متمثلـــة باليساريين والشيوعيين . في المقابل لم يكن لمصر في الاتحاد السوفياتي مثل هذه القاعدة .

وفي استمرار كانت هنالك حالة انفصال بين الشعبين . وما كـــان يجري بين النظامين لم يكن يعرف به الشعبان . ومرت بضع سنوات قبل أن يبدأ الاتحاد السوفياتي السماح لرعاياه بالسفر الى القاهرة .

وفي المقابل كان النظام المصري لا يسمح لرعاياه بالسفر الى الاتحاد السوفياتي . السوفيات الذين كانوا ياتون الى مصر هم اما خبراء او مستشارون عسكريون او فنيون بعد هزيمة ١٩٦٧ وخبراء او مستشارون اقتصاديون وصناعيون قبل الهزيمة . وهؤلاء بداوا يفدون الى مصر منذ وضع حجر الاساس لبناء السد العالي الى حين بدا العمل في السد العالي الاخر (مجمع الحديد والصلب) . والمصريون الذين كانوا يسافرون الى الاتحاد السوفياتي هم اما من الضباط والطيارين او افراد البعثات الدراسية . ومن حين الى اخر كان بعض المصريين يسافرون للعلاج بعد أن توافق حكومتهم على ذلك او انهم كانوا يسافرون على نفقة الدولة .

والمصريون الذين يقضون فترة في الاتحاد السوفياتي للدراسة والتدريب كانوا في استمرار معرضين لعمليات غسل دماغ عقائدية .

والسوفيات الذين ياتون الى مصر للعمل خبراء او مستشارين في مختلف القطاعات المدنية والعسكرية كانوا في استمرار مراقبين من اجهزة الامن المصرية .

والذي حدث ان عمليات غسل الدماغ العقائدية التي كانت تجري للمصريين في الاتحاد السوفياتي افادت في « صنع » عقول مصرية تتفهم الاتحاد السوفياتي وتتعاطف مع الماركسية . امـا عمليات المراقبة للسوفيات الذين كانوا يأتون الى مصر فانها لم تفد في شيء لان هؤلاء عرفوا كيف يعزلون انفسهم عن المصريين ويكونون من بعضهم قطاعات مميزة تسكن في مناطق محددة .

وكثير من السوفيات غادروا مصر حاملين معهم ذكريات طيبة عن المناخ المثالي وطيبة اهل مصر التي لا مثيل لها وعن الحياة المتميزة بالحرية ، لكنهم لن يكونوا ابدا « طابورا خامسا » لمصر في بلادهم ، في حين ان عددا من المصريين الذين عادوا الى بلادهم بعد اشهر او سنوات امضوها في الاتحاد السوفياتي كانوا دائما في وضع المستعد لان يشكل هذا « الطابور الخامس » .

وكانت الشكوك تلاحق في استمرار العسكريين والمدنيين المصريين الذين يتدربون او يدرسون في الاتحاد السوفياتي . كانت الحكومة المصرية دائما توجس خيفة من أن يكون هؤلاء اصبحوا شيوعيين وكانت تراقب تحركاتهم وتختبر افكارهم واراءهم سواء وهم لا يزالون في الاتحاد السوفياتي عن طريق عناصر تزرع بينهم لهذا الغرض ، أو عندما يعودون الى بلادهم . وهنالك كثيرون وبالذات من الضباط والطيارين، دفعوا الثمن غاليا . وبعدما عاد هؤلاء من الاتحاد السوفياتي وتزايدت شبهات المخابرات المصرية حولهم سرحوا من الخدمة او نقلوا الى مناصب مدنية .

وفي الفترات التي يخترق العلاقات المصرية ــ السوفياتية الفتــور او التدهور تتسع دائرة مراقبة العسكريين والمدنيين الذين امضوا فترات طويلة او قصيرة في الاتحاد السوفياتي .

وكثيرا ما حدث ان اعتبرت اللقاءات المتعددة بين بعض الضباط الذين كانوا زملاء دورة تدريب واحدة في الاتحاد السوفياتي امرا غــير مرغوب فيه . وكانت المخابرات العسكرية تخاف أن يكون هؤلاء يشكلون خليــة .

وبرغم ان الخبراء والمستشارين السوفيات سواء كــانوا مــن المدنيين او العسكريين لم يختلطوا اختلاطا مباشرا بالمصريين وكــانت لهم مجمعات سكنية خاصة بهم (المدينة الروسية قرب مصنع الحديد والصلب في حلوان حيث يعيش حوالي ٢٠٠ سوفياتي مــع زوجاتهم واطفالهم ولهم ناد خاص بهم ، على سبيل المثال) ؛ الا ان حساسيــة المصريين تجاههم كانت واضحة دائما . وكانت التعليمات المعطاة دائما للسوفيات الذين ياتون الى مصر هي : يجب ان تراعوا حساسية المصري تجاه الاجنبي . وقد التزم السوفيات هذه النصيحة ولكن مجرد تواجدهم كان يثير الحساسية احيانا .

وداخل الجيش المصري كانت نسبة الحساسية اكثر تاثيرا وهذا سببه شعور الضابط المصري بان الضابط السوفياتي ، وهو اما مدرب او خبير او مستشار ، متفوق عليه وانه جاء ليساعده علــى محــو الهزيمة لانه من دونه لا يستطيع ذلك .

وادراكا من جمال عبد الناصر لتلك الحساسية التي يعرف تاثيرها في نفس المصري ويعرف كم قاسى منها يوم كان ضابطا صغيرا في الجيش قبل الثورة . . . ادراكا منه لذلك ارتأى ان تكون مدينة الخبراء قريبة من منزله . وقد خصصت لهؤلاء مساكن في مصر الجديدة ، الحي الذي يقع فيه منزل الرئيس الراحل ، والقريب في الوقت نفسه من ثكنات الجيش. كذلك وافق على رغبة موسكو في الا يدخل المصريون بعض القواعــد والمنشآت السوفياتية في مصر على أساس انها سر حربي .

وبمجرد أن بدأ الخبراء والمستشارون العسكريون السوفيــات العمل داخل الجيش المصري بدأ القال والقيل وبــدأت حملة التذمــر والتخوف تبرز واضحة المعالم . وفي هذا الشأن رفعت الى عبد الناصر عشرات التقارير التي كان يوليها أهتمامه البالغ .

وفي لقاء موسع مع قيادات الجيش المصري اثار عبد النــاصر موضوع حساسية الضباط تجاه الخبراء والمستشارين السوفيــات . وقد عالج الموضوع في هدوء ومن دون انفعال فامتص تلــك المشــاعر السلبية تجاه السوفيات . ومما قاله للقادة العسكريين انذاك انه يوم قرر بناء السد العالي وبدأ الخبراء والمهندسون والفنيون السوفيــات

يصلون بالعشرات الى أسوان ثم بالمئات ، تصاعدت نغمة التخوف من هذا « الاحتلال الجديد » . ولقد طمأن المتخوفين انذاك وقال لهم ان هؤلاء « المحتلين » لن يبقوا ساعة واحدة في مصر بعد أن يؤدوا مهمتهم . وقد حدث ذلك بالفعل وغادروا مصر لمجرد ان انتهى العمل في السد ولم يبق الا الذي تتطلب خبرته البقاء .

واضاف مطمئنا القادة العسكريين : ان الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات سيغادرون مصر لمجرد ان تنتهي مهمتهم ، ولذا فلا داعي ، بل لا موجب للتخوف والحساسيات .

المهم ان العلاقات المصرية ــ السوفياتية منذ بدات الى الان ، او بالاحرى حتى ازمة الخبراء ، كانت دائما بين نظامين .

الشعب السوفياتي يفاجأ بأن مجموعات من الضباط في جيشه توجهت الى مصر للعمل مع جيشها . واذا حاول ان يسأل عن السبب والظروف فان الجواب الذي سيعطى له هو : لقد قرر الحزب والدولة ذلك .

والشعب المصري يفاجأ بأن خبراء ومستشارين سوفياتا جاءوا للعمل في الجيش . ويفاجأ ايضا بأن معاهدة للتعاون والصداقة وقع عليها رئيسه مع احد الثلاثة الكبار في النظام السوفياتي . ويفاجأ ايضا وايضا بأن رئيسه الذي كان حتى قبل أشهر قليلة يمتدح السوفيات من دون حدود ويشيد بصداقتهم المثالية وتعاملهم الشريف ، اعلن فجاة انهاء مهمة الخبراء والمستشارين ... وبدأ يكشف النقاب عن أن العلاقات لم تكن مثالية يوما من الايام وان الاتحاد السوفياتي ، بعدم اعطاء مصر السلاح الذي تريده ، انما يخدم مصلحة اسرائيل .

واذا حاول هذا المواطن ان يسأل : هل نوقش أمر استقدام الخبراء والمستشارين قبل طلب حضورهم الى مصر، يكون الجواب : لا . ذلك قرار سيادة لا يناقش .

واذا حاول ان يسأل : وهل نوقش امر انهاء مهمة هؤلاء من دون ان تكون انتهت ما دامت المعركة لم تبدأ وحالة الاحتلال مستمرة ، يكون الجواب : لا . ذلك قرار سيادة لا يناقش .

ولقد ربط السوفيات كل امورهم ــ وكانوا في ذلك مطمئنين ــ بجمال عبد الناصر . وعندما توفي عبد الناصر اهتزت كل المقاييس .

والسوفيات يتحملون القسط الوفير في كل المضاعفات التي نتجت من قرارات السادات المتعلقة بانهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين ، لانهم منذ البداية لم يكونوا ميالين الى أن يكون هو خليفة عبد الناصر ، ولقد تبرموا معه على هذا الاساس .

وبعد وفاة عبد الناصر حزنت القيادة السوفياتية كثيرا لكن جوا من الخوف سيطر عليها . خوف على المستقبل . وفي هذا الصدد قال

محمد حسنين هيكل انه عندما جاء كوسيغين الى القاهرة للاشتراك في تشييع جنازة عبد الناصر واستكشاف هوية الخليفة كان يقول لكل من يلقاه : وماذا ستفعلون الان ؟

ولا بد ان كوسيغين تساءل على الاقل بينه وبين نفسه : هل ستسير العلاقات طبيعية اذا تم اختيار انور السادات رئيسا للجمهورية خلفا لعبد الناصر .

وبعد مواراة عبد الناصر في الثرى ناقش رجال الرئيس الراحل مع كوسيغين امر الخلافة وكان موقف رئيس الوزراء السوفياتي ان ما يهم الاتحاد السوفياتي هو ان يستمر خط عبد الناصر وتستمر الاسس التي وضعها للتعامل مع الاتحاد السوفياتي . والمهم كذلك هو الا ياتي الى الحكم شخص يميني يقضي على المنجزات الاشتراكية .

والذين سمعوا هذا الكلام قالوا ان كوسيغين يقصد زكريا محيي الدين او عبد اللطيف البغدادي ، وبالذات زكريا محيي الدين ، الذي ردد المصريون اسمه كثيرا بعدما نشرت « الاهرام » نعيه لعبد الناصر في شكل بارز وبعدما ركز التلفزيون المصري عليه كثيرا وهو يسير في الجنازة . اما السادات فشعر بأن كوسيغين يقصده هو شخصيا خصوصا وكان بلغه كلام بأن موسكو تستبعد ان ياتي شخص ليرئس دولة اشتراكية كان في الماضي امينا للمؤتمر الاسلامي ، وهو غير مقتنع بأهمية العلاقات المصرية ـ السوفياتية يرافقه اقتناع بالانفتاح على المعسكر الغربي.

وتاكدت وجهة النظر هذه للسادات بعدما لاحظ ان كوسيغين ، عقد بعد تشييع جنازة عبدالناصر اجتماعا مع سامي شرف وعلي صبري وشعراوى جمعه قبل ان يجتمع اليه ، اي الى السادات ، وهو امر له معناه وبعده الاساسي . وظهر واضحا تخوف الاتحاد السوفياتي من المستقبل بعد رحيل عبد الناصر عندما عقدت مساء الجمعة ٢ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٠ جولة من المحادثات بين وفد التعزية السوفياتي في رئاسة كوسيغين ووفد مصري في رئاسة السادات . فقد تبين ان الوفد السوفياتي هو « وفد عمل » اكثر منه « وفد تعزية » . ولو القينا نظرة على اعضاء الوفد الذي راسه كوسيغين لتاكد لنا ذلك .

كان الوفد مؤلفا من : الماريشال زخاروف رئيس اركان القوات البرية وفلاديمير فينوغرادوف النائب الاول لوزير الخارجية (انذاك) والسفير في ما بعد في مصر وفلاديمير بولياكوف السفير السوفياتي بالنيابة في القاهرة والجنرال لاتشنكوف نائب القائد العام للقوات البرية والجنرال اوكينيف من قادة الجيش والجنرال كاتيشكين كبير الخبراء السوفيات في مصر ومعاونه باكزاكوف .

أما الذين حضروا المحادثات مع السادات فكانوا : حسين الشافعي وعلي صبري ومحمود فوزي وكمال رمزي استينو وعبد المحسن ابو

النور ولبيب شقير وضياء الدين داود (اعضاء اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي انذاك) والوزراء (انذاك) : محمود رياض وشعراوي جمعة والفريق أول محمد فوزي وامين هويدي ومحمد غانق وحسن التهامي وسعد زايد وسامي شرف ومحمد حسنين هيكل .

طابع الوفد السوفياتي عسكري . وطابع الوفد المصري مدني . وهذا معناه ان السوفيات ارادوا من البداية ان يطمئنوا الى مستقبل وجودهم العسكري في مصر بعد وفاة جمال عبد الناصر .

وتركت هذه الجولة من المحادثات انطباعا في صفوف المدنيين والعسكريين المصريين بأن كوسيغين احضر معه هذا العدد من جنرالات الجيش السوفياتي للتوقيع على اتفاقات سرية . واحدث هذا الانطباع ذعرا انتشرت بسببه الاشاعات الكثيرة الامر الذي حمل السادات على ان يقول في لقاء تم في مبنى القيادة العامة للقوات المسلحة مع قادة اسلحة الجيش المصري وكبار الضباط : « ليست بيننا وبين الاتحاد السوفياتي اتفاقات سرية » . *

لقد شعر السادات منذ تسلم منصب رئاسة الجمهورية بأن الموقف السوفياتي ، بل الحذر السوفياتي منه ، ما زال على حاله . ومع ذلك اراد ان يبدد من جانبه هذا الحذر .

ولاحظ بعد عودة كوسيغين ان الاتحاد السوفياتي عين سفيرا فوق العادة له في مصر . وهذا السفير كان فلاديمير فينوغرادوف النائب الاول لوزير الخارجية الذي جاء مع كوسيغين عضوا في وفد التعزية والاستكشاف . وتم تعيين فينوغرادوف بعد عودة كوسيغين بخمسة ايام خلفا لسيرغي فينوغرادوف الذي كان توفي قبل رحيل عبد الناصر واستمر المنصب شاغرا الى حين تعيين فينوغُرادوف الاخر .

وبعد عشرة ايام من تعيينه جاء فلاديمير فينوغرادوف الى القاهرة وقدم اوراق اعتماده الى السادات يوم الخميس ٢٢ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٠ . وتمت مراسم التقديم من غير احتفال رسمي بسبب الحداد . وبعد تقديم اوراق الاعتماد بايام قال فينوغرادوف امام احد الماركسيين المصريين انه استغرب ان السادات استعمل كلمة « شعبي » وهو يرد عليه (اي على فينوغرادوف) بدل ان يقول « الشعب المصري » او « شعب الجمهورية العربية المتحدة » .

وكان رد السادات على فينوغرادوف وهو يتسلم اوراق اعتماده مقتضبا ومعبرا برغم الاحاسيس غير الودية المتبادلة بين السادات والقيادة السوفياتية ، وفي رده قال السادات : « اؤكد لك بأسم شعبي اننا لن ننسى وقفة الاتحاد السوفياتي النبيلة الى جانبنا وجهوده معنا في

اوقاتنا العصبية وضغوط الاعداء توجه ضدنا » .

ولقد احب فينوغرادوف مصر من الاسبوع الاول لوصوله الى القاهرة . وكان في غاية الضيق لانه لا يعرف اللغة العربية ، ولانه تسلم منصبه في ظروف لا تسمح له بتخصيص بضع ساعات في الاسبوع لتعلم اللغة العربية . وفي احدى المرات اسر امام الماركسي المصري اياه الذي استغرب امامه ان يستعمل السادات كلمة « شعبي » بدلا من « الشعب المصري » او « شعب الجمهورية العربية المتحدة » انه يتمنى لو كان في استطاعته ان يتحدث مع شعب مصر وليس مع حكامها فقط ، ولو كان يعرف اللغة العربية لكان فعل ذلك يوميا او كلما سنحت الفرصة .

ولفتت السادات وبقية المسؤولين ظاهرة غريبة هي ان فينوغرادوف يتردد في استمرار على الاحياء الشعبية في القاهرة كحي الغورية وحي السيدة زينب وحي الحسين ومناطق مصر القديمة. وعندما اجرت السلطة عملية استقصاء للوقوف على سر هذه الظاهرة تبين ان فينوغرادوف يهوى مناظر البيوت القديمة وهي كثيرة في تلك المناطق . وفوق ذلك ، والكلام للماركسي المصري اياه : انه يريد ان يعرف الوجه المظلم من مصر وليس الجانب المضيء فقط .

ولم يغلق فينوغرادوف الباب على نفسه ويلتزم الصمت والحذر وانما شرع ابواب مكتبه ومنزله لكي تدخلها الوجوه المصرية اليسارية. وفي اقل من سنة تمكن من تمتين صداقته مع اليساريين وهو امر كان يضايق السلطة بعض الشيء . لكن هذه السلطة تضايقت كثيرا بعدما اطلعت على مقابلة اجرتها مع فينوغرادوف مجلة « روز اليوسف » ونشرتها يوم ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧١ . وفي هذه المقابلة انتقد فينوغرادوف الصحافة المصرية كما لو انه المشرف على الصحافة المصرية او وزير الاعلام المصري . ومما قاله : « هناك بعض الصحافيين المصريين الذين يسرعون في نشر بعض المقالات ولا يفكرون في صيغتها بطريقة تدعو الى التساؤل لمصلحة من كتبت . كذلك تستخدم صحف مصر احيانا بعض الوثائق التي لا داعي الى استخدامها » .

ولم يفت فينوغرادوف التطرق في المقابلة الى امور اخرى . ومما قاله في هذا الشأن : « ان الاتحاد السوفياتي بلد قوي . وعلى قوة الاتحاد السوفياتي يمكن ان تستند مصر ولهذا فان اعداءنا واعداءكم يحاولون افساد هذه العلاقة (...) ان الطريق الى ازالة اثار العدوان هو ان تكونوا اقوياء . الطريق الوحيد هو تقوية مصر والدول العربية. الطريق ايضا هو وحدة القوى السياسية والقوات المسلحة . الطريق ايضا هو كسب اكبر عدد من الدول وايجاد وحدة عربية . وفي هذا السبيل فاننا نرحب بكل انواع الوحدة التي تؤدي حقيقة الى الوحدة .

وفي هذا السبيل فان اشكال الوحدة لا تلعب الدور الاساسي ولكن مضمون الوحدة هو الذي له الدور المهم والاساسي » .

بدا كلام فينوغرادوف هذا وكأنه نوع من النصائح يسديها الى المصريين .

ويومها طرح هذا التساؤل : هل في استطاعة سفير مصر في موسكو ان يطلب من صحيفة او مجلة سوفياتية اجراء مقابلة معه يقول فيها كلاما بالصيغة التي نشر فيها كلام فينوغرادوف في « روز اليوسف »؟ وهل في قدرة سفير مصر أصلا ان يطلب من صحيفة او مجلة سوفياتية اجراء مقابلة معه ؟ ثم هل مسموح نشر كلام له طابع النصيحة او النقد لو حدثت معجزة وأجرت تلك الصحيفة او المجلة المقابلة المفترضة ؟

ان منصب فلاديمير فينوغرادوف الرسمي والحزبي من قبل ان يعين سفيرا لبلاده في القاهرة ، يجعله مسموع الكلمة بأقل قدر من النقاش ، من حزبه وحكومته . ومعنى ذلك ان التعايش المثالي بين السادات والسفير يجب ان يكون مثاليا ، ما دام اي تقرير يرفعه السفير الى موسكو سيعمل بموجبه .

ولقد حاول السادات كثيرا ان يوجد المناخ الملائم لذلك التعايش لكنه كان احيانا يصطدم بعقبات سببها ان فينوغرادوف سفير فوق العادة . وفي مثل هذه الحالات فان في استطاعة هذا السفير ان يخاطب رئيس الجمهورية بطريقة تختلف عن تلك التي يخاطب بها السفراء رؤساء الجمهورية .

وكثيرا ما ابدى فينوغرادوف أمام السادات امتعاضه من امور تحدث في مصر . وكان السادات يتجاوب مع امتعاض السفير لكنه ضمنا كان يتألم .

... الى ان كانت ليلة الثلثاء ١٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧١ . يومها كانت مصر في غاية الضيق ، لانه كان متبقيا على انتهاء سنة الحسم اسبوعان وليس في الافق ما يشير الى ان الحسم سيتم .

في تلك الليلة كان فينوغرادوف يستقبل في منزله عددا من الصحافيين والكتاب المصريين وهو تقليد يتبعه من حين الى آخر . وفي اللقاء تتم مناقشات وتعرض وجهات نظر تتميز عادة بالصراحة . ولقد تم اللقاء بعد قليل من صدور قرار الجمعية العمومية الذي كان نصرا آخر حققته الديبلوماسية المصرية ، وفي وقت كانت نار الحرب الهندية ــ الباكستانية تزداد اشتعالا .

وبدأ الحديث عن القرار .

قال فينوغرادوف ان ما حدث في الجمعية العمومية كان كسبا

وبالتالي فان اي تحرك مصري من اجل التحرير اصبح مشروعا .
واستطرد : لكن المهم أن يكون هنالك استعداد ...
ثم قال في صراحة انه يلاحظ مظاهر عدم الاستعداد في الجبهة الداخلية .
قال له احد الحاضرين : المهم هو توافر الحد الادنى من أمرين : ارادة القتال ، وقدرة الجماهير على التحمل . بالنسبة الى الاولى ان ارادة القتال تتجسد في أن الجندي اصبح يملك القدرة على استخدام سلاحه وهو مؤمن بتضحيته . وبالنسبة الى الجبهة المدنية اصبح المواطن مستعدا لتحمل الخسائر التي يمكن ان تنتج . هذا الحد الادنى تم ، وليس مطلوبا اكثر من ذلك . المطلوب هو أن يصوغ جو المعركة ما هو قائم الان من اجراءات غير منتهية او عوامل غير تامة . ان جو المعركة سيطور كل شيء .
اضاف المتحدث مخاطبا فينوغرادوف : ... وجو المعركة معناه انه يجب ان تكون هنالك قدرة على تبادل النار مع العدو لمدة شهرين على الاقل . والسؤال الان هو : هل ان الجيش المصري مستعد الان ومن دون مؤازرة الجبهة الداخلية لإن يخوض شهرين من المعارك من دون أن ينهزم .
قال فينوغرادوف : ان تغييرا كيفيا حصل في الجيش المصري .
وطبيعي انه عندما يقول مثل هذا الكلام يكون مستندا الى تقارير الخبراء السوفيات العاملين في الجيش المصري .
ثم قال فينوغرادوف قبل ان تقارب جلسته مع الكتاب والصحافيين المصريين على الانتهاء : نحن معكم في طريق السلم او طريق الحرب من اجل التحرير .
ومثل هذا الكلام اعتبره الكتاب والصحافيون الذين حضروا اللقاء مهما لامرين : الاول انهم يسمعون للمرة الاولى مثل هذا الكلام السوفياتي ، ثم انهم يسمعونه من فينوغرادوف الذي هو ليس سفيرا عاديا . وطبيعي انه عندما يقول مثل هذا الكلام فانه يعبر عن موقف شارك في وضعه كعضو بارز في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي . الامر الثاني هو ان فينوغرادوف قال هذا الكلام قبل أيام من انتهاء « سنة الحسم » وفي وقت كانت رغبة مصر في القتال تطغى على اي شيء آخر .
وعندما بلغ السادات هذا الكلام يقوله فينوغرادوف تضايق لامرين ايضا : الاول انه يقلل من اهمية استعداد الجبهة الداخلية في حين ان السلطة أوحت بان هذه الجبهة مستعدة وقادرة على تادية دورها كاملا . الامر الثاني هو انه لا يقول للكتاب والصحافيين حقيقة الموقف السوفياتي .

وكان تعليق بعض الذين حضروا اللقاء مع فينوغرادوف : اذا كان السادات نفسه لا يقول لرجال الاعلام المصريين حقيقة الموقف السوفياتي فلماذا يجب ان نغضب لان فينوغرادوف لا يقول ذلك ؟
لكن السادات بدأ متأخرا بقول بعض الحقائق المتعلقة بالموقف السوفياتي .

ان التعايش المثالي بين السادات وفينوغرادوف لم يكن قائما كما أوردنا . يضاف الى ذلك ان انتقادات كثيرة وجهت من السوفيات الى السادات بطريقة مباشرة على افراطه في الظهور بالمظهر المتدين وافراطه في اعادة الاعتبار الى مواقع اليمين المصري . وكان يخالطه شعور بأن سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي بوريس بوناماريف هو الذي يعمق هذه المشاعر العدائية ضده خصوصا ان الرجل (أي بوناماريف) كان في استمرار يعتبر ان الدين عقبة في طريق تقدم مصر وانه يتوجب على مصر ان تحسم الموقف من الدين كشرط للحاق بالعصر ولاستيعاب روحه .

لقد كانت للسوفيات مآخذ كثيرة على نظام السادات وبدا ان مثل هذه المآخذ كانت تناقش كقضايا اساسية في خلال الاجتماعات الحزبية في الاتحاد السوفياتي .

وفي ندوة عقدتها صحيفة « الاهرام » بين ٣١ كانون الثاني (يناير) و٢ شباط (فبراير) ١٩٧٢ بعنوان « حركة التحرر الوطني والدول الاشتراكية في عالمنا المعاصر » وشاركت فيها وجوه سوفياتية وعربية ومصرية كشف السوفيات عن بعض مآخذهم على الدول العربية . وسأحاول هنا تسجيل المآخذ المتعلقة بمصر .

ان الوفد السوفياتي الذي شارك في الندوة كان مؤلفا من: ايفغيني جوكوف (عضو اكاديمية العلوم السوفياتية) وفاسيلي سولو دو فنيكوف (مدير معهد الدراسات الافريقية في موسكو) وفيكتور مايفسكي (المحرر السياسي في صحيفة « البرافدا ») وفلاديمير دونزوف (استاذ الاقتصاد السياسي في معهد العلوم الاجتماعية) وأوليغ كوفتوفيتش (مستشرق) ويوري غلوخوف (مراسل « البرافدا » في الشرق الاوسط) وفاليري فلاسوف (رئيس قسم الشرق الاوسط وافريقيا في اللجنة المركزية لمنظمة الشباب السوفياتية) ويوري تروشين (صحافي) .

ونلاحظ انه روعي في تاليف الوفد الجانب الاعلامي والاكاديمي .

ما هي المآخذ التي كشف الوفد عنها . انها على سبيل المثال لا الحصر :

— ان الاتحاد السوفياتي يرى ان القطاع العام في مصر بعد خمس

سنوات على الهزيمة لا يزال يواجه — برغم النجاحات التي حققها — صعوبات كبرى من حيث التنظيم والادارة وعدم اشراك العمال في ادارة مؤسسات القطاع العام . وقد ظهر ان دور العمال سطحي ، وهذا ادى الى نواقص في القطاع العام فالى اضعاف الجبهة الداخلية .

— في مجال الزراعة لا يزال القطاع الخاص هو الغالب ولا تزال التعاونيات تحت سيطرة الاغنياء .

— من الضروري الاستفادة من القطاع الخاص الا انه يجب الا يكون هنالك انحياز في تبرير القطاع الخاص .

— ان تبرير جذب راس المال الاجنبي غير مقنع . ولقد علمنا ان مدير البنك الاهلي قال انه ليس هنالك اي خطر من جذب راس المال الاجنبي . هذا الراي يضعف الجبهة الداخلية في آخر المطاف .

— نلاحظ ان الاشتراكية لا تدرس في الجامعات والمدارس . واكثر من ذلك نلاحظ ان مدرسين يشنون حملة عداء مكشوفة ضد الشيوعية ويلقنون الطلبة ذلك . ان مثل هذا الامر لا تفسير له سوى ان هنالك خطة متعمدة لمحاربة الشيوعية والتستر بالاشتراكية التي تتخذ شعارات ديماغوجية لتغطية هذه الحملة .

— ما الذي يمنع تثقيف الجنود المصريين سياسيا . ان من شأن ذلك ان يقوي الجبهة .

— اننا لا نزال نلاحظ ارتفاع مستوى الامية في مصر . كيف يجوز ان تصل نسبة الامية الى سبعين في المئة ؟

— عندما نقرأ الكتب العربية التي تعالج السياسة السوفياتية ونضع تقييما لها نجد عدم فهم كامل للموقف السوفياتي .

— ان الدعاية الغربية تحاول ان تستفيد من تعارض الدين مع الاشتراكية . اننا نجد في المنطقة العربية مجالا رحبا للافكار التي تغذيها الدعاية الغربية من دون ان نلاحظ في الوقت نفسه تيارا مضادا من الانظمة لمواجهة هذه الافكار . ولقد اثبت الاتحاد السوفياتي امكان بناء الاشتراكية مع المحافظة على الدين . ان الاسلام لا يزال موجودا في الجمهوريات التي اعتمدت الاشتراكية منهجا . وفي اختصار ، يمكننا القول انه ليس هنالك نزاع بيننا وبين الاسلام .

— اننا نلاحظ في الصحافة العربية عموما كلاما يفيد ان ازمة الشرق الاوسط ستظل مستمرة ما دام الاسطول السوفياتي في المتوسط. اننا نأسف لسماع مثل هذه التصريحات ونتساءل : الا يعرف هؤلاء ان ازمة الشرق الاوسط موجودة قبل تواجد الاسطول السوفياتي في المتوسط ؟

— تتحدثون كثيرا عن موقفنا من الحرب والسلام . اننا كماركسيين لنا مفاهيم معينة بالنسبة الى هذا الموضوع لا يمكنكم الاقتناع بها ما دمتم

غير ماركسيين . يجب ان نتعلم الصبر ونستخدم كل طاقاتنا ونستفيد من عامل الوقت لتقوية الجبهة العسكرية والميدان الاقتصادي ومن ثم ايجاد الصيغة التي تؤدي بنا الى احراز النصر في الحرب . واذا لم نكن على ثقة من ان النصر محتم فالافضل ان نلجأ مرحليا الى اعتماد الاسلوب السياسي . ان التاريخ يعمل لمصلحة الاشتراكية . وكل سنة سلام هي في مصلحة الاشتراكيه . وان التعايش السلمي وجه من اوجه النضال في سبيل الاشتراكية .

ــ اننا نسمع ونقرا كلاما كثيرا باننا نشجع هجرة اليهود الى اسرائيل .. ونستغرب كيف انكم تصدقون الكلام الذي تبثه كالسموم أجهزة الدعاية الغربية والصهيونية التي تستهدف العمل في استمرار على ايجاد سوء تفاهم بين العرب والسوفيات . لقد سمحنا لبعض اليهود بالهجرة . هذا صحيح . الا ان الذين هاجروا كانوا بضعة آلاف معظمهم من المتقدمين في السن . لم نسمح للشباب بالهجرة وليس الذين هاجروا من الاختصاصيين كما زرعت الدعاية الغربية والصهيونيــة في افكار العرب . ولنفترض ان بين الذين هاجروا عددا من الاختصاصيين فهل يجب ان يولد ذلك حالة خوف . في جامعة القاهرة خمسون الف طالب يمكن تحويلهم في سنتين الى اختصاصيين . في بلادكم طاقات ضخمة ، وأمر ايجاد الاختصاصيين والفنيين ليس مشكلة ولا معجزة . اننا لم نطلب من اليهود الروس مغادرة البلاد الى اسرائيل . الذي نفعله هو العكس تماما . الا ان عددا من يهود جورجيا تأثروا بالدعاية الغربية والصهيونية الى درجة اصبحت هجرتهم أفضل من بقائهم . وبعدمــا وصلوا الى اسرائيل اصبحوا يثيرون المشاكل في وجهها . ان لنا موقفا واضحا من الصهيونية . انها نوع من انواع الفاشستية ولذلــك فان اليهود السوفيات ضد الصهيونية . ولقد قاوم لينين الصهيونية . انكم تعملون من موضوع هجرة بضعة آلاف من اليهود قضية تبنون عليهــا الهواجس والمخاوف . ان الصهيونية تكره الاتحاد السوفياتي أكثر مما تكره العرب . ان نسبة اليهود الذين اختاروا الهجرة لم تتجاوز النصف في المئة من مجموعهم . وهذه النسبة البسيطة سببها ان اليهود الروس يعتبرون الصهيونية سما . ما رايكم في ان القنصلية السوفياتية في فيينا منهمكة دائما بمشاكل اليهود الذين تنبهوا وقرروا العودة الى الاتحــاد السوفياتي بعدما كانوا اختاروا الهجرة . اننا لا نستطيع ان نرد على كل حملة يكون مصدرها الدوائر الغربية الامبريالية والصهيونية . اننا نعالج الامور وفق خط ثابت ومرسوم .

ــ تتصورون اننا ضد الوحدة او ان موقفنا من الوحدة غامض . هذا ليس صحيحا . اننا ننطلق من موقف مبدئي كدولة اشتراكية هو تأييد أي وحدة تعتمد الاسس التقدمية والموجهة ضد الامبريالية . ونحن

نرى ان في الوحدة امكانات اوسع لاحراز النصر على عدونا المشترك . ولكننا نلاحظ ان العلاقات الاقتصادية بين الدول العربية هي دون علاقة كل من هذه الدول مع الدول الاجنبية . اننا نرى ان الذي يعرقل تنفيذ قيام الوحدة العربية هو عدم وجود امة عربية بالمعنى الماركسي للامة .

— نسمع كلاما وتلميحات بأن الموقف السوفياتي من القضية الفلسطينية ليس واضحا . هذا يدهشنا . ان الاتحاد السوفياتي يؤيد حركة التحرر الفلسطينية . والرأي العام السوفياتي يدعم الدولة الديموقراطية الفلسطينية على اساس انها بعيدة عن التعصب القومي والدين . والقضية الفلسطينية لا تكمن في موقف الاتحاد السوفياتي وانما في وحدة الحركة الفلسطينية وموقف العرب منها . وفي خلال زيارة ياسر عرفات الاولى لموسكو لم يبحث في الامور السياسية فقط وانما تناول البحث ايضا موضوع المساعدات العسكرية . لكن بالنسبة الينا ليست واضحة الى الان الاهداف النهائية للثورة الفلسطينية ، والتاريخ يعلمنا ان اشكال النضال تنجح عندما تكون الاهداف واضحة للجماهير . وفي اي حال لا داعي الى التخوف من ان الاتحاد السوفياتي سيغير موقفه من القضية الفلسطينية ، لكن المهم في نظرنا هو تقوية الوحدة داخل الحركة الفلسطينية . والذين يقولون انهم لا يلاحظون ان هنالك فهما سوفياتيا واضحا لقضية فلسطين بالحرارة نفسها لفهم قضية فيتنام يغيب عن بالهم بعض البدهيات الاساسية . ان نجاح النضال الفيتنامي ضد الاستعمار يعود الى التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي جرت في فيتنام وهي تحولات جذرية .

تلك كانت بعض المآخذ السوفياتية ، لكن هنالك ايضا بعض المواقف . وعلى هذه المآخذ والمواقف بنى الاتحاد السوفياتي مماطلته في تنفيذ طلبات السادات .

ان السوفيات خرجوا من حرب الاستنزاف مقتنعين بأن مصر لم تكسب بنسبة الخسارة التي تكبدتها . وكانوا يرون انه ما دامت حرب الاستنزاف تتم على الارض المصرية وليس على الارض المحتلة فان النتيجة على المدى البعيد ليست في مصلحة مصر أبدا .

وعندما قيل لهم ان حرب الاستنزاف هي التي حافظت على القضية ساخنة وهي التي ترفع من معنويات المقاتل ، كان ردهم ان هذا منطق عاطفي .

ولولا وجود الخبراء والمستشارين لكان رد الفعل السوفياتي — ربما — لطلبات المصريين مختلفا بعض الشيء . لكن وجود هؤلاء داخل الجيش المصري جعل من السهل على القيادة السوفياتية ان تعرف

الحقائق اكثر . وفي ضوء التقارير التي كان يرفعها كبير الخبراء كانت المواقف السوفياتية تتخذ .

ولقد اعتبر المصريون ان مسالة المواجهة تتطلب في الدرجة الاولى الحصول على كل انواع السلاح المتطور . وكانت وجهة نظر السوفيات انه ليس بالامر السهل ان يستوعب المقاتل المصري السلاح الجديد . وفوق ذلك يجب الا يكون هم القيادة المصرية هو المطالبة بكل سلاح يبلغها ان الاتحاد السوفياتي انتجه او يملكه ، او المطالبة بسلاح يقف في مواجهة سلاح بلغها ان اسرائيل حصلت عليه من الولايات المتحدة .

والحرب في نظر السوفيات هي خلق مجتمع حرب قبل اي شيء . وهم لم يقتنعوا بكل الاجراءات المصرية التي اتخذت لاستحداث هـذا المجتمع . وكثيرا ما قالوا للسادات نفسه ان الدفاع المدني تنقصه أمور كثيرة فكيف يمكن خوض حرب والدفاع المدني ليس جاهزا .

ثم ان المفهوم المصري للسلاح السوفياتي كان في استمرار غير واضح . فالسلاح السوفياتي يصنع على اساس العقيدة السوفياتية في القتال وليس على اساس ان الولايات المتحدة اذا انتجت طائرة الفانتوم فيجب على الاتحاد السوفياتي ان ينتج طائرة تواجهها .

ان العقيدة السوفياتية في القتال ترى انه يمكن تحقيق الهدف الذي تريد بالسلاح المتواجد . وكانت مصر تنظر الى الموضوع مـن زاوية اخرى . وقد تصاعدت طلباتها للسلاح الى درجة انها ــ على حد تعبير الاوساط التي تعرف كثيرا ــ طلبت من الاتحاد السوفياتي تزويدهـا بطائرات الميغ ــ ٢٥ التي لم تدخل بعد في السلاح السوفياتي .

وفوق ذلك ان الحسابات السوفياتية كانت ولا تزال قائمة على اساس ان اي حرب جديدة بين مصر واسرائيل ستكون مغامرة ، وان الحرب بالمنطق المصري لا يجب ان تحدث أبدا . ان هذا المنطق يريد الحرب لأن حالة اللاحرب واللاسلم لم تعد تطاق . والسوفيات يرون ان الحرب ــ المغامرة يمكن ان تؤدي الـى حالة أسوأ بكثير مـن حالة اللاحرب واللاسلم . ان المفهوم السوفياتي للحرب هو ان تكون حسابات الربح فيها تفوق حسابات الخسارة .

ثم لماذا يتجاوب السوفيات مع طلبات السادات في تكديس السلاح اذا لم تكن هنالك قناعات بأن هذا السلاح للمعركة ، واذا لم تكن هنالك خطة محددة بندها الاول الاستعداد للمعركة وبندها الاخير اعطاء الاوامر لبدء المعركة ؟

ان السوفيات فهموا منذ طلب عبدالناصر تواجدهم عسكريا في مصر ان الهدف من ذلك هو ادخالهم في اللعبة السياسية كطرف اساسي. وهم وافقوا ادراكا منهم ان في استطاعتهم ان يكسبوا مـن ذلك وأن يحققوا لصديقتهم مصر ــ ضمنا ــ بعض المكاسب .

كيف ؟

بعدما فشل عبدالناصر في استقطاب الانظمة العربية الى جانبه واقناع بعضها باعتماد أسلوب الضغط على الولايات المتحدة عن طريق اشعارها بالفعل ان مصالحها في خطر ، اتجه نحو الاتحاد السوفياتي طالبا منه حضورا عسكريا في مصر . وعندما فعل ذلك كان في ذهنه انه اذا وافق السوفيات — وهذا ما حدث — سيتخوف الاميركيون كثيرا . صحيح ان السوفيات استبعدوا سلفا وهم يوافقون على طلب عبدالناصر ارسال طيارين وخبراء ومستشارين ومدربين الى مصر ، ان يوجدوا لهم مع الزمن تربة صالحة في مصر للعقيدة الشيوعية ، الا انهم اعتبروا في الوقت نفسه ان المكاسب التي سيحققها حضورهم العسكري في مصر ستحقق لهم حلما تاريخيا وهو التمتع بالمياه الدافئة والتنــزه علنا في البحرين الابيض والاحمر واقتطاع أجزاء من هذين البحرين تكون ملكا موقتا لهم تماما كما كانت الحال ولا تزال بالنسبــة الى الاسطــول الاميركي .

وفي المقابل افترضت الولايات المتحدة ان الوجود العسكــري السوفياتي لن يساعد على توسيع دائرة الماركسيين في مصر والدول العربية الا ان هذا الوجود سيفقدهم مع الزمن عنصر السيطرة الكاملة على المنطقة بحيث سيصبح لهم شركاء . وهذا ما حدث بالفعل .

وكان في ذهن عبدالناصر ان الوجود العسكري السوفياتي سيفيده على صعيد تطوير الجيش المصري من جهة وسيكون سببا لكي تعيد الولايات المتحدة النظر في موقفها . ولقد فعل ذلك كعملية بديلة بعدما فشل في اقناع الانظمة العربية باعتماد اسلوب الضغط على الولايات المتحدة وافهامها ان مصالحها ستكون في خطر ان هي لم تبدل موقفها العدائي .

لم يتمكن عبدالناصر من استعمال سلاح النفط والارصدة فلجأ الى سلاح الوجود العسكري السوفياتي في مصر . فعل ذلك وفي خططه ان السوفيات ليسوا مستعمرين من جهة والشعب المصري لن يستسيغ بقاءهم ولن يعتنق عقيدتهم من جهة اخرى .

والسوفيات وافقوا على طلب عبدالناصر مدركين في الوقت نفسه مقاصده مقدرين ظروف تلك المقاصد . والاكيد انهم وافقوا بعدما درسوا في عناية حسابات الربح والخسارة . الاكيد أيضا انهم عندما وافقــوا وضعوا في حسابهم ان بقاءهم في المنطقة لا بد سينتهي ذات يوم . ومن يدري فقد تكون حساباتهم حددت يوما معينا او سنة معينة يطلب المصريون في نهايتها سحب الوجود العسكري السوفياتي ، وعليهم في فترة التواجد أن يحققوا اكبر قدر من الاستفادة .

وقد تكون ذروة الاستفــادة حدثت في لقــاء القمة الاميركي —

السوفياتي في موسكو . ووافق السوفيات على انهاء وجودهم العسكري في مصر في مقابل موافقة الاميركيين على طلبات سوفياتية . واذا تبين ان ذلك حدث بالفعل يكون الرئيس السادات اخطا في التوقيت ولم يكسب من انهائه الوجود العسكري السوفياتي في مصر القدر الذي يتوقع . وفي هذه الحال كان عليه ان يخطو خطوته عشية انعقاد قمة موسكو او يوم انعقاد تلك القمة لانه لو فعل ذلك لكان دمر تلك القمة وفوت على نيكسون وبريجنيف تبادل صفقة على حسابه ولكان جعل كل الحسابات الاميركية والسوفياتية تتبدل . الا ان عدم لجوئه الى ذلك ترك الفرصة متاحة أمام اتمام الصفقة وحقق للسوفيات ربحا كثيرا . ومن أجل ذلك فان لامبالاة القيادة السوفياتية بقرارات السادات قد يكون سببها ان موسكو حققت ما تريد ولينسحب الخبراء والمستشارون والمدربون وكل الوجود العسكري السوفياتي في مصر .

واللامبالاة السوفياتية ظهرت في بادىء الامر عندما رفض زعماء الكرملين صدور بيان ودي مشترك عن انتهاء مهمة الخبراء والمستشارين قائلين انه اذا كان لا بد من صدور هذا القرار فليصدر عن الجانب المصري فقط .

واللامبالاة تلك ظهرت لان القيادة السوفياتية التزمت الصبر فلم يصدر عن أي مسؤول سوفياتي كبير او صغير اي رد فعل في وقت كثرت تصريحات المسؤولين المصريين الكبار والصغار .

وكان واضحا ان المسؤولين المصريين تضايقوا من هذا الصمت السوفياتي . وقد يكون هذا الصمت تسبب في توقف الرئيس السادات عن اصدار المزيد من القرارات المتعلقة بتصفية الوجود السوفياتي في مصر . فلو ان زعماء الكرملين اظهروا انفعالا ما وقالوا كلاما ما في حق مصر لكان السادات في وضع المستعد لمواصلة المجابهة من دون ان يلومه أحد .

والصمت السوفياتي احدث انطباعا بأن زعماء الكرملين غير مكترثين لما قرره السادات . والصمت السوفياتي اوحى بأن زعماء الكرملين كانوا في غاية الارتياح لان الخبراء والمستشارين العسكريين خرجوا بطلب من مصر .

ان الرئيس السادات تصور وهو يعلن قراراته انهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات ان هذه القرارات ستنزل كالصاعقة على زعماء الكرملين . وسيحدث في موسكو ما لم يحدث من قبل . وتصور ان احد الثلاثي الذي يحكم الاتحاد السوفياتي ، وربما بريجنيف نفسه ، سيصل فجاة الى القاهرة ويبحث معه في الامر . لكن ذلك لم يحدث . واكثر من ذلك لم يقل أحد رايه كأنما الامر في منتهى البساطة .

لقد عبر احسان عبدالقدوس في صحيفة « اخبار اليوم » الصادرة

يوم السبت ١٢ آب (اغسطس) ١٩٧٢ عن الضيق المصري من الصمت السوفياتي في مقال كتبه وجاء فيه : « ان على قادة الاتحاد السوفياتي ان يتحدثوا بصراحة عن أسباب الخلاف مع مصر . ان مصر حرصت على شرح وتبرير الموقف الذي ادى الى انتهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات ، كما حرصت على مصارحة الرأي العام الداخلي والعالمي بتفاصيل هذا الموقف . ان العالم كله يعرف اليوم موقف مصر . والذي لا يعرفه احد هو موقف الاتحاد السوفياتي من القضية التي اثارت الخلاف . والى اليوم لم يتكلم واحد من القادة السوفيات علنا عن اسباب الخلاف . واذا كان القادة السوفيات مقيدين بالاساليب الديبلوماسية التي تحرمهم من المصارحة ، فما من احد من الكتاب السوفيات كتب تحليلا تفصيليا لاسباب الخلاف وموقف الدولة منه ، وما من صحيفة من الصحف السوفياتية نشرت شيئا ابعد من الاخبار العامة والكلمات العامة . ان هذا التكتم الذي يصمم عليه قادة الاتحاد السوفياتي في شرح وتفسير مواقفهم ، والمصارحة بها ، فيه ظلم للرأي العام السوفياتي نفسه ، الذي من حقه ان يعرف مهما كانت طبيعة النظام الذي يعيش فيه . كما ان هذا التكتم فيه تجاهل لقيمة الرأي العام العربي في فهم موقف الاتحاد السوفياتي الذي يحدد بالتالي مدى الصداقة العربية ــ السوفياتية » .

وفي اي حال ان الصمت السوفياتي كان أمرا محيرا . وكان من حق مصر ان تتساءل : لماذا لا يتكلم القادة السوفيات .

ان الاتحاد السوفياتي استفاد كثيرا من تواجده العسكري في مصر . هذه حقيقة ثابتة . والاتحاد السوفياتي ادرك منذ ان ارسل طيارين وخبراء ومستشارين عسكريين ومدربين الى مصر ان هؤلاء لن يبقوا اكثر من فترة محددة ولذا فعليه ان يجني ما يطمح الى جنيه في خلال هذه المدة . ادرك انه أرسل عسكريين الى بلد يكره شعبه الشيوعية ويتمسك بالدين . بلد لم تنضج بعد تربته الاشتراكية ولذلك فان المواقع اليمينية والمعادية للاشتراكية يمكن ان تتحرك في سرعة وسهولة لمجرد ان تجد الظروف المناسبة . ادرك الاتحاد السوفياتي وهو يرسل عسكريين الى مصر ، وهي خطوة لم تحدث مع اي بلد خارج الكتلة الشرقية ، ان مصر ليست احدى دول هذه الكتلة . انها بعيدة . بعيدة جدا . وبسبب هذا البعد لا تستطيع ان تفعل القوة العسكرية السوفياتية مع مصر ما فعلته في المجر او في تشيكوسلوفاكيا. ان الاتحاد السوفياتي ادرك وهو يوافق على ارسال طيارين وخبراء ومستشارين ومدربين الى مصر ان هؤلاء سيكونون في استمرار تحت رحمة قرار

يصدره الحاكم المصري في اي لحظة ، ولذلك فان قيادة الكرملين وضعت جدولا زمنيا للاستفادة من هؤلاء الذين ارسلتهم . ولقد استفادت . كانت الديبلوماسية السوفياتية تتحدث وتتحرك في استمرار من موقع ضعف واصبحت بفضل التواجد العسكري في البحرين الابيض والاحمر تتحرك من موقع قوة . كان الاسطول الاميركي السادس سيد المتوسط فاصبح يتقاسم السيادة مع الاسطول السوفياتي . كان الاتحاد السوفياتي في عزلة فكسر وجوده العسكري في مصر والبحرين الاحمر والابيض هذه العزلة . كانت القيادة العسكرية السوفياتية تعتمد على التقارير لتعرف اسرار التحرك الاميركي في المتوسط فاصبحت عبر طائرات الاستكشاف المرابطة على حاملات الطائرات السوفياتية ترى الاسرار على الطبيعة . كان الاسطول السوفياتي في الماضي يعتمد على اوديسا للتموين بالمياه الحلوة وبعد ذلك اصبح يعتمد على الاسكندرية وبورسعيد .

والاستفادة التي كسبها السوفيات من تواجدهم العسكري في مصر وفي البحرين الاحمر والابيض كانت درعا امن الحماية اللازمة لوجودهم الاقتصادي الذي امتد وتشعب . وبفضل سبع سنوات من الوجود العسكري السوفياتي استطاع بريجنيف ان يحدث نيكسون في قمة موسكو من موقع قوة ويقطف ثمارا ما كان ليحلم بقطفها لولا وجوده العسكري تلك المدة الطويلة .

واذا اعتبرنا ان ضيق الولايات المتحدة من الوجود العسكري السوفياتي في مصر والبحرين الابيض والاحمر عكسه التصريح الشهير لهنري كيسينجر رجل المهمات الصعبة بل والمستحيلة في حكم الرئيس نيكسون ، لادركنا مدى الاستفادة التي حققتها السوفيات من موافقتهم على الانسحاب من مصر وبالتالي من البحرين الدافئين . فقبل فترة من انعقاد قمة موسكو صرح كيسينجر « بان هدف الولايات المتحدة هو طرد الاتحاد السوفياتي من هذه المنطقة الحساسة ... » .

وفي حسابات الدول الكبرى فان الاستفادة تكون بنسبة الضيق .

اننا في اي حال نفترض ان موسكو باعت من واشنطن موضوع الوجود العسكري السوفياتي في مصر وقبضت الثمن قضايا اخرى اكثر اهمية بالنسبة اليها .

واننا في مثل هذه الحال يجب ان نفترض ايضا : هل لو ان السادات لم يقرر انهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات وما تبع ذلك من خطوات كان الاتحاد السوفياتي سيتخذ هذا القرار من جانبه ؟

والرد المنطقي على ذلك هو ان مثل هذه القضايا تدرس عادة في عناية وبعد نظر . وقيادة الكرملين درست ذلك منذ زمن بعيد وربما منذ رحل جمال عبد الناصر . ومماطلتها في تنفيذ طلبات السادات، واستمرار ابداء جو الشك من جانبها في قيادته ، بالاضافة الى امور اخرى ، كان الهدف منها ايصال السادات الى اتخاذ القرارات التي اتخذها .

ولكن ما الذي كان سيحدث لو ان السادات لم يعلن قراراته انهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات ، وسبقته موسكو واعلنت ذلك ؟

كان سيقال ان الاتحاد السوفياتي تخلى عن مصر . كان سيقال انه تخلى عن القضية . كان سيقال انه باع اصدقاءه .

وعندها كانت حجة الاصدقاء ستكون قوية وبالذات في الانطلاق في طريق الحل السلمي .

ومرة اخرى نعود الى النقطة الاساسية . ان العلاقة المصرية ـ السوفياتية كانت في استمرار بين نظامين . كانت الجماهير في البلدين بعيدة عن الحقائق . واكثر من ذلك . كانت ازمات حادة تشهدها هذه العلاقات احيانا وبدلا من ان يوحي النظامان للشعبين بذلك كانا يكثران من التصريحات التي تضج بالود والعاطفة . والمؤلم ان شرب الانخاب كان يتم فوق خلافات وتناقضات وتباين في وجهات النظر وشكوك .

وسيكون الامر اشد ايلاما اذا تبين ان حسابات جميع الفرقاء اخطأت وان النظام المصري لاكثر من سبب سيتجه الى الاتحاد السوفياتي. وسيجد نفسه في حاجة الى ان يطلب من جديد عودة الخبراء والمستشارين والمدربين والبحارة والطيارين .

وعندها يصبح المأزق خطيرا بل ومدمرا . وعندما اعلن السادات انهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات والحق قراراته هذه بخطوات اخرى على طريق تصفية الوجود العسكري السوفياتي شدد على القول ان ذلك لا يعني تأجيلا للمعركة . الا انه كان واضحا ان ذلك انما هو تأجيل بدليل ان العروض انهمرت على السادات من اجل تحقيق الحل السلمي .

والمعركة من غير الدعم السوفياتي ليست ممكنة . والسادات نفسه يدرك ذلك . وجنرالات الجيش المصري الذين طالما تضايقوا من الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات يدركون ذلك . والولايات المتحدة تدرك ذلك . واسرائيل تدرك ذلك .

وليس في استطاعة السادات ان يعيد الخبراء والمستشارين الذين اخرجهم . ولن يكون بالامر السهل اعادة المجد السوفياتي الى مصر . فهو بقراراته اراد ان يثبت للمصريين انه حرر الارادة المصرية . ولقد كان الامر مثيرا ومحيرا ان مئات العائلات المصرية وزعت « الشربات »

ابنهاجا بقرارات السادات .

وفي غمرة ابتهـاج اكثرية المصريين بقرارات السادات صـدرت اصوات ترى ان هذه القرارات ليست في مصلحة البلد . وعلى سبيل المثال فان المؤتمر الثالث لطلبة جامعة عين شمس الذي انعقد من ١٨ تموز (يوليو) ١٩٧٢ الى ٢٠ منه اصدر قرارات وتوصيات جاء فيها :

« ــ ان قرار الرئيس السادات والمتعلق بالعلاقات العربية ــ السوفياتية والذي ينعكس بالتاكيد على قدرة مصر في اتخاذ قرار بالقتال لم تتضح الرواية الكاملة في مسبباته الموضوعية ، خصوصا ان الاتحاد السوفياتي ظل صديقا شريفا وقف الى جانبنا في النضال العربي بكـل ابعاده السياسية والعسكرية والاقتصادية ولم يتوان في احلك اللحظات من النضال العربي بأن يمد يده بكل اشكال الدعم ودون ان يحاول فرض ارادته علينا .

« ــ ان تدهور العلاقات العربية ــ السوفياتية يطرح سؤالا محددا :

من البديل لهذا الصديق الذي يدعـم مواقفنـا السياسيـة والاقتصادية والعسكرية وذلك في اطار ما اكدناه ونؤكده من انه لا تفاوض ولا تنازل ولا استسلام للامبريالية العالمية . .

« ــ ان عرض قرار القيادة السياسية في ما يتعلق بتحديد الموقف من العلاقة العربية ــ السوفياتية على اللجنة المركزية بعد اتخاذه بعشرة ايام انما يتناقض مع المبادىء الديموقراطية السليمة ومـع الشعارات المرفوعة لجماعية القيادة . ان القرارات السياسية قرارات الشعب ، وان اتخاذ مثل هذا القرار بهذا الشكل يجعل من اللجنة المركزية مجرد منبر لعرض القرار بعد اتخاذه وتنفيذه .

« ــ ان التصعيد العسكري الذي مارسته مصر في حرب الاستنزاف وفي مواجهة العدو كان يضع دول المعسكر الاشتراكي وعلى راسهـا الاتحاد السوفياتي امام مسؤولية تجديد وتهيئة وسائل النضال مـع التصعيد المستمر لاساليب المواجهة المتفوقة ولم تعد الان هذه المسؤولية تفرض نفسهـا بنفس الالحاح بعد الوصول بالموقف لحـالة اللاسلم واللاحرب .

« ــ اننا نستنكر الاسلوب الدعائي الذي ابرزته الصحف المصرية للقرارات الاخيرة والخاصة بعلاقتنا بالاتحاد السوفياتي والتي استهدفت استثارة وشحن مشاعر الجماهير من خلال شعارات الاستقلال الوطني مما يساعد على ما يروجه اعداء مصر في الداخل والخارج من ان الوجود السوفياتي نوع جديد من الاستعمار ، الامر الذي يحقق هدف الامبريالية في عزل مصر عن القوى التقدمية وعلى راسها الاتحاد السوفياتي وفي هذا انتهاء الحرب دون اطلاق رصاصة واحدة .

« ــ انه مع المتراض ان قرار المعركة قد ارتهن بالامداد السوفياتي

للقوات المسلحة بالاسلحة الحديثة فما هو تفسير حالة اللامبالاة في الجبهة الداخلية وعدم الاعداد لها ، تلك المطالب التي قامت من اجلها حركتنا الطلابية الشريفة في يناير (كانون الثاني) ١٩٧٢ ولم يتحقق شيء يذكر » .

وعلى سبيل المثال ايضا فان الكاتب الروائي المعروف الدكتور يوسف ادريس قال في اجتماع عقدته النقابات المهنية في الاتحاد الاشتراكي بعد اعلان القرارات ان القرار الذي اصدره السادات انما هو قرار ضد مصر .

لكن القاعدة العريضة من الشعب المصري كانت مع السادات . ووقوفها الى جانبه عزز وضعه واعاده قويا على الصعيد الشعبي بعد ان كانت شعبيته التي حققتها الاجراءات الدستورية والافراجات عن المعتقلين والانفراجات في الداخل واعادته عددا من الضباط الذين صرفوا في الماضي من الخدمة الى العمل ... قد اهتزت بعض الشيء بسبب احداث الطلبة من جهة وحالة اللاحرب واللاسلم التي لم تنهها قراراته الهادفة الى انهاء الوجود العسكري السوفياتي .

ان السادات كان يتوقع ، بل ويتمنى ، رد فعل من السوفيات لا يتسم بطابع اللامبالاة . وفي حساباته انه لو حدث لقاء سوفياتي — مصري على مستوى القمة بعد اعلان القرارات ، لكان سيجعل المعادلة مستقيمة . وعندما كان يسأل « لماذا كنت تعلن دائما نجاح محادثاتك مع قادة الكرملين في حين ان هذا النجاح كان دائما خارج المحادثات » كان يقول : كنت اشجع السوفيات على تنفيذ وعودهم لي .

ولاسباب كثيرة كان السادات يعتبر ان بوناماريف هو المسؤول عن تدهور العلاقات المصرية — السوفياتية . وفي لقاء مع رجال الاعلام في العام ١٩٧١ قال السادات ان بوناماريف ستاليني وفاشيستي وانه مسؤول عن تدهور العلاقات وانه في استمرار يقول ان الجيشين السوري والمصري غير قادرين على المعركة .

وكثيرا ما كان يردد امام البعض ان السوفيات يحاربونه بدل ان يساعدوه والا فما معنى ان يعيدوا النظر في امور كثيرة تساعد على ايجاد الكثير من المآزق لحكمه . وكان على سبيل المثال يقول ان جمال عبد الناصر اتفق مع السوفيات على ان يدفع لهم ثمن السلاح ٧٥ في المئة بالعملة المصرية و٢٥ في المئة بالعملة الصعبة . وبعد وفاة عبد الناصر عدل السوفيات الاتفاق واصروا على ان يكون الدفع ٥٠ في المئة بالعملة المصرية و٥٠ في المئة بالعملة الصعبة ثم عدلوا الاتفاق مرة أخرى ليصبح ٧٥ في المئة بالعملة الصعبة و٢٥ في المئة بالعملة المصرية .

كذلك فانه كثيرا ما ابدى امام ضباط الجيش المصري ضيقه لان العنصر السوفياتي بالنسبة الى المعركة هو « عنصر مانع » . وحيال تكرار ذلك امام الضباط وصلت الحال الى ان مجموعات منهم قالت مرة ان على الرئيس ، ما دام مقتنعا بانهم لا يريدونه ولا يريدون الحرب ، ان يخرجهم او يغيروا سياستهم .

وفي احد لقاءاته بكبار ضباط الجيش قال السادات ان السوفيات وضعوا قيودا على استعمال بعض انواع الاسلحة .

لقد اخرج السادات السوفيات من مصر . وغطى الاتفاق بينه وبين العقيد معمر القذافي على الوحدة الاندماجية اي ردود فعل داخلية يمكن ان تنشأ .

صحيح ان المصريين توزعوا فرقاء . فريق ذهل . وفريق سر كثيرا وابتهج الى درجة توزيع « الشربات » . وفريق طرح التساؤل تلو الاخر: وماذا بعد اخراج السوفيات ، هل ستبدأ المعركة ؟ وفريــق راى ان موقف مصر كان صعبا قبل اخراج الخبراء وبعد سحبهم أصبح موقف كل من مصر والاتحاد السوفياتي صعبا . وفريق افترض ان السوفيات كانوا في تباطؤهم في تنفيذ طلبات السادات يخلقون المناخ الملائم لسقوطه وانه تنبه الى ذلك لتقوض مخططهم . وفريق قال ان ضرب علي صبري كان يجب ان يكون جرس انذار للسوفيات خصوصا ان المصريين وقفوا مع السادات في ضربه « رجل موسكو في مصر » . وفريق تصور ان اخراج الخبراء انما هو مقدمة لحل سياسي للازمة المعقدة . وفريق قال انه ما دام السادات اخرج الخبراء وفي الوقت نفسه شدد على ان ذلك ليس تأجيلا للمعركة فعلى من سيتكل اذا قامت المعركة ما دامت هنالك قوتان ومصدران للسلاح هما الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . واذا كانت مصر تحتاج الى السلاح المتطور فانها لن تجده الا عند الولايات المتحدة ما دام قرر مجابهة الاتحاد السوفياتي، ولا يمكن ان تزود الولايات المتحدة اسرائيل ومصر في وقت واحد . وفريق قال هل ان السادات سيعتمد حرب التحرير الشعبية اذا سدت كل الابواب في وجه حل الازمة بالمعركة او الحل السلمي المشرف . وفريق قال هل ان السوفيات كانوا يتوقعون ان يفعل السادات ما فعله وهل غاب عن بالهم ان الجيش المصري معبأ ضدهم وسيدعم السادات في قراراته الخطيرة هذه . وفريق قال ان المساعدات السوفياتية ليست في مستوى ما حققه السوفيات من وجودهم في مصر وان عليهم ان يتفهموا ذلك ويتصرفوا وفق هــذا التفهم .

ان المصريين الذين انقسموا فرقاء طرحوا تساؤلات ونظريـــات

وعلامات استفهام واتفقوا في الراي على أن الاتحاد السوفياتي لا يقوم بدوره المطلوب . وكثيرون عادت بهم الذاكرة الى حزيران (يونيو) ١٩٦٧ عندما أسرع السفير السوفياتي في وقت متأخر الى منزل عبد الناصر وايقظه من نومه قائلا له : لا تضرب . لا تبدأ المعركة .

ولم يبدأ عبد الناصر الضرب. وانما بدأ يتلقى الضربات من اسرائيل. وكانت الضربات مؤلمة في الساعات الاولى ثم مدمرة بعد ذلك .

والى الان ما زالوا في مصر في حيرة من امر ذلك الطلب السوفياتي الملح الذي قاد في النهاية الى الهزيمة .

ان الحساسيات التي نشأت في خلال عملية بناء السد العالي في اسوان لم تتصاعد الى درجة الانفجار لاكثر من سبب أبرزها ان عبد الناصر كان موجودا ، وان هدف الاثنين : المصريين والسوفيات ، كان بناء السد . اما الحساسيات التي نشأت منذ بدأ الوجود العسكري السوفياتي يتصاعد في مصر فالسبب في تفاقم محاذيرها ان عبد الناصر في العالم الاخر وان مفهوم الفريقين للمعركة ليس موحدا . وليس هنالك شعو اخطر من الشعور الذي كان يعيشه الضابط المصري وهـو ان مدربه يدربه علـى استعمال السلاح وفي قناعته ـ قنـاعة المـدرب السوفياتي ـ ان الضابط لن يحارب .

ومرة اخرى لنفترض ان المعركة فرضت فرضا فما الذي سيحدث لو أن الجيش احتاج الى ذخيرة والى قطع غيار ولم يتجاوب الاتحـاد السوفياتي بعد المعاملة التي لقيها من الاصدقاء المصريين ؟

لا شك في ان القيادة المصرية اولت هذا الامر عناية فائقة . ولا شك في أن السادات وضع في الحساب ذلك . ووضع في الاعتبار ان في القيادة السوفياتية عناصر متصلبة ترى ان يكون الموقف اكثر تشددا من اميركا واسرائيل ، سيكون لكلمتها تأثير في الموضوع .

ولكن المعركة اذا نشبت لن تنتظر تحرك مثل تلـك العناصر . وعندها سيصبح الامر مجرد غوص في متاهات .

٤ ـ مسلسل الهزات في العلاقات

برغم كل مناسبات الغضب التي كان يخلقها جمـــال عبد الناصر حيال السوفيات وسياستهم في المنطقة والتي وصلت الى حد أسماع نيكيتا خروشوف كلاما قاسيا عندما كان في زيارة رسمية لمصر ، فـــان الكرملين كان دائم الاطمئنان الى ان مستقبل العلاقات المصريـــة ـــ السوفياتية مضيء ، او على الاقل ان حاضر العلاقات سيستمر الـــى فترة طويلة في منأى عن النكسات والتصدع .

ولقد كان عبد الناصر ، في استمرار ، حريصا على ان يأخذ فـــي الاعتبار الحساسية السوفياتية المفرطة ، لذا فان السوفيات تجاوبوا معه اكثر من تجاوبهم مع اي حليف او صديق اخر ، بدليل انهم ارسلوا اليه من يؤمن تشغيل الصواريخ كما ارسلوا طيارين قاموا في ظـــروف معينة بادوار اساسية منها على سبيل المثال ، العمل ليلا ونهارا فـــي شكل مظلة جوية فوق سماء القاهرة وسائر المدن المصرية في خلال عملية انشاء قواعد الصواريخ التي احاطت بالقاهرة والاسكندرية واسوان وبعض المدن الاخرى .

ولم يحدث في تاريخ العلاقات بين عبد الناصر والاتحاد السوفياتي ان اهتزت هذه العلاقات . كان يتم ، من وقت الى اخر ، تسجيل تباين في الرأي ، الا ان الطرفين كانا يلتقيان في النهاية عند خط واحـــد او متقـــارب .

لكن العلاقات بين انور السادات والاتحاد السوفياتي شهـــدت اكثر من انتكاسة ، ربما لان الرجل لم يكن مطلعا ايام جمال عبدالناصر على الخيط السحري الرفيع الذي يربط العلاقات بعضها ببعض ، وربما لان نظرته الى هذه العلاقات تختلف عن نظرة عبد الناصر ، لكن ما دام هو خلف عبد الناصر ، فانه ورث ارتباطات ونظرة تقليدية ووجد بنفسه ان العلاقات في الشكل الموروث حساسة الى درجة ان التفكير فـــي مجرد اعادة نظر بسيطة في اسسها قد تتسبب في تدهور ليس مـــن

المصلحة حدوثه في اي شكل .

الا ان السادات حاول ان يجرب ، عن قصد او عن غير قصد . المهم انه حاول ان يجرب . وكانت المحاولة الاولى مريرة بالفعل .

بماذا يجرب ؟

اراد ان يتحدث عن اهمية العلاقات بين مصر والاتحاد السوفياتي في شكل درامي .

كان ذلك في طنطا . . . في المدينة التي تضم ضريح السيد البدوي الذي يزوره المصريون التبرك . وفي خطاب القاه السادات في المدينة يوم الاثنين ٤ كانون الثاني (يناير) ١٩٧١ ، اي بعد قرابة ٧٧ يوما من تسلمه رسميا منصب رئاسة الجمهورية ، قال : « لا بد ان تكون الحقائق امام الشعب بصراحة . حين تحدث الرئيس عبد الناصر رحمه الله عن الصواريخ الجديدة كان اولادنا على الجبهة يحتاجون الى ثمانية اشهر للتدرب عليها . فهل يا ترى نترك البلد هكذا (. . .) . وطلب الرئيس عبد الناصر الصواريخ بعساكر سوفيات الى ان ينتهي جنودنا من التدرب عليها ووافق الاصدقاء السوفيات . ويأتي الاميركان ليقولوا في دعاياتهم : الوجود السوفياتي والاحتلال السوفياتي . هل اترك اهدافي تضرب في الوقت الذي يأتي الاصدقاء ليدافعوا معي ويموتوا . وقد مات فعلا ستة منهم مع اولادنا في دهشور . ماتوا وهم في بلادنا . ولم يقولوا شيئا » .

لكن السوفيات بعدما سمعوا هذا الكلام فعلوا شيئا خطيرا . طلبوا من السادات ان يتراجع عن الكلام الذي قاله لان اعلانه ان ستة من الجنود او الضباط السوفيات قتلوا في مصر في خلال قيامهم بعملية دفاعية من شأنه ان يحدث اشكالات دولية في منتهى الخطورة .

والارجح ان السفير السوفياتي فلاديمير فينوغرادوف الذي كان مضى على تقديمه اوراق اعتماده الى السادات قرابة سبعين يوما هو الذي طلب — لانه مطلق الصلاحية وسفير فوق العادة لبلاده ويعرف ما هو الكلام الذي يفيد وما هو الكلام الذي قد يخلق اشكالات — من السادات من دون ان يتصل بموسكو، ان يأمر بحذف المقطع الذي يتحدث فيه عن السوفيات الستة الذين قتلوا في دهشور .

ويبدو ان القضية كانت خطيرة الى درجة ان السادات وافق على ان يتراجع عن كلام قاله مسجلا بذلك سابقة تحدث للمرة الاولى في مصر الثورة . والذي حدث ان « وكالة انباء الشرق الاوسط » الرسمية المصرية التي وزعت خطاب السادات في طنطا ، مقطعا بعد مقطع ، وزعت بعد قرابة ساعة من انتهاء الخطاب صيغة جديدة للفقرة التي اعلن فيها السادات مقتل السوفيات الستة طالبة الغاء الفقرة الاصلية . وقد خلت الصيغة الجديدة من كلام السادات عن مقتل السوفيات هؤلاء .

واذا كان تراجع السادات عن كلام قاله وضايق السوفيات الى درجة انهم طلبوا حذفه امرا مهما ، فان الاهمّ من ذلك هو محاولة تفسير مقاصد الرئيس المصري من وراء الاعلان ان ستة من العسكريين السوفيات قتلوا في دهشور في خلال غارات اسرائيلية .

ان الرئيس السادات بعدما تسلم الحكم ووجه بالكثير من المصريين يتحدثون بصوت عال عن الوجود السوفياتي وعدم تجاوب السوفيات مع مصر كما يجب ان يكون التجاوب ، ولقد وجد أن الفرصة مناسبة ليقول في خطاب طنطا ان جمال عبد الناصر هو الذي طلب من الاتحاد السوفياتي ارسال ضباط وجنود مع الصواريخ لان المصريين لا يعرفون استعمالها . اذا ، لماذا كان هنالك ضيق من وجود عسكري سوفياتي في مصر فانه ليس هو المسؤول عنه .

وفوق ذلك ان الرئيس السادات قد يكون قصد من اعلان مقتل السوفيات الستة على ارض مصر احراج الاتحاد السوفياتي .

كيف ؟

ما دام الاتحاد السوفياتي سلم من حيث المبدأ بالمشاركة العسكرية في الدفاع عن مصر ، اي بالرجال ، وليس فقط بالسلاح ، فما الذي يمنعه من توسيع دائرة هذه المشاركة . يضاف الى ذلك ان من شأن الكلام الذي قيل في طنطا ان يحرك الاتحاد السوفياتي بعض الشيء فيزيد في اهتمامه بازمة الشرق الاوسط .

ولكن حذف مقطع من الخطاب لا يعني ان الرئيس السادات لم يقل ذلك الكلام الخطير . فقد كان الخطاب يبث في الهواء وسمعه المصريون وغير المصريين الذين كانوا يتابعون في استمرار ما يقوله السادات في بداية ولايته . لكن رسميا ، يستطيع السوفيات ، اذا بحث في هذه الناحية ، ان يقولوا ان السادات لم يأت على ذكر حادثة مقتل ستة من الضباط او الجنود او الخبراء السوفيات في خلال تواجدهم مع القوات المصرية في دهشور ، بدليل انه سمح بتوزيع ايضاح او نفي عبر احد اجهزة اعلامه هو « وكالة انباء الشرق الاوسط » .

ومع ذلك فان كلام السادات في طنطا اوجد حالة من الحذر في نفوس قادة الكرملين . وفي اعقاب تلك الحادثة ، او الحدث ، جرى عتاب كبير لكنه افاد في تحديد ملامح التعامل في المستقبل .

وثمة ملاحظة أساسية هي أن كلام السادات في طنطا جاء بعد اسبوعين من المحادثات التي أجراها علي صبري في موسكو وبعد أن اطلع السادات على نتائج زيارة نائبه انذاك التي تمت في نطاق خطة تحرك دولية في شان ازمة الشرق الاوسط شملت معظم عواصم العالم .

واستكمالا للملاحظة ، فان زيارة علي صبري تخللتها مفاجآت واهتمامات من نوع معين . والارجح ان الرئيس السادات نفسه كان

بين الذين فوجئوا . وعلى سبيل المثال فان علي صبري وصل الى موسكو يوم الاحد ٢٠ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٠ وهو يوم مقدس عند السوفيات يخصصونه للراحة والمتعة مع افراد الاسرة ؛ الا ان المطار كان محتشدا بكبار المسؤولين السوفيات الذين تركوا الدفء وجاءوا لتحية الوفد المصري في جو وصلت درجة حرارته الى ١٠ تحت الصفر . وفي قصر الكرملين حدثت في اليوم التالي مفاجاة . دخل علي صبري القاعة ومعه اعضاء الوفد المرافق . وبعد لحظة دخل القاعة قادة الكرملين الثلاثة بريجنيف وكوسيغين وبودغورني ليرئسوا الجانب السوفياتي . وكانت الانباء تؤكد ، الى ما بعد منتصف ليل الاحد — الاثنين ، أن الذي سيرئس الوفد السوفياتي هو كيريل مازوروف النائب الاول لرئيس الوزراء وعضو المكتب السياسي . وكان مازوروف هو الذي رأس الوفد الذي استقبل علي صبري في مطار موسكو . ولقد تعمد زعماء الكرملين الثلاثة اخفاء الخبر وارادوا ان يعبروا بهذه المفاجاة عن خطورة المحادثات واهميتها.وكان مقررا ان يستمر الاجتماع ساعتين لكنه امتد الى ثلاث ساعات . وكانت ابرز دلائل اهمية المحادثات :

— اصرار الثلاثة الكبار على حضور جميع الجلسات التي استمرت في مجموعها ثماني ساعات كاملة .

— الغاء الماريشال اندريه غريشكو وزير الدفاع السوفياتي رحلة الى بودابست لحضور مؤتمر حلف فرصوفيا وبقاؤه في موسكو للاشتراك في المحادثات .

لقد كان احتفاء الكرملين بعلي صبري استثنائيا . وكان الزعماء السوفيات متجاوبين.وطبيعي ان مثل هذا الاحتفاء احدث ردة فعل معينة لدى السادات الذي كانت تصله تقارير عن زيارة علي صبري واهتمامات السوفيات بها .

ان فجوة الثقة كانت كبيرة بين زعماء الكرملين وانور السادات خصوصا ان الرئيس المصري بدأ منذ الاسابيع الاولى من ولايته يتحرك في الدائرة التي تكسبه شعبية في بلده هو في اشد الحاجة اليها الا ان ظنون الكرملين ذهبت بعيدا الى درجة اعتبار هذا التحرك يشكل تهديدا لطبيعة النظام الاشتراكي .

وبدأ الطرفان يبحثان في الطريقة التي تزيل فجوة الثقة التي بدات تتسع . موسكو من جانبها تبحث ، والسادات من جانبه يبحث . مصلحة كليهما ان تضيق هوة عدم الثقة ، لكن السادات يريد في الوقت نفسه الا يكون التضييق على حساب توسعه في تحركه الذي من شأنه ان يؤمن

له الشعبية المطلوبة .

وكانت مناسبة الاحتفال باتمام العمل في السد العالي مناسبة ممتازة لتضييق هوة عدم الثقة . فهل حدثت المعجزة وضاقت الهوة ؟

كان السادات يتوقع بل يتمنى ان يشارك الرجل الاول في الكرملين ليونيد بريجنيف في الاحتفال . وكان يرى أن حضور بريجنيف الى القاهرة أمر طبيعي او يجب ان يكون طبيعيا . فكما ان الرجل الاول منذ احدى عشرة سنة ، وكان نيكيتا خروشوف انذاك ، هو الذي شارك مع عبد الناصر في وضع حجر الاساس لبدء العمل في سد اسوان ، فانه من الطبيعي أن يشارك الرجل الاول الان في الكرملين في قص الشريط عن لوحة تذكارية تعلن انتهاء العمل في المشروع الذي يحمل في كل زاوية وحجر ونقطة ماء وشعاع كهرباء معنى له بعده التاريخي . ان المشاركة في بدء العمل في سد اسوان العالي مهمة ، الا ان المشاركة في انتهاء العمل اكثر اهمية .

قد يكون بال السادات سها عن ان بريجنيف لا يمكن ان يحضر الى مصر للمشاركة ما دام استعمل في خططه لاسقاط خروشوف سلاح انفتاح خروشوف غير المحدود على مصر . وبناء السد كان ذروة الانفتاح .

المهم ان بريجنيف لم يحضر وانما جاء الرجل الثالث نيكولاي بودغورني . وصل يوم الاربعاء ١٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٧١ . وقال عند وصوله : « جئت اشارك في الاحتفال باتمام اعظم بناء ، واجتمع بالسادات لدعم صداقتنا وتعاوننا في القضايا الحيوية » .

وبعد قليل من وصوله زار السادات مع بودغورني ضريح عبد الناصر . ثم زارا اسرة الرئيس الراحل . وتقبل خالد عبد الناصر تعازي الرئيس السوفياتي .

وكانت مشاعر الحزن بادية على بودغورني لانه وصل الى القاهرة في وقت كانت بدأت في جميع انحاء مصر الاحتفالات بذكرى ميلاد عبد الناصر . وقد شاهد بعض المسيرات الشعبية الى الضريح . ومشاعر الحزن سببها انه جاء ليحتفل مع القيادة المصرية بانجاز العمل الذي تحدى به عبد الناصر العالم وكانت امنيته ان يقف فوق بناء السد بعد انتهائه ويقول للعالم كله : « ها قد نجح التحدي » . لكن هذه الامنية لم تتحقق .

وفي اليوم الثاني لوصوله عقد بودغورني محادثات مع السادات استغرقت ثلاث ساعات . وكانت الاجواء التي سادت المحادثات توحي بارتياح لدى الفريقين ربما لان مضمون هذه المحادثات لا يشمل قضايا معقدة .

ويوم الجمعة ١٥ كانون الثاني (يناير) احتفل في اسوان بانتهاء

العمل في السد الذي كلف ۳۰۰ مليون جنيه استرليني واستغرق العمل في بنائه ١١ سنة و٦ ايام . اشترك السادات مع بودغورني في قص الشريط ، بعدما امر كل منهما ان يتولى الاخر عملية القص . وبعد ذلك تقدم الاثنان (ومعهما خالد جمال عبد الناصر) الى لوحة تذكارية وازاحا الستار عنها . واللوحة عبارة عن قطعة واحدة من الصخر طولها متران وعرضها متر حفرت عليها بماء الذهب العبارة الاتية : « بفضل القائد الخالد جمال عبد الناصر ومن مآثر نضاله وكفاحه المستمر في سبيل الحرية والاشتراكية والوحدة افتتح الرئيس انور السادات رئيس الجمهورية السد العالي في يوم الجمعة ١٨ ذو القعدة ١٣٩٠ هجرية الموافق ١٥ يناير (كانون الثاني) ١٩٧١ » .

ولا بد ان بودغورني كان يتمنى لو تضمنت العبارة بضع كلمات اخرى تشير الى المساعدة السوفياتية في بناء السد . فالسد انجاز ضخم على الصعيدين المعنوي والمادي . وبحضور بودغورني حفلة انتهاء العمل ، يكون الرجل الاول في القيادة السوفياتية (خروشوف) والرجلان الثاني والثالث في القيادة الحالية (كوسيغين وبودغورني) زاروا اسوان وشاهدوا على الطبيعة العمل في السد العظيم .

وفي خلال زيارة بودغورني من اجل المشاركة في احتفالات انتهاء العمل في السد العالي ، لاحظ المصريون امرين : الاول ان السادات لم يزر مدمرة سوفياتية تدعى « لينينغراد » كانت وصلت الى ميناء الاسكندرية ، مع بعض قطع الاسطول السوفياتي في زيارة غير رسمية للميناء . والثاني أن السادات قال امام بودغورني كلاما يتعلق بالارادة الوطنية .

ما هي قصة زيارة المدمرة ؟

صباح الاحد ١٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٧١ صدرت « الاهرام » وعنوانها الرئيسي في صفحتها الاولى هو الاتي : السادات وبودغورني على ظهر اكبر المدمرات السوفياتية في البحر المتوسط — الرئيسان يزوران المدمرة لينينغراد اثناء وجودهما في الاسكندرية اليوم .

كانت المدمرة وصلت الى مياه الاسكندرية يوم الجمعة ١٥ كانون الثاني (يناير) . وكان واضحا ان القصد من زيارتها هو احاطة زيارة بودغورني بمظهر قوة .

وقد وضعت الترتيبات بالفعل لكي تتم زيارة السادات وبودغورني للمدمرة بعد زيارة يقومان بها في اليوم نفسه للترسانة البحرية . وتمت زيارة الترسانة . وهتف العمال المصريون بالروسية مرحبين وهتف العمال السوفيات بالعربية .

ووجد المشرفون على الامن ان جو زيارة الترسانة لا يشجع على ان تتم الزيارة الثانية ، زيارة المدمرة . فاقترحوا الغاءها .

كانت الترتيبات تمت في المدمرة لاستقبال السادات وبودغورني . وفرش السلم الخاص بها بالسجاد الاحمر . ثم ...

ثم ، لم يصعد الرئيسان اليها . واكتفيا بمشاهدة المدمرة وهما واقفان على رصيف الميناء .

ولقد تبين ان الغاء زيارة المدمرة كان عملا حكيما . وفي الوقت نفسه ارضى مشاعر قطاعات عريضة من المصريين كانت سترى في الزيارة ، لو تمت ، ان الرئيس السادات يبارك بنفسه مظهرا من مظاهر «انتقاص» السيادة المصرية . فهو لو كان مثلا في اوديسا في خلال زيارة للاتحاد السوفياتي وصعد الى ظهر مدمرة راسية في قاعدة بحرية هناك لكان الامر عاديا ، اما أن يصعد السادات الى ظهر مدمرة سوفياتية وصلت الى الاسكندرية في زيارة هدفها احاطة زيارة بودغورني بمظهر قوة ، فان الامر لا يعود طبيعيا وعاديا خصوصا ان في نفسه ، اي السادات،صراعا محوره ان الوجود العسكري السوفياتي في مصر يشكل علامة فارقة بالنسبة الى موضوع السيادة المصرية .

الامر الاخر الذي لاحظه المصريون الذين سروا لان رئيسهم الغى زيارة كانت مقررة للمدمرة السوفياتية « لينينغراد » هو أن السادات قال بعد يومين من الغاء زيارة المدمرة في مأدبة عشاء اقامها بودغورني تكريما له بعد الجولة الاخيرة من المحادثات « ان معركتنا في صميمها كانت ولا تزال هي تحرير للارادة الوطنية لكي تستطيع هذه الارادة ان تبني للحرية وللحياة » ...

صحيح ان زيارة بودغورني تميزت ، ظاهريا ، بجو ودي، الا انها كانت تخفي في طياتها ألما من جانب السادات ومزيدا من الشكوك من جانب السوفيات .

واستمرت الحال على ما هي الى ان قام السادات بزيارته السرية للاتحاد السوفياتي .

كانت المرحلة التي سبقت الزيارة في منتهى التعقيد على صعيد الجبهة الداخلية ، بعدما كانت المعركة قد تقررت ثم تأجلت في اللحظة الاخيرة .

كان الموعد المحدد لانتهاء فترة وقف اطلاق النار هو ٥ شباط (فبراير) ١٩٧١ . وفي الايام العشرة التي سبقت هذا الموعد كان كل شيء يوحي بأن المعركة ستبدأ بعد انتهاء فترة وقف اطلاق النار . فقد بدأ السادات سلسلة من الاتصالات هدفها مواجهة ما بعد انتهاء الموعد الخطير . وقام وزير الحربية (انذاك) الفريق اول محمد فوزي بجولة في منطقة الجبهة للتاكد من استعدادات الجيش . وفي الداخل جرت

غارات تجريبية في محافظات الجمهورية . وطلب الامين العام للاتحاد الاشتراكي العربي (انذاك) السيد عبد المحسن ابو النور ان يستمر العمل في دائرة « الراي العام ومشاكل الجماهير » التابعة له في الاتحاد الاشتراكي على مدى اربع وعشرين ساعة يوميا لتلقي الاشاعات والتساؤلات التي تدور بين جماهير الشعب والرد عليها تمكينا لتوى الشعب من الوقوف على حقائق الموقف وذلك لمناسبة اقتراب موعد انتهاء وقف اطلاق النار . وخصص ابو النور خطين هاتفيين في مكتبه لتلقي التساؤلات والرد على الاشاعات . وقد اتخذ ابو النور تلك الخطوة لان التساؤلات والاشاعات التي انتشرت كانت تدور حول ما اذا كان السادات لن يخوض المعركة بعد انتهاء فترة وقف اطلاق النار .

واستمر كل تصرف رسمي يؤكد ان المعركة ستبدأ الى ان كان يوم الثلثاء ٢ شباط (فبراير) ١٩٧١ . ففي الحادية عشرة قبل ظهر ذلك اليوم عقد مجلس الدفاع الوطني اجتماعا في رئاسة السادات تركزت المناقشات فيه حول الموقف والتطورات والاحتمالات المقبلة .وفي هذا الاجتماع الذي استمر الى ما قبل السادسة مساء بدقائق واشترك فيه كل اعضاء المجلس الذي يعتبر اعلى هيئة للتخطيط الاستراتيجي ولسياسة الدفاع عن الوطن حدثت مفاجأة : تأجلت المعركة .

وكان المظهر الاخير لتصميم السادات على خوض المعركة بعد انتهاء وقف اطلاق النار هو كلام قاله ابو النور مساء الثلثاء . ذلك بانه بعد قرابة ثلاث ساعات من انتهاء اجتماع مجلس الدفاع الوطني بث تلفزيون القاهرة « حوارا مفتوحا » مع ابو النور الامين العام للاتحاد الاشتراكي قال فيه : « ان الحرب ستصبح بعد انتهاء فترة وقف اطلاق النار اكثر ضراوة واشد عنفا وقد تكون اشمل مما كانت عليه قبل هذه الفترة بمعنى ان اسرائيل ستستخدم قواتها الجوية على اوسع نطاق وفوق اي جزء من الجمهورية العربية المتحدة . ولكن الذي يجب ان يعرفه المواطنون هو ان قواتنا المسلحة قادرة على ان تلقن اسرائيل درسا يجعلها تفكر مئة مرة قبل أن تعتدي . واذا جاء الوقت الذي تعبر فيه القوات المصرية القناة لتحرير الارض فلن يقف في طريقها احد ولن توقف امركا عمليات القتال اذا وجهت انذارا بذلك لتحمي اسرائيل في حال تقدمنا لاننا نقاتل لتحرير ارضنا » .

وكلام ابو النور سجل قبل اجتماع مجلس الدفاع الوطني الذي شارك فيه . ولو انه قاله بعد الاجتماع لما كان ، بالطبع ، سيتحدث بتلك الحدة عن المعركة . ولقد حدث ان فقرات عدة حذفت من تصريحات ابو النور التلفزيونية في ضوء ما تقرر في مجلس الدفاع .

بالاضافة الى تصريحات ابو النور فان عضو اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي العربي (انذاك) السيد ضياء الدين داود قال قبل

اجتماع مجلس الدفاع كلاما مشابها لكلام ابو النور . ففي لقاء مع اعضاء مجلس نقابة الصحافيين عقد قبل اجتماع مجلس الدفاع بوقت قصير اكد داود ان يوم ٥ شباط (فبراير) هو مجرد يوم من ايام المعركة الطويلة والمستمرة . وقال انه لم ير أي جديد في الموقف واكد ان هدف اميركا واسرائيل « هو الايهام بان هناك تقدما في اتصالات يارينغ حتى يكون موقفنا محرجا امام الرأي العام عندما لا نقبل مد وقف اطلاق النار . ولكن الحقيقة غير ذلك وليس هناك حتى الان أي تقدم » .

وبسبب اجواء الاستعداد للمعركة من جهة . وتصريحات ابو النور وداود من جهة اخرى . فان المصريين تصرفوا على أساس ان يوم ٥ شباط هو مجرد يوم من أيام المعركة الطويلة والمستمرة . على حد قول ضياء الدين داود لرجال الاعلام المصري في خلال اجتماعهم اليه . وحدث نوع من الاستنفار النفسي لهذا الغرض رافقه شراء الكثيرين حاجياتهم بكميات وفيرة مخافة ان تبدأ المعركة وتطول ولا يعود رب العائلة قادرا على ان يجد السمن والزيت والسكر والارز . . . ناهيك بالشاي.

ونام المصريون الثلثاء على أساس ان بينهم وبين الحرب ساعات . ولم يدر احد منهم بأن المعركة وضعت على الرف موقتا : في خلال اجتماع مجلس الدفاع الوطني المؤلف من احد عشر بمن فيهم رئيس الجمهورية . وقد أصدر السادات قرارا بتأليف المجلس يوم الاربعاء ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٠ محددا طبيعته على انه اعلى هيئة للتخطيط الاستراتيجي ولسياسة الدفاع عن الوطن وتحقيق اهدافه المتصلة بامنه وسلامته والذي يتحقق في اطاره اكبر قدر من التناسق بين العمل السياسي والعمل العسكري .

وما دام عدد اعضاء المجلس احد عشر بمن فيهم رئيس الجمهورية فان ما يبحث ويتقرر في خلال اجتماعاته لن يعرفه احد .

لكن الذين ناموا الثلثاء على أساس ان المعركة واقعة حتما بداوا في الساعات الاخيرة من اليوم التالي (الاربعاء ٣ شباط (فبراير) ١٩٧١) يسمعون كلاما جديدا مفاده أن المعركة لن تبدأ لان القيادة المصرية قررت تمديد وقف اطلاق النار .

ما هو سر ذلك ومن اين هذا الكلام الجديد ؟

قبل ظهر الاربعاء عقدت اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي اجتماعا : في رئاسة السادات : استغرق ساعتين . وفي الاجتماع ابلغ السادات اعضاء اللجنة ما تقرر في مجلس الدفاع الوطني . خيم الذهول على ثلاثة ارباع أعضاء اللجنة. وبعد ذلك حاول هؤلاء مناقشة السادات لكن الكلمات خانت بعضهم . وهكذا فان بعضهم ناقش وبعضهم الاخر استمع . وغادر الجميع مبنى الاتحاد الاشتراكي وهم يتساءلون : ما الذي حدث فجأة حتى تحول الموقف بهذا الشكل الدرامي . لماذا فجأة .

من تصميم على المعركة وتمسك بعــدم مد وقف اطلاق النـــار . الى تاجيل للمعركة وتمديد لوقف اطلاق النار .

لقد أبلغهم السادات انه قرر تمديد وقف اطلاق النار ٣٠ يومــا تنتهي في ٧ اذار (مارس) ١٩٧١ . وأبلغهم في الــوقت نفسه انــه سيعرض على مجلس الامة في اليوم التالي بـمبادرة مصرية تقضـي بانسحاب جزئي للقوات الاسرائيلية عن شاطىء القناة كمرحلة اولــى لجدول زمني لتنفيذ قرار مجلس الامن .

ومن شدة ذهول اعضاء اللجنة المركزية من الموقف الذي انقلب فجأة ، وجدوا انفسهم يعممون على مناطقهم ما سمعوه . ولان عــدد اعضاء اللجنة ١٥٠ فانه في خلال ساعات كان كثيرون ، علــى الاقل في القاهرة ، عرفوا بالموقف الجديد وهو : لا معركة وانما تمديد وقف اطلاق النار يرافقه عرض بادرة جزئية لفتح القناة .

واشير هنا الى انني كنت الصحافي الوحيد بين الصحافيين غير المصريين ، المتواجدين في القاهرة ، الذي استطاع ان يذيع نبأ التمديد قبل قرابة عشرين ساعة من اعلان السادات ذلك في مجلس الامة . والذي ساعدني على ارسال النبأ من القاهرة الى بيروت هو تساهــل متعمد او عفوي من قبل الرقيب . او ان الرقيب الذي كـــان كأكثرية المصريين يعيش في ظل اجواء ان المعركة ستحدث بالفعل اراد ان يضعني في موقف صعب هو انني اجزم امرا لن يحدث وان الرئيس الســـادات سيكذب مثل هذه الانباء في اليوم التالي عندما يتحـــدث امـــام مجلس الامـــة .

ومشكلة الرقيب انه لم يكن عارفا بما تقرر في مجلس الدفـــاع الوطني وبما أبلغه السادات لاعضاء اللجنة المركزية وبما سيعلنه امام مجلس الامة .

في أي حال لقد افادني تساهل الرقيب لكنه ضايقه عندما فوجىء المسؤولون المصريون بأن ما سيعلنه الرئيس السادات في مجلس الامة وأراد أن يفاجىء به العالم ويباغته قد عرف به العالم سلفا بعدما نشر في صحيفة « النهار » .

لقد فوجىء السادات وهو يتحدث في مجلس الامة في السادسة من مساء الخميس ٤ شباط (فبراير) ١٩٧١ معلنا انه قرر الامتناع عن اطلاق النار ثلاثين يوما تنتهي في ٧ اذار (مارس) ١٩٧١ عارضا فـــي الوقت نفسه البادرة المصرية التي تبين انه قررها لوحده . . . لقد فوجىء السادات وهو يتحدث بأن اعضاء مجلس الامة يصفقون لـــه بحرارة عندما يقول بعض العبارات التي توحي بأن المعركة ستبدأ . وعندمـــا وصل في كلامه الى حيث اعلن أنه سيمدد وقف اطلاق النار مستعمـــلا كلمة « الامتناع » عن اطلاق النار بدلا من « تمديد » اطـــلاق النار ،

تلطيفا لا اكثر ، فوجيء بأن صمتا رهيبا خيم على القاعة .
ومن العبارات التي صفق لها الاعضاء طويلا وبحرارة : « اننا لن نكون الجيل الذي يسلم في حقوق شعب فلسطين » و «واجبنا المقدس الذي لا يمكن ان ينكره علينا احد هو واجب تحرير الارض والعودة الى الاشتباك مع العدو » و« اننا لا نستطيع ولا يحق لنا ان نترك وقف اطلاق النار يتجدد تلقائيا » .
وقبل ان يعلن السادات قراره الامتناع من اطلاق النار لمدة شهر ويعرض المبادرة اشار الى انه يفعل ذلك استجابة لنداء الامين العام للامم المتحدة (انذاك) يوثانت وبعد رغبات ابدتها دول صديقة لمصر راجية منها ضبط النفس .
والامر الذي حير كثيرين هو لماذا لم يكتف السادات باعلان الامتناع عن اطلاق النار ؟ ولماذا عرض في الوقت نفسه البادرة المصرية ؟
ان البادرة ، بالطريقة التي عرضها والقاضية بانه اذا تحقق في فترة الثلاثين يوما انسحاب جزئي للقوات الاسرائيلية كمرحلة اولى على طريق جدول زمني يتم بعد ذلك وضعه لتنفيذ بقية بنود قرار مجلس الامن ، فان مصر على استعداد للبدء فورا بمباشرة تطهير مجرى قناة السويس واعادة فتحها للملاحة الدولية وللاقتصاد العالمي ... ان البادرة ، بالطريقة هذه التي عرضها السادات فتحت الباب امام تمديد دائم لوقف اطلاق النار وهذا ما حدث بعد ذلك .
وفي هذا الصدد يجدر التذكير بانه كان من راي علي صبري وآخرين في مجلس الدفاع الوطني انه لا فائدة من عرض المبادرة وانه اذا كان لا بد من ذلك فيجب الا يقال ان مصر مستعدة لتطهير القناة واعادة فتحها وانما ستبدأ في دراسة تطهير القناة عند اتمام المرحلة الاولى من الانسحاب .
والذين شاهدوا الرئيس السادات في التلفزيون يتحدث في مجلس الامة وكنت واحدا منهم لاحظوا انه كان في وضع لا يحسد عليه لاضطراره. الى تمديد وقف اطلاق النار بعدما كانت المعركة مقررة ، ولاضطراره ايضا الى عرض مبادرة قوبلت من الناس بمرارة .
وعندما يريد السادات التعبير عن وضع ما ، فانه يلجأ الى الايات الكريمة . ويومها انهى حديثه الى اعضاء مجلس الامة بالاية الكريمة « ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا او اخطأنا . ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا . انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » .

كان المصريون الذين يستعدون لذبح الخراف لمناسبة عيد

الاضحى الذي صادف السبت ٧ شباط (فبراير) ١٩٧١ ينتظرون ان تصدر صحفهم يوم الجمعة ٥ شباط (فبراير) بكلام أساسي حول المعركة . لكن الصحف هذه صدرت ذلك اليوم وصفحاتها الاولى تحمل عناوين رئيسية مخيبة لتوقعاتهم . كان عنوان « الاهرام » كالآتي : السادات يعلن الامتناع عن اطلاق النار ٣٠ يوما ومبادرة مصرية جديدة . اما « الاخبار » فوضعت العنوان الاتي : نستجيب لنداء يوثانت بشروط . ووضعت « الجمهورية » العنوان الاتي : اخر فرصة للسلام .

والذي خفف من سويداء المصريين انهماكهم في طقوس الاضحى وذبح الخراف من جهة . ورحلة الفضاء الاميركية الشهيرة والمثيرة . ومن باب المصادفة ان ابولو — ١٤ هبطت على سطح القمر يوم ٥ شباط (فبراير) واصبحت الصحف المصرية ، التي كان مفترضا ان تهتم بالمعركة لو لم يقرر السادات فجأة تمديد وقف اطلاق النار ، تعنى بتطورات رحلة الفضاء الاميركية المثيرة . الا ان هذه التطورات لم تحل دون التركيز على ردود الفعل الدولية على قرار السادات ومبادرته وهي قرارات باهتة اذا قيست بردود الفعل التي كانت قائمة حتى اجتماع مجلس الدفاع الوطني الذي رجحت فيه كفة السلام على كفة الحرب .

ولم تفد المبادرة في شيء . الذي حدث هو مزيد من الضيق لدى المصريين ... ومزيد من الانتظار . كانت حسابات السادات انه اذا انسحبت اسرائيل وفقا للمبادرة فان القناة ستكون جاهزة امام الملاحة الدولية في خلال اربعة اشهر . وان يتحقق ذلك تتخذ الازمة مسارا جديدا .

وبدأ المصريون ينتظرون انتهاء الثلاثين يوما علهم يجدون ما يخبرهم عن طبيعة المستقبل . اما القيادة العسكرية فانها انهمكت في حملة توعية في الجبهة استهدفت الابقاء على استمرار ارتفاع الروح المعنوية لدى المقاتلين . ولقد عقدت ندوات كثيرة في الجبهة لهذا الغرض وقام رئيس الاركان (انذاك) الفريق محمد احمد صادق بدور اساسي في هذا المضمار . وكان يؤكد للضباط والجنود انه اذا لم يتحقق السلام فلا بديل من القتال .

وفي الاسبوع الاول من الحالة الجديدة انهمك السادات قليلا في حادث سيارة تعرضت له صغرى بناته جيهان التي تحمل اسم والدتها، وفي عملية جراحية بسيطة لابنته الاخرى . وبعد ذلك انهمك في محادثات اجراها مع الماريشال تيتو في اول زيارة لمصر قام بها بعد وفاة جمال

عبد الناصر .

ويوم ١٦ شباط (فبراير) ١٩٧١ نشرت الصحف المصرية مقابلة اجرتها مع السادات مجلة « نيوزويك » الاميركية . وقد أختارت « الاهرام » لمضمون المقابلة العناوين الاتية :

السادات : وراء العريش هو خط الانسحاب الجزئي الذي اقترحه لفتح القناة . العالم لا يعرف شيئا عن جيش مصر الجديد . سندفع اي ثمن يحتاجه تحرير بلادنا . اننا لا نتحدث عن تسوية مصرية وانما نتحدث عن الارض المحتلة كلها . قضية شعب فلسطين هي اساس المشكلة .

وكما هو مألوف ، فأن النص الذي نشرته الصحف المصرية يختلف بعض الشيء عن النص الذي نشرته « نيوزويك » . وهذا التقليد متبع منذ ايام عبد الناصر وهو ان رئيس مصر لا يريد ان يقرأ المصريون كلاما يكون الهدف منه ان يقراه العالم الخارجي ، علما بانه في معظم الاحيان يكون الكلام الذي يقال برسم العالم الخارجي خطيرا جدا ويشكل مواقف اساسية أكثر منه مجرد تكتيك . كذلك فانه كثيرا ما يحدث ان تضاف الى النص الذي ينشر في الداخل عبارات لا تكون واردة في النص الذي ينشر في الخارج .

واذا أخذنا ، كمثال ، المقابلة التي اجرتها « نيوزويك » مع السادات للاحظنا مثل هذه المفارقات .

ففي الحديث عن القوة الدولية في شرم الشيخ قال السادات انه لن يكون في الامكان سحبها من دون موافقة الدول الاربع الكبرى . ولم يرد ذلك في النص المصري للمقابلة .

وفي الحديث عن التسوية قال السادات في النص الذي نشرته « نيوزويك » انها « لا بد ان تكون شاملة لجميع الاراضي التي احتلت سنة ١٩٦٧ وليس سيناء فقط » بينما اضاف النص المصري عبارة اخرى لم تنشر في « نيوزويك » وهي : « ... كما انها لا بد ان تتسع لحقوق الشعب الفلسطيني » .

وردا على سؤال حول ما اذا كان اقتراح فتح قناة السويس يتضمن حرية مرور السفن الاسرائيلية فيها قال الرئيس السادات في النص الذي نشرته المجلة الاميركية : « نعم لقد وافقنا على هذا الامر في مذكرتنا الى السفير يارينغ . ان الموافقة على حرية المرور مذكورة في وضوح تام لكن على اسرائيل اولا ان تنفذ المطلوب منها وفق قرار مجلس الامن » . في حين ان رد السادات في النص المصري كان كالاتي : « ان حرية الملاحة مذكورة في وضوح في قرار مجلس الامن ، لكن يجب على اسرائيل اولا ان تفي بالتزاماتها طبقا لقرار الامم المتحدة وبالذات بالنسبة الى حقوق شعب فلسطين » .

وردا على سؤال يطلب ان يذكر الرئيس السادات بأكبر قدر ممكن من الوضوح الامور التي يستعد للموافقة عليها في معاهدة السلام جاء في النص الذي نشرته المجلة الاميركية : « اذا اعادت لنا اسرائيل اراضينا المحتلة وفق قرار مجلس الامن فان امن وسيادة كل دولة في المنطقة بما فيها اسرائيل سيكون جزءا من معاهدة السلام . انني اقولها كلمة شرف : نحن لا مطامع لنا في اسرائيل . ان اسرائيل هي التي تطمع بنا. ان الحدود الامنة والمضمونة لاسرائيل ستكفلها الدول الاربع الكبرى . ستتمتع اسرائيل بحرية المرور في القناة والمضايق ومن اجل ان يحدث كل هذا يجب ان يكون هناك حل عادل لمشكلة الفلسطينيين » .

وفي النص الذي نشرته الصحف المصرية اختصر الرد بالجملة الاتية : « ما نص عليه قرار مجلس الامن واضح وكامل ، لكن ما زلت انبه الى ان حقوق شعب فلسطين هي اساس المشكلة » .

وردا على سؤال حول ما اذا كان الرئيس السادات يعترض على حل مشكلة الفلسطينيين على اساس تقديم تعويض مادي مناسب للاجئين الفلسطينيين واجراء استفتاء في الضفة الغربية وغزة لتقرير ما اذا كان اهلها يريدون دولة منفصلة او متحدة اتحادا فيدراليا او كونفيديراليا مع الاردن او البقاء كجزء من الاردن ، جاء في النص الذي نشرته « نيوزويك » الاتي : « انني ارى هذا الاقتراح طريقة معقولة لحل المشكلة : التعويض والاستفتاء » . اما النص المصري فانه حذف هذا الجزء من الجواب ونشرت الصحف المصرية فقط الجزء المتمم له وهو قول السادات « ان الامر يعود الى الفلسطينيين انفسهم لاتخاذ قرار فيه » .

وثمة سؤال وجواب نشرا في « نيوزويك » وحذفا كليا من النص المصري .

كان السؤال هو الاتي : عندما سألت الرئيس عبد الناصر منذ سنتين عما اذا كان يوافق على وضع قوات من الدول الاربع الكبرى في شرم الشيخ كجزء من الاتفاق على انسحاب اسرائيل من سيناء كان رده « لا » قاطعة جدا . هل ان موقفكم بالنسبة الى هذه النقطة بالذات تغير تماما ولماذا ؟

ورد السادات بالآتي : ان الدافع الوحيد لاقتراحي هذا، هو رغبتي في التسهيل امام قيام تسوية دائمة . ان الشعب لن يعجبه ذلك وهذا هو السبب في ان الرئيس عبدالناصر كان ضده ، لكنني سأجازف. وبعد ذلك اذا لم يفهم الراي العام العالمي موقفنا ففي استطاعتنا القول اننا قد قمنا بأقصى ما نستطيع ولن نكون مسؤولين اذا رفض الاسرائيليون الضمانات التي قدمت لهم .

ولم تكن المقابلة التي أجرتها « نيوزويك » مع السادات هي المظهر الوحيد الذي عكس حرص الرئيس المصري على ان تلقى مبادرته النجاح وتوضع موضع التنفيذ . لقد قال ما قاله في المقابلة التي نشرت بنصين ليساعد المبادرة على ان تحظى بموافقة الغرب واسرائيل . ولم يكن كلامه هو الوحيد الذي قيل في هذا الشأن . ففي اليوم نفسه كانت صحيفة « نيويورك بوست » تنشر مقابلة أجرتها مع الدكتور محمد حسن الزيات قال فيها ان مصر مستعدة للاعتراف بالوجود الشرعي لدولة اسرائيل اذا قبلت اسرائيل تحديد هجرة اليهود اليها . واوضح انها المرة الاولى منذ ربع قرن التي تعلن الحكومة المصرية استعدادها للاعتراف باسرائيل كدولة ذات سيادة . وبرغم ذلك فان رد اسرائيل على كلام الزيات كان الرفض . وقد قال وزير خارجيتها ابا ايبان في اليوم التالي امام البرلمان الاسرائيلي وهو يعلن الرفض « ان اسرائيل لن تطلب من مصر تحديد النسل فيها » .

كانت الايام المتبقية من شهر الامتناع عن اطلاق النار تمر على الناس بطيئة متثاقلة . وتمر بسرعة خاطفة على المسؤولين لانهم لم يجدوا ما سيقولونه بعد انتهاء الفترة بعدما قوبلت المبادرة برد فعل دولي باهت ورفض من جانب الاسرائيليين . في الداخل قال السادات كلاما مختلفا عن الكلام الذي اسمعه للعالم الخارجي . ونشط الديبلوماسيون المصريون في الاتجاه الذي يدعم المبادرة . وكانت القوات المصرية في الجبهة تنتظر مع المنتظرين .

وبعد عشرين يوما من اعلان تمديد وقف اطلاق النار وعرض المبادرة ظهر رد فعل اميركي اولاه السادات الكثير من الاهتمام ربما لانه صدر عن الرئيس نيكسون نفسه في رسالة منه الى الامة عن « حالة العالم » . وسبب الاهتمام ان خطاب نيكسون تضمن الملاحظات الاتية :

— ان نيكسون اعترف للمرة الاولى بأن الدول العربية لن توافق على أي تسوية لا تنص استعادة الارض العربية المحتلة في حرب ١٩٦٧ . وفي الوقت نفسه قال ان اسرائيل لن توافق على الانسحاب ما لم تجد ضمانات امن كافية . ومع ذلك فان ملاحظة نيكسون حول تصميم الدول العربية خرجت منه صريحة للمرة الاولى .

— ان نيكسون اشار للمرة الاولى الى « الاماني المشروعة للشعب الفلسطيني » .

— ان نيكسون في اشارته الى ضمانات السلام لم يأخذ بوجهة النظر الاسرائيلية التي تحاول ربط هذه الضمانات بتخطيط استراتيجي جديد لخطوط ما قبل حزيران (يونيو) ١٩٦٧ وانما ربط نيكسون ذلك « بضرورة ايجاد ترتيبات عملية » .

ـ ان نيكسون ، في حديثه ، استعمل للمرة الاولى في لغة الديبلوماسية الاميركية ، النص الذي كانت فرنسا تتمسك به في ما يتعلق بأي تصحيحات في خطوط ما قبل ١٩٦٧ . وهذا التعبير هو « تصحيحات طفيفة » . وكانت فرنسا في استعمال هذا التعبير تعرّف بهذه التصحيحات الطفيفة على انها تصحيحات ادارية ، ومتبادلة على الجانبين في الناحية الاردنية .

وتدليلا من السادات على اهتمامه بالكلام الذي قاله نيكسون ، فانه ، في الخطاب الذي القاه الاحد ٢٨ شباط (فبراير) ١٩٧١ في افتتاح الدورة الثامنة للمجلس الوطني الفلسطيني التي عقدت في مبنى الجامعة العربية في القاهرة ، آثر عدم مهاجمة اميركا ، ولا حتى الاشارة اليها من قريب او بعيد .

وفي اليوم نفسه اصدرت الحكومة السوفياتية بيانا مطولا حول رايها في تطورات الموقف في الشرق الاوسط جاء فيه ان ازمة الشرق الاوسط تمر بمرحلة حاسمة وان الصدام العسكري هو البديل من فشل قرار مجلس الامن .

الايام المتبقية من شهر الامتناع عن اطلاق النار قاربت على الانتهاء . ما العمل ؟

الموقف على حاله . لا الكلام المتساهل افاد . ولا التنازلات افادت . ولا الرؤية المصرية الجديدة للمستقبل ساعدت . اذا ، لا بد من خطوة لمواجهة المازق الاول .

وكيف يتم ذلك ؟

بالسفر الى موسكو . فليست هنالك طريقة اخرى . ومن دون ان يعرف أحد خارج مجموعة المساعدين المحيطة بالسادات ، توجه الرئيس سرا الى موسكو يوم الاول من آذار (مارس) وعاد الى القاهرة في اليوم التالي . وتدليلا على السرية فان علي صبري الذي كان نائبا لرئيس الجمهورية آنذاك لم يعرف ، وظن السادات غائبا عن القاهرة في زيارة للجبهة .

ولم يعرف المصريون برحلة السادات السرية الى موسكو لان صحفهم لم تنشر شيئا حولها الا انني مع عدد من المراسلين الاجانب عرفنا بالامر من جهات عدة انما بعد يومين .

ومساء الاحد ٧ آذار (مارس) ١٩٧١ كان ثلاثة ارباع المصريين الذين يملكون اجهزة تلفزيون في منازلهم او مكاتبهم يجلسون امام هذه الاجهزة . وكان آخرون ينتظرون امام اجهزة الراديو والترانزستور . فالسادات سيوجه بعد قليل بيانا من استراحة القناطر الخيرية .

... وبدأ الرئيس يلقي بيانه والجميع في حالة تنبه مثيرة يريدون ان يعرفوا ما الذي سيقوله رئيسهم بعد ذلك الشهر العصيب .

واعلن السادات انهاء فترة الامتناع عن اطلاق النار وقال انه زار موسكو سرا يومي الاول والثاني من آذار (مارس) ١٩٧١ وعقد اجتماعات مع قادة الكرملين وعاد واثقا من أن الاتحاد السوفياتي «يؤيد حقنا العادل تأييدا مطلقا وايجابيا » .

وتضمن البيان النقاط الاساسية الاتية :

ــ ان العمل السياسي لم يتوقف وسوف نتابع ونقرر لانفسنا ما نعتقد انه واجبنا في زمانه وفي مكانه .

ــ اننا نثق بالامم المتحدة ومبادئها وبأمينها العام وبممثله الخاص المكلف تنفيذ قرار مجلس الامن .

ــ ما زلنا نطلب من واشنطن ان تفي بما تعهدت لنا به ولن نتركها تتهرب من تعهداتها او تتفلت منها .

ــ ان العدو لن يتوقف في حربه المقبلة ضدنا عند حد وانما ستكون المعركة في كل مكان من مصر .

ــ اريد مشاعركم كلها وقلوبكم كلها وسواعدكم كلها من حول قواتنا المسلحة فهي الامل والرجاء .

ان موسكو لم تعلن من جانبها ان السادات قام بالزيارة ، وهذا تقليد ، ما دامت الزيارة ليست رسمية .

وقصة الزيارة السرية بدات برسالة تلقاها السادات اواخر شباط (فبراير) . كانت الحال وقتذاك معقدة بسبب اقتراب انتهاء شهر الامتناع عن اطلاق النار من دون ان يحدث اي تقدم في الوضع . وقال زعماء الكرملين في رسالتهم ان الامر يقتضي مشاورات على مستوى عال . ويوم السبت ٢٧ شباط (فبراير) استقبل السادات السفير السوفياتي فلاديمير فينوغرادوف وسلمه ردا بالموافقة على السفر الى موسكو . واستقبله مرة ثانية في اليوم التالي وفي هذا اللقاء عرض السفير على السادات برنامج الرحلة . وفجر الاثنين الاول من آذار (مارس) سافر السادات على طائرة خاصة الى موسكو حيث نزل في قصر الضيافة على تلال الكرملين . وبعد وصوله بوقت قصير بدأت جلسات عمل طويلة مع الزعماء السوفيات . الاجتماع الاول استغرق اربع ساعات . ثم استؤنفت المحادثات في اليوم التالي واستمرت خمس ساعات اخرى . ثم عاد الى القاهرة ووصلها في المساء .

ما الذي فعله السادات في موسكو ؟

يبدو انه لم يحقق شيئا . والساعات التسع التي امضاها في محادثات مع الزعماء السوفيات لم تفد في شيء .

ثم لماذا هذه المحادثات الطويلة بين حليفين وصديقين ما دام

مفترضا الا يكون هنالك خلاف حول النواحي الاساسية ؟
يمكن المحادثات في مثل هذه الحال ان تطول بين أعضـــاء اللجان المشتركة التي تفرزها اجتماعات القمة .
ويبقى ان رد الفعل الوحيد الذي حققته الزيارة هو انهـــا تركت علامات استفهام في أفق السياسة العالمية وأوحت آنذاك بأن الدولتين الصديقتين والحليفتين وصلتا الى خطط من شأنها ان تضع حدا للمأزق الصعب الذي يعيشـه الحكم المصري بسبب استمرار الازمة من جهــة واستمرار تمديد وقف اطلاق النار من جهة اخرى . وعلامات الاستفهام تلك نشأت نتيجة لجو الاثارة الذي احاط بالزيارة .
واذا كان من الصعب في حينـــه استنتاج الفائدة التي جنـــاها السادات من زيارته ، فانه بعد قراراته انهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات تبين أن تلك الزيارة لم تحقق ما يرجوه ، وان القيادة السوفياتية لم تتخلص من شكوكها حياله . ولولا هذه الشكوك لكانت الزيارة نجحت كما نجحت الزيارة السرية التي قام بها عبــد الناصر لموسكو في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٠ .
لقد نجحت زيارة عبد الناصر لان زعماء الكرملين واثقـــون بعبد الناصر . ولم تنجح زيارة السادات لان زعماء الكرملين لم يقرروا بعد وضع ثقتهم فيه . زيارة عبد الناصر السرية انتهت الى موافقة الاتحاد السوفياتي على تسليم مصر قواعد للصواريخ مع خبراء يتولون تشغيلها الى حين اعداد مصريين يقومون بالمهمة . وزيارة السادات السريـــة انتهت الى امداد مصر بعدد لا بأس به من طائرات الميغ ــ ٢١ المقاتلة وقاذفات السوخوي .

بين القمة المصرية ــ السوفياتية السرية الاولى التي تمت في موسكو يومي ١ و٢ اذار (مارس) ١٩٧١ والقمة الثانية التي تمت في القاهرة يوم ٢٥ ايار (مايو) ١٩٧١ حدثت امور كثيرة . وحدث الامر الكبير الذي فرض انعقاد هذه القمة وما هو اعظم بكثير . ما الذي حـــدث ؟
تزايد الكلام المصري عن المعركة . وتزايد في الوقت نفسه الكلام المصري عن الحل السلمي .
الجيش المصري اجرى مناورات كثيرة . والديبلوماسية المصرية نشطت على اكثر من جبهة . تسلم السادات رسالة من نيكسون لم تفد في شيء برغم انها جاءت في أعقاب دعوة الى العمل على تحييد الولايات المتحدة وهي دعوة اطلقها محمد حسنين هيكل في « الاهرام » وادت الى انقسامات بين رجال الصف الثاني في المجموعة الحاكمة .

قام اتحـاد الجمهوريات العـربية من مصر وسوريا وليبيـا .

أصدر المؤتمر الرابع والعشرون للحزب الشيوعي السوفياتي الذي انعقد في نيسان (ابريل) ١٩٧١ بيانا اهتمت به مصر كثيرا . فقد جاء فيه « أن الاتحاد السوفياتي سيواصل بحزم مساندته للشعوب العربية وان على المعتدين الاسرائيليين ان يخرجوا من الاراضي التي استولوا عليها » . وحذر البيان الذي اذاعه المؤتمر بعنوان « من أجل سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط » والذي صدر باسم ١٤ مليون عضو يمثلون الحزب الشيوعي السوفياتي حكام اسرائيل من « الرفض العنيد الذي يبدونه لسحب قواتهم من الاراضي العربية المحتلة » .

عارض علي صبري وسائر رؤوس النظام الناصري الاتحاد وكانت معارضتهم مناسبة لضربهم وهذا ما حدث، بعد توجيه تهمة التآمر اليهم. وبسبب ضربهم هؤلاء تزايدت مخاوف موسكو من السادات ، وتزايدت في الوقت نفسه شكوكهم . وبسبب ذلك جاء بودغورني الـى القاهرة . عندما توفي عبد الناصر جاء اليكسي كوسيغين ليطمئن وعاد الى موسكو حزينا على رحيل عبدالناصر من جهة وقلقا على مستقبـل التعاون مع السادات من جهة اخرى . وعندما جاء بودغورني فانه كان حزينا ويمثل حزن الكرملين على النهاية التي وصل اليها « رجال عبد الناصر » من جهة ، وقلقا اكثر من السابق على مستقبل التعاون .

وتعمد السادات ان تذيع النيابة العامة بعد وصـول بودغورني بقليل بيانا رسميا جاء فيه انه تبين من الاوراق والوثائق التي ضبطـت نتيجة التفتيش الواسع الذي قامت به النيابة العامة في منازل السـادة شعراوي جمعه وسامي شرف وعبد المحسن ابو النور ان علي صبري « كان هو الرأس المدبر للمؤامرة والمحرك الاول لها » .

واكثر من ذلك تعمدت الصحف المصرية الصادرة يوم الاربعاء ٢٦ ايار (مايو) ١٩٧١ نشر هذا البيان في شكل بارز وفي صفحاتها الاولى مع نبأ وصول بودغورني وبدء محادثاته مع السادات . وكان لافتا كاريكاتور «الاهرام» في عددها الصادر الخميس . فقد كان يمثل بودغورني يحمل لافتة بكلتا يديه كتب عليها « نحن معك يا سادات » . وبدا السادات يهم بمعانقته فرحا .

ويوم وصول بودغورني تساهلت الرقابة المصرية في شكل لا مثيل له ، فسمحت لوكالة الصحافة الفرنسية بارسال نبأ يفيد ان الدكتور محمود فوزي قد يسافر الى واشنطن . وأحدث النبأ ردة فعل سـيئة لدى السوفيات . وحيال ذلك نفى المتحدث الرسمي المصري النبأ قبل منتصف الليل .

وتبين ان بودغورني جاء الى القاهرة ليقول للسادات في شكل او في آخر ان موسكو كانت في الماضي رفضت طلبا مـن عبد الناصر

للتوقيع على معاهدة بين مصر والاتحاد السوفياتي الا انها الان ترى ان مثل هذه المعاهدة امر ضروري .

وفوجيء السادات . ثم ذهل عندما رفض بودغورني تأجيل التوقيع الى الذكرى التاسعة عشرة للثورة بحيث يكون السادات فرغ من اعادة بناء الاتحاد الاشتراكي وسائر المؤسسات الدستورية ، بعدما ضرب علي صبري والاخرين .

وحيال هذا الاصرار من جانب بودغورني وقع السادات على المعاهدة . وفي اليوم الذي اعلنت المعاهدة كانت مصر في حالة وجوم . القطاع المدني واجم . القطاع العسكري واجم . ولم يخفف من هذا الوجوم كاريكاتور « الاهرام » في عددها الصادر السبت ٣٠ ايار (مايو) ١٩٧١ بعد عودة بودغورني بيوم الى موسكو . وكان الكاريكاتور عبارة عن كلمة المعاهدة بشكل مجسم وامامها السادات وبودغورني يقولان : ... وده كمان سد عالي .

لكن السد العالي الثاني كان متزعزعا . السد العالي الاول بني على أساس صداقة تاريخية ومثالية ومن الحديد والاسمنت . اما السد العالي الثاني فانه قام نتيجة هواجس وشكوك ومخاوف .

سافر بودغورني ووقع على المعاهدة . وقد تكون شكوك السوفيات ومخاوفهم وهواجسهم خفت بعض الشيء الا ان وجوم المصريين تزايد ، لان كلمة « معاهدة » تذكرهم بايام حزينة ايام كانت بين مصر وبريطانيا معاهدة ، ولانهم يرون انه ما دام الاتحاد السوفياتي صديقا وصديقا لا مثيل له ، كما قال عبد الناصر مرارا ومن بعده السادات ، فلماذا المعاهدة اذا ؟

وفي خطاب وجهه السادات الى مجلس الشعب (كان اسمه في السابق مجلس الامة) يوم الاربعاء ٢ حزيران (يونيو) ١٩٧١ أوضح السادات للاعضاء الذين كانوا واجمين وقلقين لماذا وقع على المعاهدة . بالطبع لم يتحدث عن الظروف والملابسات ومخاوف السوفيات وشكوكهم والظروف التي ادت الى التوقيع على المعاهدة . وانما قال الكلام الذي يطمئن الشعب المصري الواجم بقطاعيه المدني والعسكري .

ومما قاله السادات :

« ان هناك شيئا اساسيا جديدا هو الذي يجعلنا نريد هذه المعاهدة ونوقعها باصرار . وفي يقيني ان هذا الشيء الاساسي يتمثل اول ما يتمثل في احد بنود المادة الثامنة . وارجوكم ان تقفوا طويلا عند كل عبارة وعند كل نقطة . يقول هذا البند : تعزيزا للقوة الدفاعية للجمهورية العربية المتحدة سيواصل الطرفان تطوير التعاون في المجال العسكري على أساس الاتفاقات المناسبة في ما بينهما ، ويشمل هذا التعاون بشكل خاص ، العون في تدريب افراد القوات المسلحة للجمهورية

العربية المتحدة ؛ وفي استيعابهم للعتاد وللاسلحة التي يتـم توريدها الى الجمهورية العربية المتحدة .

« ولقد حرصنا على المعاهدة ايمانا منا بأن المعركة ستفرض علينا وان الكلمة الاخيرة في الصراع سوف تكون في ميدان القتال .

« ان الغزوة الصهيونية التي نتعرض لها لـن تنتهي باسترداد الارض المحتلة . ومن واجبنا الا نسمح بأن تتحول اجيالنا المقبلة الـى لاجئين .

« لقد حاولت صحافة الغرب ودعاياته ان تصور امورنا الداخلية وكأنها تغيير في خطنا السياسي . وكانت هذه المعاهدة ردا حاسما على محاولة التشكيك في مسيرتنا . ولقد اكدنا بالمعاهدة ان صداقتنا للاتحاد السوفياتي ليست صداقة مرحلة وليست تكتيكا ، ولكنها صداقة كـل المراحل ، وهي استراتيجية ثابتة .

« لقد وقعنا المعاهدة من موقع الاستقلال الوطني ومن موقع عدم الانحياز ، لمعنى اساسي نريد من كل الاطراف ان يفهموه : ان صداقتنا هي دائما مع الذين يساعدوننا على النصر .

« لقد وضعنا ارادتنا وباصرار على هذه المعاهدة لنقول للكل : نعم نحن نصادق من يصادقنا ونعادي من يعادينا . ونعم نحن سـوف لا نتزحزح عن هدف التحرير سلما أو حربا . ونعم نحن مصممون على بلوغ التقدم وعلى بناء الدولة العصرية الحديثة .

« لا ملاحق سرية للمعاهدة . واقول للذين تعودوا ان يعملوا في الظلام اننا تعودنا ان نواجه الامور دائما في وضح النهار » .

بعد القمة المصرية ـ السوفياتية الاولى لم يصدر بيان مشترك عنها كما هي العادة . وهذا مرده الى ان الزيارة كانت سرية .

ولقد عاد السادات من زيارته السرية هذه ليقول كلاما مطمئنـا وليشدد على ايجابية الموقف السوفياتي ، في حين ان التباين في الرأي ظهر على أشده بين الرئيس المصري والزعمـاء السوفيات . وانتظر السادات مناسبة ازمة الخبراء ليقول بعدها انه حرص على أن يسجل في محاضر اجتماعاته الى الزعماء السوفيات في خلال الزيارة السريـة أنهما اختلفا .

ثم جاءت القمة الثانية التي تمثلت بلقاء السادات وبودغورني في القاهرة ، بعدما ضرب الرئيس المصري علي صبري وافراد مجموعته ، لتزيل شيئا من الجفاء الذي نتج من القمة السرية . وجاء عقد معاهدة الصداقة والتعاون تعبيرا عن ازالة الجفاء . لكن تبين ان المعاهدة لم يوقع عليها في ظروف صحية وطبيعية . وقع عليها وسط اجواء مـن

الشكوك السوفياتية والحذر والريبة .

واستمرت التحركات المصرية والسوفياتية توحي بان كل شيء اكثر من طبيعي الى ان حدث الانقلاب الشيوعي في السودان يوم ١٩ تموز (يوليو) ١٩٧١ . ولقد عاش السادات ساعات من الضيق لم يسبق له ان عاشها من قبل ، بسبب حدوث ذلك الانقلاب الذي كان بمثابة مأزق للسادات للاسباب الاتية :

اولا — ان الانقلاب شيوعي وهو يرفض ، لاكثر من سبب ، ان يحكم الشيوعيون السودان . وفوق ذلك ان نجاح الانقلاب الشيوعي في السودان يعيد الاعتبار الى علي صبري وافراد مجموعته .

ثانيا — ان السودان عضو في ميثاق طرابلس ، وهــو — اي السادات — مطالب بأن يحافظ على نظام الرئيس جعفر نميري مهمــا كلف الامر .

ثالثا — انه في الوقت الذي ارسل مندوبين عنه الى الخرطوم في طائرة عسكرية لاستقصاء حقيقة الوضع بدا السوفيات يلحون عليه طالبين منه الاعتراف بالنظام الجديد في السودان من دون ان يأخذوا في الاعتبار حساسياته من كون الانقلاب قام به الشيوعيون ، وواجباته كرئيس لدول ميثاق طرابلس ، والرئيس نميري هو أحــد واضعي الميثــاق .

رابعا — ان الانقلاب الشيوعي قوبل بمرارة من قبل المصريين . فماذا سيقول والذكرى التاسعة عشرة لثورة ٢٣ يوليو (تموز) علــى الابواب . هل يهاجم الانقلاب ويعلن وقوفه الى جانب النميري ؟ ام هل يتغاضى عن ذلك ، ويتجاهل حدوث هذا الانقلاب ، ام هــل يؤيــد الانقلاب ؟

انه اذا هاجم فكانما يهاجم الاتحاد السوفياتي وتلك مشكلة . واذا تغاضى فمعنى ذلك انه لا يستطيع ان يهاجــم بسبب وطــاة السوفيات عليه ، وتلك ايضا مشكلة . واذا أيد فتلك مشكلة المشاكل لان معنى ذلك انه وقع أسير موسكو ، وبذلك سيخسر شــــعبيته في مصر . وسيخسر ليبيا التي تدعمه . وسيبرهن انه ليس قادرا على قيادة اي عمل وحدوي .

تلك كانت الاسباب . ومن اجل ذلك كان السادات في غــاية الضيق. وعندما عاد المندوبان اللذان ارسلهما في مهمة استقصاء وهما احمد حمروش واحمد فؤاد وكلاهما من الماركسيين المصريين ، اتضحت امور كثيرة . تبين ان السادات كان يخطط لضرب الانقلاب الشيوعي ، وفي الوقت نفسه كان يقول للسوفيات الذين ضغطوا عليه انه يبحث في أمر النظام الجديد في السودان وسيعترف به لمجرد ان يطمئن الى انه نظام مستقر ويمكن أن يعيش . وفي كل مرة كان السوفيات يلحون عليه

في طلب الاعتراف بانقلاب هاشم العطا كان هو يرد بالكلام نفسه وكان أحيانا يختار صيغة مختلفة . وساند عملية الطلب الملح بسوريس بوناماريف سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي الـذي صادف وجوده آنذاك في القاهرة . وكان منطق بوناماريف ان النظـام الجديد في السودان يمكن ان يستقر اذا اعترف السادات به .

وحدثت المعجزة . ضرب الانقلاب الشيوعي بمساندة فعالة من السادات والقذافي . وعاد النميري ورفاقه الى الحكم . حدثت المعجزة والسوفيات ينتظرون مساندة السادات للانقلاب الشيوعي .

ولقد فاجأهم بأنه لم يكتف بالتدخل سرا لضرب الانقلاب الشيوعي في السودان وانما اعلن ذلك بصوت عال في خطابه الذي القاه لمناسبة الذكرى التاسعة عشرة للثورة وفي حضور بوناماريف . كان السادات بعدما ضرب الانقلاب الشيوعي في السودان قبل يومين من الذكـرى التاسعة عشرة في غاية السعادة وهو يعلن ان اتحاد الجمهوريـات ولد وله انياب وان اثار هذه الانياب ظهرت في السودان .

اذا ، هكذا . لم يكتف السادات برفض طلب الاتحاد السوفياتي الاعتراف بالنظام الذي عاش ٧٢ ساعة في السودان ، وانما ضربه ، واعلن امام الجميع انه ضربه .

وشعرت موسكو أمام حلفائها بحرج شديد من موقف السادات . ولكنها أرادت ان تجرب معه مرة اخرى .

عندما بدات طلائع حملة الاعدامات في السودان طلبت موسكو من السادات أن يتدخل لدى النميري لكي لا يعدم عبد الخالق محجـوب والشفيع احمد الشيخ بعد أن تم اعتقال الاثنين .

ويومها قيل ان السادات تدخل واذاعت مصر ذلـك ، لكـن السوفيات ـــ وهي في اي حال رواية ليست مؤكدة ـــ قالوا للسادات في ما بعد انهم يملكون أشرطة عليها المكالمات الهاتفية التي تمت بينه وبين النميري وانهم صدموا لانه ـــ اي السادات ـــ لم يتدخل لانقاذ الشفيع ومحجوب ، وانما ابلغ النميري أنهم ـــ اي السوفيات ـــ يلحون عليه في طلب التوسط لمنع اعدام الرجلين ، وان النميري حيال ذلـك استعجل عملية تنفيذ الاعدام .

لقد احرج الاتحاد السوفياتي امام حلفائه بسبب موقف السادات من احداث السودان . وحيال ذلك وجد قادة الكرملين ان من الضروري الرد في شكل او في اخر على السادات .

وفجاة عقدت في القرم يوم الاثنين ٢ آب (اغسطس) ١٩٧١ قمة شيوعية دولية حضرها بريجنيف وباقي زعماء الاحزاب الشيوعية الحاكمة في المعسكر الاشتراكي واصدرت بيانا جـاء فيـه : « ... واعرب المشتركون في لقاء القرم عن القلق الجدي في صـدد الارهاب القاسي

المسلط على الحزب الشيوعي وغيره من المنظمات الديموقـراطية في السودان . وهم يدينون بحزم التعسف والطغيان اللذين تقوم بهمـا السلطات السودانية وهو الامر الذي تستغله قوى الامبريالية والرجعية ضد مصالح الشعب السوداني » . وفي الوقت نفسه كانت وكالـة « تاس » السوفياتية ترسل من القاهرة خلاصة بيان أصدره المجلس التنفيذي للاتحاد العام لعمال مصر في الاول من آب (اغسطس) وجاء فيه : « ان المجلس التنفيذي وقد هزته الاحداث الدموية التي تجري في السودان الشقيق وما ترتب عليها من اعتقال القادة النقابيين يطالب بالحاح بتوفير كل الضمانات القضائية في معاملة المعتقلين ومحاكمتهم » .

ولولا قمة القرم التي اعتبرها السادات موجهة اليه قبل ان تكون موجهة الى النميري لما كان طلب من اذاعة القاهرة ان تقطع برامجهـا العادية ـ بعد قليل من صدور بيان قمة القرم ـ وتكرر تأييده لنظـام النميري ومعارضة مصر « لاي شكل من اشكال التدخل في الشـؤون الداخلية للسودان الشقيق » .

كذلك بثت الاذاعة ان السادات امر باجراء تحقيق فوري فـي ما « نسبه بعض الوكالات الاجنبية » : عن صـدور قرار عن المجلـس التنفيذي للاتحاد العام لعمال مصر . والمقصود هنا « تاس » التي لم تفعل سوى انها لخصت بيانا وزعته قبلها «وكالة انباء الشرق الاوسط» المصرية الرسمية . ومعنى ذلك ان السادات ربما كان لن يهتم ببيـان المجلس التنفيذي وحتى باشارة « تاس » اليه لولا ان الاتحاد السوفياتي استنفر زعماء دول حلف فرصوفيا ليهاجم موقف مصر من خلال مهاجمة النميري .

وفوق ذلك : وبعد ساعات من صدور بيان قمة القـرم ورد السادات عليها : فرضت الاقامة الجبرية على خـالد محيي الديـن (الماركسي العريق) واعتقل الدكتور ابرهيم سعد الدين احد ابـرز الماركسيين المصريين بحجة انهما وراء اصدار بيان المجلس التنفيذي . كذلك شددت الرقابة على معظم الماركسيين المصريين مخافة ان تكون هنالك تحركات تتجاوز اصدار البيانات .

ان احداث السودان عمقت هوة الخلافات بين السادات والزعماء السوفيات . وبسبب هذه الاحداث وقعت قطيعة بين القيادتين المصرية والسوفياتية استمرت حتى الزيارة الثانية العلنية التي قام بها السادات لموسكو من بعد ظهر الاثنين ١١ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧١ الـى الرابعة بعد ظهر الاربعاء ١٣ منه .

كانت هذه الزيارة مهمة لان السادات اعاد فيها النظر في موقفه من الشيوعية وهذا الامر ارتاح اليه زعماء الكرملين .

ومنذ وصول السادات الى موسكو تمت عملية تطويـق ودية

ومتميزة له . وعلى سبيل المثال فانه بعد انتهاء مادبة الغداء التي اقامها زعماء الكرملين تكريما له في القاعــة الاسطورية في القصر الكبــير في الكرملين واستعد الجميع للانصراف استعدادا للجولــة الثانيــة من المحادثات. اوقف بريجنيف رفاقه من قادة ومسؤولين حكوميين وحزبيين، وضيوفه الكبار وعلى راسهم السادات في البهو المواجه لقاعة الطعام وتبادل معهم العناق والقبلات . ثم وضع يده في يد السادات واشار الى الفريق اول محمد احمد صادق والماريشال اندريه غريشكو بان ينضما اليهما . وخرج الاربعة في خطوات عسكرية منتظمة وايديهم متشابكــة وبريجنيف يقول بصوت مسموع : « وهذه هي الجبهــة المعــادية للامبريالية » .

وفي مادبة اخرى في خلال الزيارة وقف بريجنيف وقال : فلنشرب نخب الفريق اول محمد احمد صادق . ورد السادات : فلنشرب نخب تحرير الارض . وعاد بريجنيف ليقول : صحيح فلنشرب نخب التحرير .

وقد سبق الجولة الاولى من المحادثات عتاب ولوم تبادله الطرفان. قال السوفيات ان موقف مصر من احداث السودان يتعارض وروحية معاهدة الصداقة والتعاون . وقال السادات ان العلاقات لن تنمو ما دام احدنا لن يفهم ظروف الاخر وواقعه .

وحرص السوفيات على ان يطمئنوا السادات قدر الامكان خصوصا ان محادثاتهم معه هذه المرة هي الاولى التي تجري على أرضية المعاهدة. وما دامت الاولى فان عملية الاختبار يجب ان يكتب لها النجاح والا فلن ينجح شيء بعد ذلك .

ولم يحدث من قبل ان تغاضى المسؤولون السوفيات والمصريون عن الشكليات الرسمية في لقاء على أعلى مستوى كما فعلوا في خلال هذه الزيارة . ولعله لم يحدث من قبل ان وضع السوفيات برنامجــا رسميا لزيارة رئيس دولة ثم حدثت فيه كل التعديلات التي حدثت في برنامج زيارة السادات . وعلى سبيــل المثال فانه كان مقررا ان يضع السادات اكليلا من الزهر على ضريح لينين وعلى قبر الجندي المجهول في الاولى بعد ظهر اليوم الثاني للزيارة ، لكن ذلك تأجل الى الخامسة بسبب المحادثات . وكان مقررا ان يشاهد السادات مساء اليوم نفسه حفلة فنية في « البولشوي » ، وهذا ايضا الغي . كذلك الغيت مأدبة غداء كان مقررا ان يقيمها السادات في اليوم الاخير للزيارة ، واستبدل الغداء الرسمي بغداء عمل ، بعد أن كانت الدعــوات وجهت الــى الشخصيات التي تدعى عادة الى مثل هذه المآدب الرسمية .

ما الذي حققته الزيارة ؟

الواقع انها ازالت الكثير من الفتور والتصدع والشكوك التــي تراكمت . وزادها تراكما موقف السادات من احداث السودان . والى

ذلك انها اتاحت المجال امام العمل المشترك المبني على حد أدنى من الثقة . وقبل ان يغادر السادات موسكو عائدا الى القاهرة قال المسؤولون السوفيات ان السادات راض وعندما يرضى يصبح الاتحاد السوفياتي راضيا .

واذا كانت زيارة السادات ازالت الجفاء الذي ساد العلاقات المصرية ـ السوفياتية بضعة اشهر فانها تسببت في فتور في العلاقات المصرية ـ السودانية ، ذلك بأن البيان المشترك تضمن ـ للمرة الاولى في البيانات المشتركة المصرية ـ السوفياتية ـ فقرة تستنكر العداء للشيوعية . وهذه الفقرة اعتبرها السودان موجهة ضده .

كذلك فانه للمرة الاولى في البيانات المشتركة المصرية ـ السوفياتية ، صدر بيان يتضمن نصا صريحا ان مصر وهي تسعى لتحقيق بناء حياة جديدة على الاسس الاشتراكية ستعمل على الاستفادة من التجارب الغنية التي مر بها الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية الاخرى .

لماذا استنكر السادات العداء للشيوعية متحملا سلفا نتائج هذا الكلام الذي سيثير شريكه في اتحاد الجمهوريات العربية العقيد القذافي، والحكام العرب الذين وسع رقعة المهادنة معهم وتجاوبوا معه على أساس انه مثلهم ضد الشيوعية ، والقطاعات العربية من الشعب المصري التي ارتاحت لانه متدين ومسلم وضد الشيوعية ؟

الجواب عن ذلك ان العلاقات المصرية ـ السوفياتية اصبحت في اشد الحاجة الى اجواء من الثقة المتبادلة ، ولقد شعر بأن مثل هذا الكلام ، بل مثل هذا الموقف ، من شأنه ان يزيل رواسب الاشهر الماضية . وفوق ذلك ان مثل هذا الموقف يصدر عنه من شأنه ان يجعل السوفيات يتجاوبون مع طلباته ويمدون مصر بالسلاح الذي تريده .

وانتظر السادات طويلا ليقطف ثمار زيارته الثانية (العلنية) لموسكو والمواقف غير المقتنع بها التي سجلها هناك أمام زعماء الكرملين وفي البيان المشترك . لكن السوفيات ، على حد قوله بعد ذلك ، كانوا يعدون ولا يفون بوعودهم .

الى ان كانت الزيارة الثالثة التي تمت في اعقاب احداث داخلية في منتهى الخطورة تمثلت في انتفاضة طلاب الجامعات التي جاءت ردا على « خطاب الضباب » .

كان هذا الخطاب بمثابة « حديث الى الامة » وجهه السادات في السابعة مساء الخميس ١٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٢ بعدما انتهت

سنة ١٩٧١ في سلام ولم ينفذ السادات وعده بأنها ستكون سنة الحسم سلما او حربا . وفي « خطاب الضباب » قال السادات مبررا عدم تنفيذ وعده : « في ٩ يوليو (تموز) ١٩٦٧ تحرك لواء اسرائيلي مدرع لعبور قناة السويس وقررت القيادة المصرية التصدي له . وظلت القاذفات المصرية في الجو ساعتين والضباب يخيم على المنطقة كلها . وعندما اتصلت القيادة بالرئيس عبد الناصر لتبلغه الموقف الغى الرئيس القرار لانه راى ان اللواء كان لتعزيز موقف الاسرائيليين ، لكن القيادة كانت متخوفة من عملية عبور .

« وفي الايام الاخيرة من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧١ واجهت مثل هذا الموقف تماما . ففي اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧١ دعيت المجلس الاعلى للقوات المسلحة. وبعد تدارس الموقف سياسيا وعسكريا تم التوصل الى قرار بالعمل (أي بالمعركة) قبل انتهاء ١٩٧١ . ومضى اكتوبر وكل شيء يسير حسب الخطة تماما . وفي الايام الاولى من ديسمبر (كانون الاول) والقوات المصرية منتظرة الاشارة او البدء ، حصل الضباب اذ نشبت معركة بين دولتين صديقتين هما الهند وباكستان . وقد شدت هذه المعركة انتباه العالم كله واصبحت معركة بين القوى الكبرى . ولا بد لنا ونحن نواجه معركة مصر الا نتجاهل ميزان القوى عند دخول المعركة . لذلك أصدرت في اللحظة الاخيرة قراري الى الفريق اول صادق وقلت له : استنى ، لا بد من اعادة الحساب لان معركتنا ليست منفصلة عن التوازن العالمي بين القوى الكبرى والاحداث التي تجري حولنا . وانا غير مستعد لتوريط البلد والقوات المسلحة في عملية غير محسوبة ، وغير مستعدين ان نتورط في ما يجب الا نتورط فيه . ان المسالة مسالة شعبي وقواتي المسلحة ومستقبلنا كأمة عربية » .

واذكر في المناسبة انني في الايام الاخيرة من كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧١ كنت في القاهرة محاولاً استقصاء الموقف المصري ما دامت سنة الحسم قاربت على الانتهاء . وبعد اسبوع من الاستقصاء نشرت في « النهار » بتاريخ الجمعة ٣١ كانون الاول (ديسمبر) ان السادات قرر الحرب في تشرين الثاني (نوفمبر) ثم أجلها الى احد ايام كانون الاول (ديسمبر) لان السلاح الهجومي ذهب الى الهند بدلا من مصر ، ويومها كتبت ايضا ان الجبهة الداخلية ليست في مستوى الجبهة العسكرية .

وبسبب ما كتبته تعرضت لعتاب من بعض الاصدقاء المسؤولين في مصر ، وحجتهم في عتابهم ان ما كتبته كان اقرب الى الخيال منه الى الحقيقة .

وكان ردي عليهم ان المستقبل ربما كشف هذه الحقيقة . وبعدما وجه السادات حديثه الى الامة الذي اصطلح كثيرون على تسميته

« خطاب الضباب » شعرت بالراحة لان ما كتبته كان حقيقة وليس خيـالا .

لقد شعر المصريون بخيبة أمل قاتلة وهم يستمعون الى « خطاب الضباب » . وكان اكثر الذين شعروا بخيبة الأمل هذه طلاب الجامعات الذين ما ان قرر السادات ان يكلف الدكتور عزيز صدقي تأليف حكومة جديدة ـ بدلا من حكومة الدكتور محمود فوزي التي كانت اعطيت ثقة كاملة قبل فترة ـ توضع على عاتقها « مسؤوليـة الاعداد الداخلي للمواجهة الشاملة » ، حتى بدأ التململ في صفوفهم . ثم أصبح التململ تحركا خطيرا واعتصامات واعتقالات وتظاهرات ومطالب دقيقة منهـا ضرورة تحديد الموقف السوفياتي ، هل يسـاعد أم لا يساعد . ومنها الجواب عن السبب الذي جعل السادات يقول انه كـان سيحارب والجبهة الداخلية لم تكن مستعدة .

وحيال هذا الوضع المعقد اعلن السادات امام مؤتمر شاركت فيه كل المؤسسات السياسية والنقابية وعقد الثلثاء ٢٥ كانون الثـاني (يناير) ١٩٧٢ انه يقدر جو التمزق الذي يعيشه الطلبة ، وانه سيعطي المزيد من الديموقراطية وشرطه الوحيد ان تحافظ الحركة الطلابية على نقائها ، وان قرار المعركة اتخذ ولا رجعة عنه . و . . . انه سوف يسافر الى موسكو لاجراء اتصالات مع الزعماء السوفيات .

وقبل ان يسافر بأيام تشاور مع القذافي الذي جاء الى مصر وقام معه بجولة على الجبهة الجنوبية (أسوان) . وتحدث الـى الضباط والجنود .

وفي احاديثه وضع المقاتلين امام بعض الحقائق ، وقـال ان السوفيات كانوا متضايقين لانه اعلن ان عام ١٩٧١ سيكون عام الحسم . وبلغ ضيقهم حد سؤاله عن سبب اعلانه هذا .

وطبيعي ان السوفيات تضايقوا لانهم شعروا ، في هذا التحديد من جانب السادات ، بنوع من الاحراج لهم . ذلك ان تحديدات من هذا النوع يجب ان تكون متفاهما عليها . ومجرد استفسار السوفيات كان معناه ان السادات حدد من جانب واحد ان عام ١٩٧١ هو عام الحسم . وفي حين ان السادات لم يكن ، حتى بعد عودته مـن زيارته الثانية لموسكو ، يترك مناسبة الا يجدد فيها تحذيره ان عام ١٩٧١ سيكون عام الحسم ، تجاهل السوفيات تماما هذا التحديد موحين بذلك بأنه مجرد كلام قاله السادات وليس موقفا مصريا ـ سوفياتيا مشتركا ومتفاهما عليـه .

وكما ان السادات حدد من جانبه موقفا في منتهى الخطورة قبل أن يقوم بزيارته الثانية لموسكو في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧١ فانه بدأ زيارته الثالثة لموسكو وقد حدد ، ومن جانبه ايضا ، موقفا اعتبر قياسا

اكثر احراجا من الموقف الاول . ذلك بان تحديد العام ١٩٧١ بانه عام الحسم ، الذي ضايق السوفيات ، هو أقل احراجا من وعده للضباط والجنود الذين التقاهم في الجبهة الجنوبية (أسوان) عشية سفره الى موسكو ، بأنه سيحدد ساعة الصفر لبدء المعركة بعد عودته من موسكو . وهذا الوعد من جانبه اوحى سلفا بانه اذا عاد ولم يحدد ساعة الهجوم فان المسؤولية تقع على الحليف ... على الاتحاد السوفياتي .

ولقد توجه السادات الى موسكو يوم الاربعاء ٢ شباط (فبراير) ١٩٧٢ ليعود بقرار وليس ليعرض على السوفيات ما يحتاج اليه من سلاح جديد . ولو كان الامر كذلك لكان اصطحب معه عددا من العسكريين او على الاقل وزير الحربية الفريق اول محمد احمد صادق . الا ان موضوع السلاح متفق عليه ولا يبقى الا ان ترسله موسكو الى مصر . بعدما تأجل ارساله بسبب الحرب الهندية ـ الباكستانية، وتلك كانت الحجة السوفياتية في بادىء الامر .

وكان واضحا انذاك انه اذا وصل السلاح بعد انتهاء الزيارة او في خلالها يكون معنى ذلك ان موسكو بدلت كثيرا موقفها . اما اذا لم يرسل فقد يكون السبب ان السوفيات تضايقوا لان السادات اعلن عشية وصوله الى موسكو انه سيحدد ساعة الصفر لبدء المعركة بعد عودته الى بلاده .

وكان الرأي العام المصري يرى انذاك انه اذا لم تلب طلبات السادات في هذه الزيارة فان على السادات ان يطلق بنفسه الرصاصة الاولى ايذانا ببدء المعركة متقبلا النتائج ايا كانت ، لان السوفيات في ضوء ذلك لن يستطيعوا استيضاحه ولن يكون لديهم الوقت لابداء الضيق .

كان بريجنيف وكوسيغين في مقدمة مستقبلي السادات يوم وصوله الى موسكو يوم الاربعاء ٢ شباط (فبراير) ليبدأ زيارته الثالثة (الثانية علنا) . ولقد ترك مصر حزينة غاضبة متسائلة قلقة .

وعلى غير عادة منعت سلطات الامن السوفياتية المراسلين والمصورين الغربيين من الدخول الى قاعة الشرف لتغطية وصول الرئيس المصري .

ويوم وصوله كانت الصحف السوفياتية تنشر فقرات من تصريحاته امام الضباط والجنود في أسوان . وركزت هذه الصحف على ان السادات قال : « ان قرار بدء الكفاح المسلح اتخذ فعلا وليس هنالك من سبيل اخر . ان المعركة امامنا » .

وكان مثل هذا الكلام حذف من الانباء الصحافية الموجزة عن جولة السادات على الوحدات العسكرية المرابطة على قناة السويس في اليومين الثاني والثالث من أيام عيد الاضحى (اي ٢٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٢ و٢٨ منه) .

الا ان الصحف السوفياتية التي نشرت ، يوم وصول السادات الى موسكو ، فقرات من تصريحاته زادت فقرة شرطية هي « لكن الرئيس السادات شدد على القول ان هنالك فارقا بين اتخاذ قرار القتال وبدء القتال . ومن الضروري ربط بدء القتال بتقييم كل العوامل للتأكد من النصر » .

كذلك تضمن تعليق لصحيفة « البرافدا » الناطقة باسم الحزب الشيوعي السوفياتي ما اعتبر انه لفت هادىء للرئيس السادات ، اذ اكد هذا التعليق تقيد الاتحاد السوفياتي بقرار مجلس الامن المؤرخ ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ على أساس انه الوسيلة الوحيدة لتسوية ازمة الشرق الاوسط .

وفضلا عن هذا بذل المعلقون في التعليقات التي نشرت في الصحف الرئيسية في الايام القليلة التي سبقت وصول السادات الى موسكو ، جهدا بالغاً للتشديد على المساعدة الاقتصادية السلمية السوفياتية لمصر . ونشرت صحيفة « الازفستيا » الناطقة باسم الحكومة يوم وصول السادات مقالا عن الاسكندرية وعن المساعدات السوفياتية بعنوان « طيور البحر فوق الميناء » .

واعتبر هذا المقال وغيره تلميحا لطيفا الى رغبة موسكو في ازالة اي انطباع بأن زيارة السادات حاسمة .

كانت التعليقات المنشورة في الصحف السوفياتية مثار دهشة بالنسبة الى السادات . لقد ترك مصر واعدا بانه سيحدد ساعة الصفر لبدء المعركة بعد عودته من موسكو ، فاذا به يفاجأ باستقبال من جانب الصحف السوفياتية له معناه . هل هذا استقبال لرئيس صديق جاء الى موسكو ليعود مطمئنا الى اتخاذه القرار لبدء المعركة .

كان الاستقبال سلميا لرجل جاء في مهمة حربية . وظن في بادىء الامر ان الكرملين يتعمد ذلك حتى لا تستغل الدوائر المعادية اي مواقف متشددة . ثم فوجىء بمساعديه يعرضون عليه خلاصة تعليق حول زيارته نشرته صحيفة بولونية تدعى « زايس فارزافي » .

ولقد وجد السادات ان هذا التعليق يعبر كثيرا عن المكاره . وحتى عن طلباته . لكن لماذا لا تقول الصحف السوفياتية مثل هذا الكلام . ان بولونيا هي احدى دول حلف فرصوفيا . فهل يتبنى الاتحاد السوفياتي ، الدولة الاولى في هذا الحلف ، كلام الصحيفة البولونية ؟

كان السادات يطرح التساؤل تلو التساؤل بعدما اطلع على

التعليق البولوني قبل ان يبدأ محادثاته مع زعماء الكرملين .

لنلق نظرة على التعليق قبل ان ننتقل الى المحادثات وما دار فيها وماذا حققت الزيارة . جاء في التعليق : « ان المساعدة السوفياتية لمصر دعمت من طاقاتها الدفاعية ، الا ان هذه المساعدة ليست كافية اذا لم تقرن باعطاء مصر الاسلحة الهجومية اللازمة التي تمكنها من الوقوف على قدم المساواة مع الاسلحة الاسرائيلية . والمساعدة السوفياتية العسكرية لمصر من دون اسلحة هجومية معناها ان مصر مستعدة للدفاع عن نفسها لكنها ليست مستعدة بما فيه الكفاية لخوض الحرب » .

كذلك تجدر الاشارة الى امرين حدثا يوم بدأ السادات زيارته ، قبل أن نتطرق الى طبيعة المحادثات التي أجراها . الامر الاول هو ان الحكومة الاسرائيلية عقدت اجتماعا طارئا وافقت في خلاله على الاشتراك في محادثات في نيويورك ترعاها الولايات المتحدة للبحث في اعادة فتح قناة السويس . وقد رحبت واشنطن ولندن بالقرار الاسرائيلي . اما مصر فاعتبرته مجرد مناورة الهدف منها قطع الطريق على أي تصلب قد يبديه زعماء الكرملين واي مساعدات عسكرية اساسية قد يوافقون على تقديمها الى الرئيس المصري الذي ذهب واعدا بتحديد ساعة الصفر لبدء المعركة بعد عودته .

أما الامر الثاني هو أن مجلس الوزراء المصري عقد اجتماعا استغرق ست ساعات متواصلة اصدر بعد انتهائه مجموعة من القرارات في ضوء اسلوب تعبئة موارد الدولة وامكاناتها في مختلف الميادين للمعركة والمواجهة الشاملة .

وكان واضحا ان الهدف من هذه القرارات هو دعم مهمة السادات الحربية في موسكو في الدرجة الاولى .

الجولة الاولى من المحادثات بين السادات وزعماء الكرملين بدأت صباح الخميس ٣ شباط (فبراير) ١٩٧٢ . كان الوفد المصري مدنيا صرفا : السادات ومعه مستشاره لشؤون الامن القومي حافظ أسماعيل ووزير الخارجية الدكتور مراد غالب والسفير في موسكو يحيى عبد القادر . اما الوفد السوفياتي فكان اشمل وتم تطعيمه بعسكري هو وزير الدفاع الماريشال اندريه غريشكو . اما باقي اعضاء الوفد فكانوا بريجنيف وكوسيغين واندريه كريلينكو عضو المكتب السياسي وسكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي وبوريس بوناماريف سكرتير اللجنة المركزية واندريه غروميكو وزير الخارجية وفلاديمير فينوغرادوف السفير السوفياتي في القاهرة وعضو مجلس وزارة الخارجية للاتحاد السوفياتي وم. شينكو مدير ادارة الشرق الاوسط في وزارة الخارجية.

تناول الجانبان « غداء عمل » والغي برنامج كان معدا للسادات

بعد ظهر الخميس . ولم تلق خطب وتشرب أنخاب . واستأنف الجانبان المحادثات التي اختتمت قبل ظهر الجمعة ٤ شباط (فبراير) باجتماع خاص مغلق بين السادات وبريجنيف استغرق ساعتين وحضره مترجم فقط .

ثم اقام كوسيغين مأدبة غداء تكريما للسادات تبادلا في خلالها كلمتين لم تذاعا ، وتولت « وكالة انباء الشرق الاوسط » المصرية الرسمية توزيع تلخيص قصير لهما . وفي كلمته اكد كوسيغين « التفهم المشترك في كل المواضيع والمجالات التي عرضت في خلال المحادثات » أما السادات فرد شاكراً مشيدا بروح الصداقة والتفهم المتبادلين التي تجلت في خلال المحادثات .

لقد قام السادات بزيارة موسكو واعدا بأنه سيحدد ساعة الصفر لبدء المعركة بعد عودته الى القاهرة . لكنه عاد حزينا . فالسوفيات لم يتجاوبوا معه لان رأيهم هو ان يستمر النضال من اجل تنفيذ قرار مجلس الامن وان يستأنف يارينغ مهمته. وهما ابرز نقطتين تضمنهما البيان المشترك الذي صدر في أعقاب الزيارة .

لكن السادات ، برغم هذا الحزن ، لم ينس قبل ان يغادر موسكو الى بلغراد ثم الى دمشق وبنغازي ، ان يرسل باقة ورد الى الفنانة فريدة فهمي التي كانت انذاك تعالج في مستشفى جراحة العظام في ضواحي موسكو ، ثم يوفد الامين العام المساعد لرئاسة الجمهورية الذي رافقه في زيارته ، الى المستشفى لابلاغ الفنانة تمنيات الرئيس لها بالشفاء العاجل .

لقد استقبل السادات يوم وصوله الى موسكو ، من جانب صحفها ، استقبالا اوحى بأن الاتحاد السوفياتي لا يشارك السادات رأيه في ان تبدأ المعركة .

وبعدما غادر السادات موسكو نشطت هذه الصحف لتقول ان الزيارة نجحت . صحيح انها – في نظر تلك الصحف – نجحت لان المنطق السوفياتي هو الذي رجحت كفته وليس منطق الرئيس المصري .

وصادف انه يوم مغادرة السادات موسكو غادر وزير الدفاع الاسرائيلي دايان تل ابيب الى واشنطن للتشاور مع المسؤولين الاميركيين في التطورات في ضوء زيارة السادات لموسكو . وقبل سفره اعرب عن أمله في أن تكون سنة ١٩٧٢ سنة مفاوضات . ولقد طمأنه الاميركيون بما فيه الكفاية . وتدليلا على ذلك فان وزير الخارجية الاميركية وليم روجرز سئل بعد مرور يومين على انتهاء زيارة السادات لموسكو عن رأيه في البيان المشترك الذي صدر عن محادثات الرئيس

المصري والزعماء السوفيات فقال « ان البيان صيغ بعبارات غير عدائية وهذا يعني في نظري ان الكرملين يتبنى وجهة النظر العامة نفسها التي تتبناها الولايات المتحدة في ما يتعلق بالنزاع العربي ـ الاسرائيلي ، اي منع استئناف الاشتباكات بأي ثمن » .

وثمة أمر لافت هو أن محمد حسنين هيكل الذي قاد الحملة التي اوصلت الى اخراج الوجود العسكري السوفياتي في مصر كتب يوم انتهاء زيارة السادات لموسكو ، الجمعة ٤ شباط (فبراير) ١٩٧٢ ، مقالا جاء فيه :

« اريد ان اقول بوضوح اننا يجب ان نتحصن ضد اي محاولة للتشكيك في موقف الاتحاد السوفياتي دون ان نكون في ذلك صادرين عن عاطفة من اي نوع او عن مجاملة مهما كانت اسبابها .

« منطلقا ، وعقلا ، فان الثقة بين الاتحاد السوفياتي وبيننا يجب ان تكون كاملة وللاسباب الموضوعية الاتية :

١ ـ ان الاتحاد السوفياتي يقف معنا سياسيا مئة في المئة ، وهذه قوة مساندة ضخمة ، خصوصا في عصر بروز القوى الأعظم .

٢ ـ اذا فرضنا ان الاتحاد السوفياتي لا يقف معنا عسكريا بنسبة مئة في المئة كما يتصور البعض ، فان اي نسبة يقدمها لنا ـ حتى وان كانت أقل من المئة في المئة عسكريا ـ تبقى باستمرار ، ومهما كانت الظروف ، اضافة جديدة لقوتنا تواجه السيل المتدفق من اميركا على اسرائيل .

٣ ـ الاتحاد السوفياتي لا يقيم حصارا علينا يمنعنا من الاستزادة من اسباب القوة اذا احسسنا بالحاجة اليها . ومن ذلك مثلا ان ليبيا الثورة حصلت على صفقة من طائرات الميراج الفرنسية . واذكر انني بنفسي كنت حامل رسالة عبد الناصر الى القذافي في اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٦٩ يزكي اقتراحه ـ اقتراح القذافي ـ بأن يشتري الميراج من فرنسا او الفانتوم من اميركا اذا استطاع ... وقد حدث وحصل القذافي على صفقة ميراج .

٤ ـ ان الاتحاد السوفياتي يرتبط معنا بمصلحة اكيدة في انهاء بقايا النظام الاستعماري في المنطقة واكاد اقطع بأن امداده لنا بما نريد سوف يتحقق مع قيامنا بتحريك الازمة بالقدرة الضرورية خطوة بعد خطوة » .

وبالاضافة الى مقال هيكل قالت « الاهرام » في عددها الصادر في ٨ شباط (فبراير) ١٩٧٢ ان رحلة السادات الى موسكو حققت نتائج ضخمة .

كان على السادات بعدما عاد الى القاهرة من رحلته التي بدأت بموسكو وانتهت ببنغازي مزورا ببلغراد ودمشق ان يقول هو شخصيا

ما الذي حققته منها ، وما اذا كان بالفعل حقق نتائج ضخمة كما قرأ الناس في « الاهرام » .

لقد توجه الى موسكو واعدا بانه سيحدد ساعة الصفر لبدء المعركة بعد أن يعود . وما تضمنه البيان المشترك يشير بكثير من الوضوح الى ان الزعماء السوفيات يريدون المزيد من النضال من اجل الحل السلمي ويريدون ان يستأنف الوسيط الدولي الدكتور غونار يارينغ مساعيه .

كان على السادات ان يقول . ان يتكلم . ان يفعل شيئا . ذلك بأن كل مصري كان يقول في قرارة نفسه : ماذا فعلت في موسكو يا ريس ؟ كان المصريون يكثرون من التساؤلات فيما قرارات الحكومة لتعبئة كل الموارد والطاقات لتوفير متطلبات المعركة واحتياجات القوات المسلحة وضعت في قيد التنفيذ .

ماذا يفعل الريس ؟

قرر أن يدعو المؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي العربي الى دورة خاصة . لم يتشاور مع احد في ذلك . الوحيد الذي عرف برغبة السادات كان مستشاره لشؤون الامن القومي حافظ اسماعيل ، الذي اخبر بدوره الدكتور حسن صبري الخولي الممثل الشخصي لرئيس الجمهورية .

وصباح الخميس ١٠ شباط (فبراير) صدرت « الاهرام » وفيها ان السادات سيوجه في خلال ساعات الدعوة الى عقد دورة خاصة للمؤتمر القومي . وفي المساء أعلن رسميا ان المؤتمر سينعقد من الاربعاء ١٦ شباط (فبراير) الى الجمعة ١٨ منه .

لماذا لم يتشاور السادات مع أحد في أمر عقد هذه الدورة الطارئة، وعلى الاقل مع رئيس الوزراء والامين الاول للاتحاد الاشتراكي وغيرهما ؟

من الواضح انه اراد اضفاء صبغة على هذه الدعوة تتميز بالاثارة . وبدأ يعد لما سيقوله في المؤتمر عن رحلته وكيف سيجيب عن التساؤلات الكثيرة المطروحة بين الجماهير .

في هذه الاثناء كان صدام حسين نائب امين سر القيادة القطرية لحزب البعث في العراق ونائب رئيس مجلس قيادة الثورة قد بدأ زيارة رسمية لموسكو . وفي مادبة غداء اقامها كوسيغين تكريما له يوم الجمعة ١١ شباط (فبراير) ١٩٧٢ قال رئيس الوزراء السوفياتي : « أن قضية الشعوب العربية قضية عادلة وستنتصر ، وان الحزب الشيوعي السوفياتي والحكومة السوفياتية يؤيدان بحزم ازالة اثار العدوان الاسرائيلي واقامة سلم عادل في الشرق الاوسط . وستكون للمحادثات التي جرت اخيرا في موسكو مع انور السادات رئيس جمهورية مصر

العربية أهمية كبرى لتحقيق هذه الاهداف . ان الاتحاد السوفياتي يقدم للاصدقاء العرب دعما سياسيا واقتصاديا شاملا ، ومساعدة فعالة لتوطيد قدرتها الدفاعية ولتتمكن من مجابهة المؤآمرات الامبريالية في الشرق الاوسط بالردع اللازم » .

قالت « الاهرام » ان زيارة السادات حققت نتائج ضخمة . وقال كوسيغين امام صدام حسين ان زيارة السادات ذات اهمية كبرى لتحقيق السلام العادل . وفي اليوم التالي من قول كوسيغين ذلك نشرت « البرافدا » تعليقا اهتمت به الدوائر المصرية وجاء فيه « ان المعتدين الاسرائيليين وحماتهم الذين رفضوا الامتثال لقرار مجلس الامن لا بد ان يدركوا انهم لن يستطيعوا اطالة ازمة الشرق الاوسط الى ما لا نهاية ، تماما مثلما لم يستطيعوا على مدى اربع سنوات فرض شروط سلام مقيدة على العرب وارغامهم على تنازلات اقليمية » .

واضاف التعليق الذي وقع عليه « مراقب » وهو التوقيع الذي يدل دائما على ان كاتبه من كبار المسؤولين « ان صراعا خطيرا جدا قد ينفجر في الشرق الاوسط في اي لحظة لان الموقف لا يزال ينذر بالانفجار برغم وقف اطلاق النار منذ آب (اغسطس) ١٩٧٠ » :

ودعمت موسكو هذه اللهجة باعلانها ان وزير الدفاع السوفياتي الماريشال غريشكو سيزور القاهرة في النصف الثاني من شباط (فبراير) .

كل مصري كان ينتظر . كان لا يزال يعيش ذيول انتفاضة طلاب الجامعات ، لكنه كان في كل لحظة يتذكر ان السادات وعد ، قبل ان يسافر الى موسكو ، بأنه سيحدد ساعة الصفر لبدء المعركة بعد ان يعود . ولقد عاد ، وكل يوم يتزايد الكلام خارج مصر عن احتمالات لتحقيق التسوية .

واستمرت التساؤلات ، تساؤلا بعد اخر الى حين انعقد المؤتمر، لتبدأ بعده تساؤلات من نوع جديد . قبل انعقاد المؤتمر حدثت بعض المظاهر التي توحي بالاستعداد للمعركة . من هذه المظاهر ان السادات اصدر قرارا بتعيين قادة اسلحة الجيش الثلاثة (اللواء علي بغدادي قائد القوات الجوية واللواء محمود فهمي عبد الرحمن قائد القوات البحرية واللواء محمد علي فهمي قائد قوات الدفاع الجوي) نوابا لوزير الحربية على ان يحتفظ كل منهم بالمنصب الذي يشغله . واوحى هذا القرار بأن السادات يريد ، من أجل سرعة التحرك في حال نشوب المعركة ، ان يكون قادة الاسلحة قادرين على اتخاذ القرارات المناسبة . (ملاحظة : بعد فترة عين السادات اللواء حسني مبارك قائدا للقوات

الجوية خلفا للواء علي بغدادي) .

ومن المظاهر أيضا ان أكبر تجربة للدفاع المدني من اجل مواجهة اخطار الغارات الجوية جرت الاحد ٣ شباط (فبراير) واشترك فيها ٨ الاف متطوع من أصل ٣٠٠ الف تم تدريبهم على اعمال الدفاع المدني .

بدأ المؤتمر القومي دورته الخاصة والمصريون غارقون في التساؤلات . استمعوا الى خطاب السادات فاذا به يطالبهم بـ « الصبر والصمت» . لكنه شعر بأن اعضاء المؤتمر يريدون المزيد من التفاصيل والايضاحات . ان هنالك امورا كثيرة تحتاج الى تفسير .

وحيال هذا الجو قرر السادات ان يجيب بأكبر قدر ممكن من الصراحة عن أسئلة الاعضاء .

وسأحاول هنا تسجيل بعض اجوبة السادات عن اسئلة الاعضاء ، مركزا على الاجوبة التي تحمل في طياتها مواقف ذات معنى .

قال السادات : ان هنالك كثيرين يسألون : هل قرارنا دخول المعركة يتوقف على اذن مسبق من الاتحاد السوفياتي . والواقع ان هذا السؤال واسئلة غيره كثيرة انتشرت منذ ١٥ مايو (أيار) ١٩٧١ واعتقد ان الهدف منها هو التشكيك في علاقاتنا مع الاتحاد السوفياتي . ومع ذلك فانني اقول في وضوح كامل ان القرار قرارنا .

وسأل احد الاعضاء : هل يضع الاتحاد السوفياتي بعض الشروط لمساعدة مصر والدول العربية على ازالة اثار العدوان ، وهل له قواعد في الموانىء المصرية ؟

أجاب السادات : « أخشى ان يكون مبعث هذه الاسئلة حملات التشكيك المستمرة والتي تهدف في النهاية الى تقويض علاقاتنا بالاتحاد السوفياتي حتى نبقى وحدنا ومن ثم يسهل عزلنا والقضاء علينا . لقد اثيرت أيضا أسئلة مشابهة من بينها ، على سبيل المثال ، ان الاتحاد السوفياتي لا يريد سوى حالة اللاسلم واللاحرب في ازمة الشرق الاوسط لان ذلك يساعده على الكسب وعلى استمرار بقائه في المنطقة . ربما تتعرض علاقاتنا مع الاتحاد السوفياتي لخلاف في وجهات النظر ولكن حتى الاشقاء يمكن أن يقع بينهم الخلاف . والاتحاد السوفياتي لم يطلب منا أي شروط لمساعدتنا على ازالة اثار العدوان . اميركا هي التي تحاول دائما ان تفرض علينا شروطها المسبقة ولكني اقول في وضوح ان احدا لم يستطع ان يفرض شروطه المسبقة على عبد الناصر . ولن أحدا لم يستطع ان يفرض شروطه علي ... وان احدا لن يقدر على فرض شروطه على ثورة ٢٣ يوليو . وهناك المسالة الاخرى المتعلقة بالقواعد . وانا اقول بوضوح شديد انه ليست للاتحاد السوفياتي اي قواعد في الموانىء المصرية . ولقد سبق ان قلت انني سوف اعطي تسهيلات للاسطول السوفياتي في الموانىء المصرية وكان ذلك ردا ووفاء لموقفه

منا في العام ١٩٦٧ عندما فقدنا ٨٠ في المئة من سلاحنا . ما الذي فعله الاتحاد السوفياتي ؟ لقد أقام جسرا جويا بين مصر والاتحاد السوفياتي كما أقام جسرا بحريا . وفي خلال اربعة أشهر فقط وقبل ان ندفع او حتى نتكلم عن ثمن السلاح ، أو حتى نوقع على العقود كان قد اكتمل لدينا في أربعة اشهر اول خط دفاعي . وحتى بعد اقامة اول خط دفاعي بخمسة أشهر كاملة جاء الاتحاد السوفياتي ليوقع معنا على العقود وقال يومها انه يشعر بأن واجبه كصديق لمصر ان يقف الى جوارها ويشاركها في ازمتها ومن ثم اعطانا ما قيمته ١٠٠ مليون دولار اسلحة هدية ومشاركة منه من دون مقابل . الاتحاد السوفياتي موجود في البحر الابيض ومن مصلحتي ان يظل وجود للاتحاد السوفياتي في البحر الابيض حتى يقابل وجوده وجود الاسطول الاميركي السادس . وكلنا يذكر ليبرتي . واعتقد ان من مصلحتنا ان يكون اسطول الاتحاد السوفياتي موجودا في البحر الابيض » .

خرج المصريون بعد الذي سمعوه من السادات في الدورة الخاصة التي عقدها المؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي بثلاثة حقائق اساسية هي :

- ان السادات متمسك بصداقة الاتحاد السوفياتي ويريد استمرار الوجود العسكري السوفياتي في مصر .
- انه لم يعط في زيارته لموسكو الضوء الاخضر الذي يسمح له بترجمة وعده في أسوان (اعلان ساعة الصفر لبدء المعركة) ترجمة عملية .
- انه يطلب من المصريين « الصمت والصبر » . وهو بذلك يعبر عن يأس وعجز ، خصوصا اذا قيس هذا الكلام بكلامه في الدورة العادية التي سبقت الدورة الخاصة والتي عقدت في تموز (يوليو) ١٩٧١ عندما اعلن انه لن يدع عام ١٩٧١ يمر من دون حل للازمة حتى ولو كلف ذلك مصر مليون شهيد .

وفي اختصار ، اعتبر المصريون ان رئيسهم لم يجبهم عن تساؤلاتهم . وبرغم ما جرى في الدورة الخاصة التي عقدها المؤتمر القومي استمر المصريون لا يعرفون في اي طريق سائرون . طريق الحرب أم طريق السلام . وعمق حيرتهم هذه انه يوم انتهاء المؤتمر من أعماله وصلت الحرب ووصل السلام الى القاهرة . وصلا في يوم واحد . الحرب كانت متمثلة بالماريشال اندريه غريشكو وزير الدفاع السوفياتي والسلام كان متمثلا بالوسيط الدولي الدكتور غونار يارينغ . والزيارتان كانتا معروفتين لكن وصول الاثنين في يوم واحد هو الامر الذي لم يكن متوقعا .

استمرت حيرة المصريين على حالها الى ان قام السادات بزيارته الرابعة والاخيرة لموسكو (احدى الزيارات كانت سرية) .

واذا كانت الدورة الخاصة التي عقدها المؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي لم تنه تساؤلات المصريين وحيرتهم فان هذه الدورة ، بالاضافة الى الزيارات الكثيرة التي قام بها ، تسببت للسادات في انتكاسة صحية جعلته يخلد الى الراحة مدة اسبوع .

وبعد الراحة من المرض واجه السادات تساؤلات من نوع جديد : اذا كان السوفيات لا يريدون لنا ان نحارب فلماذا لا نحسم هذا الامر معهم ؟

واعار اهتماما كبيرا لهذه التساؤلات . وقرر ان يكون هذا الموضوع على راس جدول اعمال لقائه المقبل مع الزعماء السوفيات ، خصوصا ان الحساسية التي نشأت داخل الجيش المصري بسبب الوجود العسكري السوفياتي بدات تهدد بانفجار في أي لحظة . وبالفعل حدثت اشكالات صفيت بالحسنى لكنها تركت بصمات على صفحة العلاقات المصرية ــ السوفياتية .

وبعدما قال ما قاله في الدورة الخاصة التي عقدها المؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي بات عليه ، تبعا لتقليد خاص به ، ان يقول كلاما للغرب ، وبالذات للولايات المتحدة . لقد تحادث مع الزعماء السوفيات واسمعهم كلاما وسمع منهم كلاما . وعاد الى القاهرة وابلغ المصريين الكلام الذي رآه مناسبا .

اذا ، بقي ان يسمع الاميركيون منه كلاما .وما دام الاتصال مقطوع فان الوسيلة الوحيدة في مثل هذه الحال هي الصحافة .

واعد لارنولد دو بور شغريف كبير مراسلي مجلة « نيوزويك » ترتيب يجري بموجبه مقابلة مع السادات .

وجاء بورشغريف الى القاهرة بناء على رغبة مصرية واجرى مقابلة مع السادات لم تتمكن « نيوزويك » من نشرها كاملة مكتفية بنشر فقرات لان عددها انذاك كان مخصصا لرحلة نيكسون الى الصين الشعبية .

وفي هذه المقابلة قال السادات : ان المعركة قريبة واقرب مما نتصور بسبب خيانة اميركا لمصر .

وسئل السادات : هل ستحارب مصر برغم اعتراض الاتحاد السوفياتي ؟

واجاب : القرار قرارنا ونقبل كل المضاعفات وان مفاجاة كبرى تنتظر اسرائيل .

وكما هو المتبع فان الصحف المصرية نشرت سؤالا وجوابا مختلفين في صيغتهما عن الصيغة التي نشرتها « نيوزويك » .

ومن شأن تسجيل الصيغتين اعطاء فكرة عن افكار السادات التي

يريد ابلاغها الى الغرب وافكاره التي يجب ان يقرأها المصريون . في الصيغة التي نشرتها « نيوزويك » وجه بورشغريف الى السادات السؤال الآتي : سمعت عددا كبيرا من المصريين ، ومعظمهم من مؤيديك ، يقولون ان الوقت حان للاستغناء عن الوسيط الاميركي والتعامل مباشرة مع عدوكم . هل من ضرر في مفاوضات مباشرة حول طاولة يجلس عليها الدكتور يارينغ ؟

واجاب السادات : لن مهمة يارينغ هي تطبيق قرار مجلس الامن الدولي (الانسحاب في مقابل الاعتراف) . وعندما يشعر يارينغ بأن ذلك أصبح ممكنا فسنذهب الى طاولة المفاوضات . لكن على اسرائيل اولا ان تجيب عن رسالة يارينغ المؤرخة ٨ فبراير (شباط) ١٩٧١ .

أما الصيغة المصرية للسؤال والجواب فنشرتها صحف القاهرة كالاتي :

بورشغريف : « ما هو الضرر من اجراء مفاوضات مباشرة مع وجود دكتور يارينغ على نفس المائدة ؟ » .

الرئيس : « ان مهمة يارينغ هي تنفيذ قرار مجلس الامن ولكن يتحتم اولا على اسرائيل ان تجيب عن الاسئلة التي وجهها اليها يارينغ في ٨ فبراير (شباط) ١٩٧١ » .

ولكن هل أفادت تنازلات السادات في شيء ؟ الواقع انها لم تحقق له شيئا . فبعد تصريحاته هذه لم يتبدل شيء في الموقف الاميركي ، ولا ، استطرادا ، في الموقف الاسرائيلي . الذي حدث كان المزيد من التصلب والمزيد من التعنت .

ولم يتأثر المسؤولون الاميركيون من قول السادات في « نيوزويك » ان المعركة قريبة « واقرب مما نتصور بسبب خيانة اميركا » . كانوا منهمكين في وضع تقييم للنتائج التي حققتها زيارة نيكسون للصين ، وتقييم للنتائج التي يمكن ان تسفر عنها زيارة الرئيس الاميركي المرتقبة لموسكو .

... وبدأت الزيارة الرابعة . ومن البداية الى النهاية كانت مثيرة . وفوق ذلك كانت الفترة التي سبقت الزيارة مثيرة ايضا . مثيرة في التصريحات المصرية . ومثيرة في التطورات التي شهدتها المنطقة العربية . ومثيرة في امور اخرى كثيرة .

من التصريحات المثيرة في الفترة التي سبقت الزيارة قول السادات لطلبة الكلية الحربية المصرية في جبل الاولياء في خلال زيارته للخرطوم منتصف اذار (مارس) ١٩٧٢ « ان مصر قبلت كل تحديات المعركة بكل ابعادها . واذا ارادها العدو حربا شاملة فنحن نعد انفسنا الان لهذه

الحرب الشاملة . ان مصر تستعد الان للحصول عى كل ادوات الحرب المتقدمة على ارضنا ، ذلك ان العدو قد حصل بالفعل على حق تصنيع هذه الادوات المتقدمة في اسرائيل ؛ وذلك من خلال الولايات المتحدة التي تدعمها » .

من التصريحات المثيرة ايضا قول السادات في خلال اجتماعه الى ضباط الشرطة في مطروح اثر عودته من اجتماع عقده مع العقيد القذافي في الاسبوع الاخير من اذار (مارس) ١٩٧٢ « ان المعركة قادمة والضربة بضربتين وسوف ندخل العمق الاسرائيلي ولن نترك الاسرائيليين يفعلون ما استطاعوا ان يفعلوه في الماضي » .

من التصريحات المثيرة كذلك قول السادات في خلال زيارة قام بها الخميس ٣٠ اذار (مارس) ١٩٧٢ الى قاعدة جوية وسط الدلتا اجتمع خلالها الى الطيارين « ان قرار المعركة لا رجعة فيه وانني ساحدد ساعة الصفر للقوات المسلحة بعد اعداد الجبهة الداخلية » .

من التصريحات المثيرة في اليوم نفسه قول وزير الحربية الفريق اول محمد احمد صادق امام خريجي الدفعة الاخيرة للكلية الحربية : « لم يعد امامنا الا دخول المعركة وقد وضعنا خطة متكاملة لتصنيع السلاح وتطويره . اننا لن نقبل تحت اي ظرف التنازل عن اي جزء بل عن اي شبر من ارضنا العربية . اننا نعتبر قبول اي شيء من هذا القبيل خيانة للامانة التي وضعها الشعب في اعناق قواته المسلحة » .

ومن الاحداث المثيرة التي شهدتها تلك الفترة اعلان الملك حسين مشروعه المتعلق بانشاء « المملكة العربية المتحدة » والذي رفضه السادات لانه « ينسف قضية فلسطين ونحن لن نفرط في شيء لانه ليس من حقنا أن نفرط » . من الاحداث المثيرة ايضا ان اعلان الملك حسين مشروعه جعل العراق يقوم ببادرة تقارب من مصر . ولهذا الغرض جاء صدام حسين الى القاهرة ولم يعد الا بعد أن اجتمع الى السادات وتحادث معه في الاساسيات . وبعدما عاد الى بغداد حولت الحكومة العراقية الى مصر خمسة ملايين دولار مساهمة منها في المجهود الحربي .

كانت التصريحات مثيرة . وكانت الاحداث اكثر اثارة . وكما درجت تقاليد السادات فانه عشية زيارته الرابعة لموسكو الزم نفسه بوعد هو اكثر الوعود اثارة . لقد اعلن في الاحتفال الذي اقيم في مسجد الامام الحسين مساء ٢٥ نيسان (ابريل) ١٩٧٢ لمناسبة المولد النبوي انه يعاهد الجماهير « ان يكون احتفالنا بهذه الذكرى الجليلة في العام المقبل احتفالا بتحرير الارض وبقهر الغرور الاسرائيلي » .

(ملاحظة : لقد اثبت خطاب السادات الذي وعد فيه بأن لا يحل يوم ٢٥ نيسان (ابريل) ١٩٧٣ الا ويكون تم التحرير ، كوثيقة في

الفصل المتعلق بالوثائق وذلك لاسباب عدة منها أن وعده هذا كان اكثر الوعود حسما وقد اعلنه في مناسبة دينية تعني الكثير بالنسبة اليه وهو المتدين . ومنها أن الخطاب يختلف عن بقية خطبه لانه يتميز بمسحـــة صوفية) .

كان وعد السادات في ذكرى المولد مفاجاة للجميع وبالذات لرجال الصحافة المصريين والعاملين في حقل الاعلام ، لانه قبل يوم كان يتحدث اليهم بصراحة في لقاء معهم كان الثالث في نطاق اجتماعاته الداخلية التي جرت في خلال نيسان (ابريل) ١٩٧٢ ولم يلمس احد منهم بعد الكلام الصريح الذي سمعوه منه انه محدد بينه وبين نفسه وعدا قاطعا للتحرير، وانه سيعلن ذلك في اليوم التالي .

لقد حدثهم عن حملات التشكيك قائلا « انها لم تمتد الى علاقتنا بالاتحاد السوفياتي فقط ولكنها تطرقت الى المعركة ذاتها ، وقدرة مصر والعرب على خوضها » .

وقال لهم « ان مصر تواجه الان اصعب واعقد مراحـــل الازمـــة ، واعداءنا يتمنون لنا ان نتشنج ونتخذ قرارا خاطئا ، او يحدث انفجار داخلي ، وعلينا ان نفوت عليهم ذلك » .

وسألوه عن الوضع داخل الجيش فاجابهم ان امر المعركة منوط بالارادة المصرية ، « وان ما حققته قواتنا المسلحة في خمس سنوات يدعو الى الفخر والثقة بالمستقبل ، واننا بلغنا مرحلة مكنتنا ليس فقط من رفض كل الحلول والعروض الاستسلامية ، ولكنها وضعتنا في موقف الاستعداد للمعركة » .

وعن اميركا قال الكثير . وبمرارة وحدة هاجم الموقف الاميركي .

وانهى لقاءه لرجال الصحافة والاعلام بدعوتهم الى خطة اعلامية واعية « تعبىء الجماهير في مرحلة ما قبل المعركة » .

لم يلمّح ابـــدا الى انه سيحدد وعدا قاطعا للتحرير ؛ ومن أجل ذلك فوجئوا .

بـــدأت الزيارة الرابعة لموسكو بوعد ؛ شأنها شـــأن الزيارات السابقة . في الماضي وعد بأن عام ١٩٧١ سيكون عام الحسم ولامـــه السوفيات على ذلك . ثم وعد شعبه بأنه سيحدد ساعة الصفـــر لبدء المعركة بعد ان يقوم بزيارة لموسكو . وقام بالزيارة التي تمت في شباط (فبراير) ١٩٧٢ وعاد من دون أن يتمكن من تحديد ساعة الصفر تلك . وبين الزيارة الثالثة والزيارة الرابعة أطلق تصريحات وتحذيرات راوحت بين التطرف والاعتدال ... واطلق وعدا جديدا هو الوعد الذي تضمنه خطابه في ذكرى المولد .

وعشية سفره طلب من وزير الثقافة والاعلام عبد القادر حاتم اتخاذ موقف من الافلام الاميركية الخليعة التي تعرض في مصر .

وعشية سفره حدثت مفاجاة غير متوقعة : ابدل قائد السلاح الجوي اللواء علي بغدادي باللواء حسني مبارك .

بعد ظهر الخميس ٢٧ نيسان (ابريل) ١٩٧٢ وصل السادات الى موسكو ومعه وفد محدود يضم مستشاره لشؤون الامن القومي حافظ اسماعيل ووزير الخارجية الدكتور مراد غالب واللواء مبارك القائد الجديد للسلاح الجوي ، وبعض المساعدين .

وفي الوقت الذي وصل السادات الى موسكو كان رئيس الوزراء الدكتور عزيز صدقي يقول في مؤتمر شعبي عقد في دمنهور « ان الرئيس السادات عندما تحدث في ذكرى المولد النبوي الشريف وقال ان عامنا المقبل (١٩٧٣) سيشهد ليس فقط بداية لمعركتنا ، بل سيشهد نصرا حاسما ، نسترد فيه كل ما فقدنا ، انما كان يعني ما يقول . ولقد يصح لي أن اقول ان خططنا في جميع النواحي وخصوصا في القوات المسلحة تتم الان على هذا الاساس ولتحقيق هذا الغرض . وليقل اعداؤنا ما يريدون ، ولكن الفيصل هو يوم المعركة ، وهو يوم قريب » .

لم يكن بريجنيف وبودغورني في استقبال السادات في مطار موسكو وناب عنهما كوسيغين . كان بودغورني مرهقا بعد رحلة قام بها الى تركيا . أما بريجنيف فكان مرتبطا بموعد مهم !

ولقد تضايق السادات من ذلك ، خصوصا ان غياب بريجنيف يفسح في المجال للتفسيرات والاجتهادات والتكهنات التي لا تخدم الزيارة في اي حال .

وهذه المرة دارت تعليقات الصحف السوفياتية حول « المحاولات الاستعمارية التي تستهدف تقويض اسس الصداقة القائمة بين مصر والاتحاد السوفياتي » .

وكان لهذا الكلام ، ولتحذيرات السادات قبل أسابيع من مجيئه الى موسكو ، ما يبرره . فقد كبرت حملة مصرية — تقودها مجموعة من الشخصيات الوطنية — ضد الاتحاد السوفياتي . وهذه المجموعة لم تكتف بالتذمر من طبيعة العلاقات المصرية — السوفياتية وانما ذهبت الى حد توجيه مذكرة الى السادات مطالبة باعادة النظر في سياسة الاسراف في الاعتماد على الاتحاد السوفياتي الذي يطمح « في بسط نفوذه » على مصر . وابرز الذين قادوا الحملة هما عبد اللطيف البغدادي وكمال الدين حسين من الذين شاركوا في صنع ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

في اليوم الثاني انضم بريجنيف الى المحادثات . وقبل أن تبدأ الجولة الاساسية ظهر الجميع وعلى وجه كل منهم ابتسامة عريضة .

ماذا جرى في الاجتماع الذي عقد بين السادات وبريجنيف ، ثم في

الاجتماع الطويل الذي استغرق بعد ذلك خمس ساعات وحضره اعضاء الوفدين ؟

اعتبر كوسيغين المحادثات « قصيرة ولكنها ناجحة جـــدا » . واعتبرها السادات أيضا « قصيرة ولكنها عميقة » .

وتبين ان انطباع كوسيغين والسادات كان في محله . واذا القينا نظرة على مضمون البيان المشترك الذي صدر السبت ٢٩ نيسان (ابريل) ١٩٧٢ بعد انتهاء الزيارة لتبين لنا ان السادات نجح هذه المرة في الحصول على موقف سوفياتي جديد وجيد .

ما هو هذا الموقف ؟

لقد جاء في البيان ان الجانبين المصري والسوفياتي اعلنا اتفاقهما الكامل على الآتي :

اولا : انه في ظل التطورات الاخيرة فان الدول العربية التـي تعرضت للعدوان لها كل الحق في استخدام مختلف الوسائل لاسترداد الاراضي العربية التي اغتصبتها اسرائيل .

ثانيا : انه من الضروري الدفاع عن الحقوق المشروعة للشعـوب العربية ، خصوصا عن طريق الاستمرار في تدعيم القدرة العسكريـة لجمهورية مصر العربية . وقد تم الاتفاق حول اتخاذ التدابير اللازمة والمناسبة في هذا المجال .

ثالثا : ان الموقف الخطير الذي لا يزال قائما في الشرق الاوسط مشحون بتهديد للسلام العالمي .

رابعا : لا يمكن تحقيق السلام العادل والوطيد ، الا على اســاس الانسحاب الكامل للقوات الاسرائيلية من جميع الاراضي العربية المحتلة وتأمين الحقوق المشروعة لشعب فلسطين العربي .

خامسا : ان السياسة التوسعية المكشوفة التي تنتهجها اسرائيل، بالتأييد السياسي والعسكري المتزايد من اميركا لا تزال تمثل المصـدر الرئيسي للتوتر في المنطقة .

ما هو الجديد والجيد ؟

حتى الزيارة الرابعة لم تكن البيانات المشتركـة المصريـة ـ السوفياتية تتضمن الفقرة التي وردت في البيان وهي ان للدول العربية التي تعرضت للعدوان « الحق في استخدام مختلف الوسائل لاسترداد الاراضي العربية التي اغتصبتها اسرائيل » . وعندما ينجح السادات في الحصول على مثل هذا الموقف فانه بالفعل يكون حقق كسبا كبيرا .

وهنا تجدر ملاحظة ان الصيغة السوفياتية لهذه الفقرة كـانت مختلفة عن الصيغة المصرية . فبدل عبارة « مختلف الوسائل » التي وردت في الصيغة المصرية ، اعتمدت الصيغة السوفياتية عبارة «وسائل اخرى» .

وواضح ان الصيغة المصرية اكثر وضوحا وتحديدا من الصيغة السوفياتية ، الا ان الصيغة التي ارتآها الكرملين ، على ديبلوماسيتها، تبدو جيدة وجديدة .

٥ – الحساسيات ... وموقف الفريق اول صادق

كانت الزيارة الرابعة التي استطاع فيها السادات انتزاع موقف جديد وجيد من الاتحاد السوفياتي ، سلاحا رد فيه على البغدادي وكمال الدين حسين والآخرين الذين وقعوا معهما على مذكرة رفعوهـا الى السادات ويدعون فيها الى الحسم ـ اذا جاز التعبير ـ مع الاتحاد السوفياتي « لانه لم يأذن بتحرير الارض ويعمل لبسط نفوذه » .

لذلك فانه ظهر معتزا بنفسه الى ابعد الحدود وهو يتحدث يوم الاحد ١٤ ايار (مايو) ١٩٧٢ امام مجلس الشعب لمناسبة مرور عـام على حركة التصحيح التي قام بها ، ويقول بصوت عال ان علاقة مصر بالاتحاد السوفياتي « ليست مجالا للصيد في الماء العكر » وان هدف اسرائيل « عزلنا عن الصديق الوحيد وهو الاتحـاد السوفياتي الذي يتعامل معنا كصديق شريف » و« ان مصر لا تريد جنديا سوفياتيا واحدا يحارب في معركتها وانها لا تسعى ابدا الى خلـق مواجهة بين القوى الكبرى » .

وفي هذا الخطاب كشف النقاب عن المذكرتين اللتين قدمتا اليه . الاولى في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٠ وتحمل مطالب داخلية ، والثانية في نيسان (ابريل) ١٩٧٢ وهي المتعلقة بالوجود السوفياتي في مصر . (ملاحظة : راجع نص المذكرة الثانية في فصل الوثائق) .

ولقد شاركه في هذه الذكرى المارشال غريشكو الذي كان في دمشق ثم انتقل الى القاهرة في زيارة رسمية متميزة . وفي يوم وصوله استقبله السادات .

وفي اليوم الثاني لوصول غريشكو حدثت تظاهرة اعلامية مصرية لم تحدث من قبل . وقد وزعت القيادة العسكرية نصا واحدا علـى الصحف عن تلك التظاهرة ونشرته الصحف الصادرة الثلثاء ١٦ أيار (مايو) بشكل مثير .

ما هي تلك التظاهرة ؟

الاثنين ١٥ ايار (مايو) ١٩٧٢ أي يوم ذكرى ضرب علي صبري والآخرين الذين اعتبروا انهم كانوا « رجال موسكو في مصر » حضر السادات مع غريشكو والفريق أول صادق عرضا جويا في احدى القواعد الجوية المصرية . وجاء ذلك في أعقاب الاجتماع الذي استغـرق اربع ساعات بين السادات وغريشكو يوم وصول الوزيـر السوفياتي وفي اعقاب جولة طويلة من المحادثات بين غريشكو وصادق .

وخلاصة النص الذي وزع على الصحف ان العرض الجوي الذي شهده السادات وغريشكو جرى بعد ظهر الاثنين وحضره ايضا الماريشال كوبرانوف قائد سلاح الطيران السوفياتي واللواء حسني مبارك قائد القوات الجوية المصرية . وشهد السادات ومرافقوه في العرض الجوي مدى مقدرة الطيارين المصريين على قيادة الطائرات الحديثة القادرة على الطيران لاكثر من ثلاثة آلاف كيلومتر في الساعة ، والتي تستطيع ان تحلق على ارتفاع يتعدى ٢٤ كيلومترا . ويضيف النص الرسمي ان السادات وغريشكو شهدا ايضا مدى قدرة الطيارين المصريين على قيادة القاذفات المقاتلة البعيدة المدى .

لم تلتقط صور للطائرات او ان الصور التقطت للذكرى وليس للنشر في الصحف . اما الصورة التي سمح بنشرها فكانت تمثل السادات في ثياب الميدان يحمل غليونه بيده وحوله صادق وغريشكو بزيه الرسمي وقد وضع على الجانب الايسر من سترته ١٢ صفا من الاوسمة .

كانت عناوين الصحف المصرية الصادرة الثلثاء ١٦ أيار (مايو) مثيرة من جانبين . « الاخبار » و« الجمهورية » اخذتهما النشوة فوضعت الاولى العنوان الآتي : «عندنا طائرات وقاذفات بعيدة المدى». ووضعت « الجمهورية » العنوان الاتي : « السادات وغريشكو يشهدان خلال عرض جوي ضخم احدث طائرة حربية » . ويبدو ان رئيس تحريـر « الاهرام » محمد حسنين هيكل الذي عرف بظروف ذلك العرض الجوي حرص على ان تصدر « الاهرام » هادئة . وهكذا جاء العنوان كالآتي : «السادات يحضر مع الماريشال غريشكو والفريق صادق عرضا جويا» . لم تشر « الاهرام » في عنوانها الى الطائرات المتطورة مكتفية بايراد الخبر في سياق النبأ العام حول العرض الجوي والمحادثات التي أجراهـا غريشكو مع السادات وصادق .

غادر غريشكو القاهرة وقد أضاف الى الاوسمة الكثيرة التي تملأ الجانب الايسر من صدره وساما جديدا رفيعا منحـه اياه السادات . وتركت زيارته انطباعا في أذهان المصريين وأصدقائهم بأن ما ينقص مصر لتبدأ المعركة قد حصلت عليه وان غريشكو جاء لتدشين ما تم الحصول عليه .

وزاد في ترسيخ هذه القناعة في اذهان الجميع ، ان زيارة غريشكو والعرض الجوي الذي تم في خلالها والطائرات البعيدة المدى ... كل ذلك تم في اعقاب الزيارة الرابعة التي قام بها السادات لموسكو واستطاع في خلالها ان يحصل من زعماء الكرملين على الموقف الجديد والجيد وهو أن للدول العربية « الحق في استخدام مختلف الوسائل لاسترداد الاراضي العربية التي اغتصبتها اسرائيل » كما جاء في الصيغة المصرية للبيان المشترك . او استخدام « وسائل أخرى ... » كما جاء في الصيغة السوفياتية .

ومن جديد عادت حالة الترقب والانتظار الى المصريين . من جديد بداوا ينتظرون النتيجة . لقد سمعوا كلاما كثيرا وقراوا كلاما كثيرا . وها هو أخيرا الموقف السوفياتي يتبدل بعض الشيء .

واستمروا ينتظرون الى أن عاد الفريق اول صادق الى القاهرة يوم الاربعاء ١٤ حزيران (يونيو) ١٩٧٢ من زيارة للاتحاد السوفياتي استغرقت اسبوعا واعتبرت أكثر من استثنائية لاكثر من سبب ، لعل ابرزها ان أمورا كثيرة رافقت الزيارة ولم تكن متوقعة . فبعد لقاء طويل مع بريجنيف حضره فقط الماريشال غريشكو والمترجم التقى الفريق اول صادق اكثر جنرالات الجيش السوفياتي لحيوه وتحدثوا اليه واحتفوا به . كما انه في خلال هذه الزيارة شاهد مناورة عسكرية في منطقة قريبة من موسكو اشتركت فيها وحدات من القوات الميكانيكية والجوية وقوات الانزال الجوي بالهليكوبتر والمظلات كما اشتملت على عملية عبور مائية وعرض لبعض المعدات الهندسية الحديثة . ورافق الفريق اول صادق الى المناورة كبار قادة الجيش السوفياتي كما ان كبار قادة البحرية رحبوا به في حرارة عندما امضى اليوم الاخير من الزيارة في اكبر قاعدة بحرية سوفياتية وهي قاعدة « سيفاستبول » في البحر الاسود .

وعندما قرأ المصريون ما تنقله وكالات الانباء من موسكو عن الاهتمام الكبير الذي ابداه السوفيات حيال الفريق اول صادق ، تصاعد ترقبهم وانتظارهم ، وكثرت اجتهاداتهم . وذهب بعضهم الى حد التصور ان المناورة العسكرية التي جرت قرب موسكو كانت « بروفة » للمعركة بين مصر واسرائيل ، لان الصورة المطبوعة في اذهانهم هي ان ما جرى في خلال المناورة هو الذي سيحدث في المعركة لو بدات . وشجعهم على افتراض ذلك ان المناورة اشتركت فيها قوات انزال جوي واشتملت على عملية عبور حاجز مائي . وبداية المعركة مع اسرائيل لو تمت ستكون في الدرجة الاولى انزال قوات في سيناء يرافقه عبور قوات مصرية الى الضفة الشرقية المحتلة من قناة السويس .

لماذا ؟

انهم سمعوا ويسمعون ان الفريق اول صادق له وجهة نظر معينة

من موضوع التعاون مع السوفيات . وهم سمعوا ويسمعون ان الفريق اول صادق يشجع داخل الجيش التيار المعارض للوجود العسكري السوفياتي . وهم سمعوا انه كانت للفريق اول صادق مواقف اساسية تعكس وجهة نظره التحفظية حيال الاتحاد السوفياتي .

وقبل أن انتقل الى التحدث عن كل ذلك أرى أن أسجل الكلام الذي قاله الفريق اول صادق على اثر وصوله من الاتحاد السوفياتي . لقد صرح بعد ثوان من نزوله من الطائرة بالآتي : « بانتهاء زيارتي للاتحاد السوفياتي يمكنني أن أقرر ان مقابلتي للرفيق بريجنيف الامين العـــام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي ومحادثاتي الواسعـــة مع الماريشال غريشكو وزير الدفاع السوفياتي كانت موفقة ودلت على الفهم المتبادل لموقف الدولتين . كما أن القيادة السوفياتية ستستمر في تاييدها لمصر والدول العربية مهما تكن دسائس الامبريالية وان العلاقات بيننا مبنية على مبادىء الفهم المتبادل وان طرد العدو الغاصب من أراضينا هو أحد الاسس السياسية المشتركة بين الدولتين . انني لا اريد ان اخوض في اي تفاصيل واعتبر ان هذه الزيارة كانت مهمة وناجحة » .

« ليته كان يخوض في التفاصيل لنعرف » . تلك كانت العبارة التي رددها ثلاثة ارباع المصريين عندما قرأوا تصريح الفريق اول صادق .

وثمة عبارة اخرى رددها البعض : كيف يمكن ان يكون الفريق اول صادق ذهب الى موسكو متحفظا من السوفيات وعاد مقتنعا بهم ؟ لا بد انه اقنعهم أو اقنعوه ؛ ولا بد ان ذلك سيكون في اي حال لمصلحة انفراج الموقف الناشىء من استمرار حالة اللاسلم واللاحرب .

نأتي الآن الى التحدث عن تحفظات الفريق اول صادق حيـــال السوفيات .

في الجلسة المغلقة التي عقدها المؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي العربي يوم الخميس ١٧ شباط (فبراير) ١٩٧٢ في خلال الدورة الخاصة سئل السادات لماذا لم يصطحب الفريق اول صادق معه في زيارته الثالثة لموسكو التي بدأت يوم ٢ شباط (فبراير) فأجاب انه أبقـــاه في مصر مسؤولا عن الجبهتين العسكرية والداخليـــة ذلك بأنه كانت هنالـــك احتمالات بأن يقوم الاسرائيليون بعمل عسكري .

ونلاحظ هنا ان السادات أوكل أمر الاشراف على الجبهتين الى وزير حربيته وليس الى نائب رئيس الجمهورية ، وهو بذلك وضع في الفريق اول صادق ثقة مطلقة .

والذين وجهوا السؤال انطلقوا من عبارة قالها السادات في احدى الجلسات السرية وهي « ان القرار يحدده اثنان . انا . . . واظن انتو

عارفين التاني » . والثاني هو الفريق اول صادق .

ولكن هل من اجل تخوف السادات من قيام الاسرائيليين بعمل عسكري لم يصطحب معه الفريق اول صادق في زيارته الثالثة لموسكو ؟

كان واضحا انه كانت هنالك اسباب أخرى منها ان تعامل السوفيات مع الفريق اول صادق لم يكن كما يفترض ان يكون . ولقد ظهر ذلك في خلال زيارة صادق لموسكو في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧١ في رفقة السادات . وعندما قرر السادات ان يقوم بزيارته الثالثة وتحدث في الامر الى صادق ، كان راي وزير الحربية المصرية انه لا يريد ان يكون عبئا على محادثات السادات مع القادة السوفيات ، وقال للرئيس ما معناه : « لقد تحدثنا كثيرا اليهم في الوضع العسكري والمتطلبات ، وهذه قائمة بما نحتاج اليه من اجل ان يصبح في امكاننا خوض المعركة » .

اذا ، كان لتخلف الفريق اول صادق عن مرافقة السادات ما يبرره . وكانت تساؤلات الناس عن سر هذا التخلف في محلها . وتساؤلاتهم تصاعدت لان الصحافة لم تشر من قريب او من بعيد الى الامر .

ولكي نلقي المزيد من الوضوح حول ذلك تجدر العودة الى التذكير بالكلام الذي قاله السادات امام طلبة الكلية الحربية المصرية في جبل الاولياء في خلال زيارته للخرطوم التي بدات الاربعاء ١٥ آذار (مارس) وانتهت الخميس ١٧ منه ، اي بعد عودته من زيارته الثالثة لموسكو التي لم يرافقه فيها الفريق اول صادق . قال « ان مصر قبلت كل تحديات المعركة بكل أبعادها ، واذا ارادها العدو حربا شاملة فنحن نعد انفسنا الان لهذه الحرب الشاملة . ان مصر تستعد الان للحصول على تصنيع كل ادوات الحرب المتقدمة على ارضنا ، لان العدو حصل بالفعل على حق تصنيع هذه المعدات المتقدمة في اسرائيل وذلك من خلال الولايات المتحدة التي تدعمها » .

وكان واضحا بعد قول السادات ذلك ان الرئيس المصري اخذ بوجهة النظر السوفياتية وليس بوجهة نظر الفريق اول صادق .

ما هي وجهة النظر الاولى ، وما هي وجهة النظر الثانية ؟

يبدو أن السادات كان في محادثاته في خلال الزيارة الثالثة متصلبا وقاسيا ويبدو انه لجأ الى تهديد لجأ اليه من قبل جمال عبد الناصر وبسببه حصل على الصواريخ . والتهديد هو التلويح بالاستقالة وعرض حقائق الموقف على الشعب المصري . وحيال هذا الموقف الذي دعمه ارتياح سوفياتي الى قول السادات انه قطع كل اتصال مع الولايات المتحدة ، رد زعماء الكرملين واعدين بأن يبنوا مصنعا في مصر لطائرات الميغ ــ ٢١ مبدين في الوقت نفسه ضيقهم لان السادات تحدث عن الموقف السوفياتي من الحرب الهندية ــ الباكستانية بطريقة صورت السوفيات كأنهم طرف

اساسي في تلك الحرب وهو أمر لا يريدون ان يقوله حليف مثل مصر .
ووعد السوفيات ، بل حتى ــ كما يعتقد ــ اتفاقهم مع السادات على بناء مصنع في مصر لطائرات الميغ ــ ٢١ هو الذي جعل صحيفة « الاهرام » تكتب بعد عودة السادات من موسكو ان الزيارة « حققت نتائج ضخمة » .

وعندما عاد السادات أبلغ الفريق أول صادق نتائج الزيارة وأوضح له انه تم الاتفاق على ان يبني السوفيات في مصر مصنعا لطائرات الميغ ــ ٢١ .

واضاف مظهرا ارتياحه الى الانتصار الذي حققه في موسكو :
« عايز ايه اكثر من كده ؟ » . . .

الا أن السادات فوجىء برد فعل فاتر من جانب الفريق اول صادق الذي قال : ان المصنع لن يفيدنا في شيء وان ما نحتاج اليه هو طائرات ميغ ــ ٢٣ وصواريخ ارض ــ أرض . ذلك بأن الرد على طائرات الفانتوم الاسرائيلية وقواعد صواريخ ارض ــ ارض التي نصبتها في سيناء لا يكون بطائرات الميغ ــ ٢١ .

وحدث عندما جاء وزير الدفاع السوفياتي الماريشال غريشكو الى القاهرة ، وكان ذلك يوم انتهاء الدورة الخاصة التي عقدها المؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي وكرر السادات في احدى جلساتها السرية قوله حول تأجيل الحرب ، انما بأسلوب آخر : « بعدما كنا مرتبين الامور على اساس نخوض المعركة وننتقل الى ارض سيناء جاءت انديرا وعملتها قبلي » ــ حدث عندما جاء غريشكو الى القاهرة قبل ساعات قليلة من وصول الوسيط الدولي الدكتور غونار يارينغ ، ان بدأ الحديث مع الفريق اول صادق في موضوع مصنع طائرات الميغ ــ ٢١ ، ففاجأه صادق بالقول ان مصر ليست في حاجة الى مثل هذا المصنع . وشرح الاسباب التي كان شرحها في السابق للسادات .

ورد غريشكو بما معناه ان هذا الموضوع متفق عليه مع الرئيس السادات وانه يرى الاتصال بالرئيس .

واجاب صادق بما معناه انه هو القائد العسكري ويعرف ما يحتاج اليه الجيش المصري . ويعرف جيدا ان ما يحتاج اليه الجيش ليكون هناك توازن مع القوة العسكرية الاسرائيلية ، هو طائرات ميغ ــ ٢٣ وصواريخ أرض ــ أرض ، في الدرجة الاولى .

ثم تحول اجتماع صادق وغريشكو الى غرفة عمليات . وصباح السبت ١٩ شباط (فبراير) ١٩٧٢ زار الرجلان الرئيس السادات ، وتوجها الى الجبهة حيث اجتمعا الى عدد من القادة والضباط المصريين ، وطافا في بعض المواقع الامامية .

والاحد ٢٠ شباط (فبراير) عقد صادق وغريشكو اجتماعا

استغرق اليوم بطوله وتخللته استراحة قصيرة لتناول طعام الغداء . وكان غريشكو مرتاحا الى الطريقة التي تعتمدها كتائب قواعد الصواريخ ، ذلك بانها تتبدل في استمرار بحيث ان الكتيبة الموجودة يوم السبت في قاعدة من قواعد الصواريخ هي غير الكتيبة التي تتواجد يوم الاحد . وهذا التغيير عملية وقائية لمرضها التصوير المستمر من الاقمار الاصطناعية الاميركية لقواعد الصواريخ .

وفي هذا الاجتماع ابدى غريشكو ملاحظة تتعلق بنسبة الكثافة في الجبهة وهي نسبة في رأيه غير منطقية اذ من غير المعقول ان تكون هنالك اعداد كبيرة جداً من الضباط والجنود في رقعة ارض لا تتناسب مع حجم القوة العسكرية ، ذلك بأنه في مثل هذه الحال تستطيع طائرة اسرائيلية مغيرة ان تحدث خسائر في الارواح لا يمكنها احداثها اذا لم تكن نسبة الكثافة البشرية على ما هي عليه . وفوق ذلك ان نسبة كثافة الجنود الاسرائيليين في الضفة الشرقية المحتلة هي أدنى بكثير من نسبة الكثافة المصرية في الضفة الغربية .

وهذه النقطة كانت مثار نقاش بين صادق وغريشكو . كيف تعالج مشكلة الكثافة ؟ هل تبنى مواقع خلفية في الجبهة ينتقل اليها الجنود ؟

وهذه الفكرة جيدة الا انها غير عملية لانها ستكلف أموالا كثيرة وجهودا مضنية . يضاف الى ذلك ان هذه المواقع ستكون امتدادا للجبهة ، وستصل اليها الطائرات الاسرائيلية المغيرة في سهولة وتحدث الخسائر التي لا ضرورة الى حدوثها .

ويبدو أن الفكرة التي أخذ بها هي عدم بناء المواقع وعدم اعادة افواج من العسكريين الى منازلهم على أن يكونوا في حالة استعداد تامة لاستدعائهم في اي لحظة ، انما توزيع اعداد كبيرة منهم على قوات الدفاع الشعبي .

وطبيعي ان غريشكو الذي وصلته تقارير كثيرة تدور كلها حول الحساسية المتزايدة في صفوف الجيش المصري حيال الخبراء السوفيات، بحث مع صادق في هذا الموضوع .

وهذه الحساسية تصاعدت الى درجة الكراهية بعد حادثتين . الاولى عندما أعلن ان ضابطا سوفياتيا كان يعمل في الجيش المصري هرب الى اسرائيل . وهذه الحادثة اوضحها السادات للضباط . وعندما بلغه ان القطاع المدني بدأ يتناولها وبدأت تتضخم الى درجة ان مخاوف انتابت كثيرين من ان يكون هذا الضابط حمل الى اسرائيل اسرارا ، وقف في جلسة سرية من جلسات الدورة الخاصة التي عقدها المؤتمر القومي يقول ما معناه : « صحيح ان هذا الضابط لجأ الى اسرائيل الا انه لم يلجأ اليها من مصر . ذهب أولا الى الاتحاد السوفياتي ومن هناك لجأ . وهو في اي حال ليس ضابطا مهما ، وخلال اقامته في مصر لم يكن يعمل

في مواقع مهمة » .

ويصرف النظر عما اذا كان هذا التوضيح من السادات اقنع المصريين ام لا ، فان الحساسية كانت كبرت وتأصلت وزادتها تأصلاً هجرة اليهود المستمرة من الاتحاد السوفياتي الى اسرائيل وبينهم علماء وخبراء . وفي هذا النطاق كان ما قاله السادات في احدى الجلسات السرية للمؤتمر الاستثنائي هو ان الموضوع متعلق بسياسة الاتحاد السوفياتي . وعندما يعود عدد من هؤلاء المهاجرين الى روسيا تعقد لهم الدولة مؤتمرات صحافية يتحدثون فيها عن مساوىء الحياة في اسرائيل (...)

اما الحادثة الثانية فتتعلق بنكتة بذيئة تسببت في ابعاد مساعد كبير الخبراء السوفيات في مصر . وتفيد رواية ان مساعد كبير الخبراء السوفيات دخل مرة مكتب رئيس الاركان المصري الفريق سعد الدين الشاذلي وقال له : هل اروي لك نكتة مصرية ؟

وأجابه الشاذلي بتهذيب : تفضل .

وروى مساعد كبير الخبراء النكتة كالآتي :

لم يستطع ضابط مصري ان يلبي رغبات صديقته الجسدية فقالت له : هل احضر خبيراً روسياً ليقوم بالمهمة ؟

وتضايق الشاذلي ، وهو من المثاليين في مسلكيتهم ، من ذلك ، وكاد ان يضرب مساعد كبير الخبراء . لكنه حرصاً على عدم توسيع هوة انعدام الثقة طلب منه مغادرة مكتبه فوراً ، وابلغ الفريق اول صادق القصة . وكان رد فعل صادق هو الامر بأن يغادر مساعد كبير الخبراء مصر في خلال ٢٤ ساعة . وقد غادرها بالفعل .

على ان كل ذلك لم يمنع الفريق أول صادق من حضور الحفل الذي اقيم مساء الثلثاء ٢٢ شباط (فبراير) ١٩٧٢ في النادي السوفياتي في القاهرة لمناسبة يوم القوات السوفياتية المسلحة ، ومن القاء كلمة تحدث فيها عن تطور الجيش السوفياتي والعلاقات بين القوات المسلحة المصرية والسوفياتية . وفي أي حال تناول في هذه العلاقات المواقف الايجابية ولم يتطرق الى السلبيات ولا الى الحساسيات ، حتى ولا الى النتائج التي حققتها زيارة غريشكو ومنها امداد مصر بأنواع من الاسلحة يحتاج المصريون الى بضعة اشهر كي يستوعبوها .

يومها بقي السؤال الاساسي : هل غادر غريشكو القاهرة متفقاً مع مصر على بناء مصنع لانتاج طائرات الميغ — ٢١ فيها لمجرد ان السادات اتفق مع القادة السوفيات على ذلك . اي في معنى اخر : هل اخذ بما قرره هو ولم يؤخذ بما يراه الفريق اول صادق ؟ أم ان ما قصده السادات في كلمته امام ضباط الكلية الحربية في جبل الاولياء من ان مصر تستعد لتصنيع ادوات الحرب المتقدمة يتفق في النهاية مع الكلام الـذي

قاله الفريق اول صادق في احدى الجلسات السرية التي عقدها المؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي في دورته الخاصة وهو : « ان القيادة السياسية لا تالو جهدا في تزويد القوات المسلحة بكل جديد ومتطور من عتاد . واتخذت في ذلك قرارا باعادة المصانع الحربية الى القوات المسلحة مع استمرار محاولات استكمال ما نحتاج اليه من عتاد من صديقنا الاتحاد السوفياتي ؛ وكذلك الحصول على كل جديد من السلاح والمعدات من اي مكان » .

ان الحساسيات كانت كثيرة داخل الجيش المصري من وجود الخبراء والمستشارين والمدربين السوفيات . وبدأت تمتد الى الجبهة المدنية بعد استمرار وقف اطلاق النار .

وعمليا اصبح الفريق اول صادق والفريق سعدالدين الشاذلي يمثلان التيار الوطني داخل الجيش المصري ، واصبحا قطبي المواجهة للسوفيات داخل الجيش .

ولقد ذهل ضباط الجيش وبعض القطاعات المدنية عندما قيل ان الفريق اول صادق سيزور موسكو في حزيران (يونيو)١٩٧٢ . ذلك بانه عندما زار غريشكو مصر في منتصف ايار (مايو) ١٩٧٢ كان الفتور بين صادق والسوفيات بلغ أشده . وعلى سبيل المثال فان الصحف المصرية التي التقطت صورا للفريق اول صادق في اول لقاء بينه وبين زميله السوفياتي ترددت في بادىء الامر في نشر صورة للقاء لان الفريق اول صادق كان في جميع الصور متجهم الوجه تعبيرا منه عن عدم رضاه عن المعاملة السوفياتية . وفي النهاية اختارت هذه الصحف الصورة التي يبدو التجهم فيها بسيطا ونشرتها .

وكان الرئيس السادات في موقف صعب . انه من جانبه مقتنع بوجهة نظر صادق التي يلتف حولها معظم ضباط الجيش وخصوصا الضباط الكبار . وفي الوقت نفسه يريد خلق تعايش بين صادق والسوفيات كي لا يؤثر ذلك في صيغة التعايش القائمة على مستوى القمة . واتفق السادات مع السفير السوفياتي فينوغرادوف على ان يوجه غريشكو الدعوة الى الفريق اول صادق لزيارة موسكو ، عل الفتور يتضاءل . وهكذا كان . وجه غريشكو الدعوة وقبلها صادق وحددا معا موعدا للزيارة بحيث يكون غريشكو في تلك الفترة غير مرتبط بمواعيد ليتفرغ للاهتمام بصادق .

وسافر غريشكو . وبقي الفتور على حاله . استمر الفريق اول صادق يمثل المعارضة المصرية العسكرية للسوفيات .

وحدث ما جعل المعارضة تترسخ عندما شن قبل سفره الى موسكو حملة عنيفة على السوفيات وصلت الى حد انه انزل اوامر يومية على قطاعات الجيش تضمنت ان الاتحاد السوفياتي لا يعطي مصر شيئا

اساسيا .

وهنا تجدر الاشارة الى اجتماع عسكري مصري كبير عقد في رئاسة صادق قبل فترة من مجيء غريشكـو الى القاهرة . في ذلـك الاجتماع تحدث وزير الحربية المصرية الى عشرات الضباط في كثير من الصراحة واحاطهم علما بحقيقة الموقف . ومما قاله : « ان السوفيات لا يعطون مصر شيئا اساسيا . والمساعدات التي يقدمونها لا تكفي حتى لتحرير سيناء . اننا لا نملك مصانع ذخيرة . ولذا فنحن لو بدانا المعركة فـان الذخيرة لا تكفينا عشرة ايام . ان الاتحاد السوفياتي يطلب منا السماح له بانشاء قاعدة في مرسى مطروح واخرى في الزعفران (على البحـر الاحمر) وهو طلب غريب » .

وهنا ضرب صادق بيده على الطاولة التي يجلس اليهـا واضاف مخاطبا الضباط : « ما دمت انا وزيرا للحربية فلن امكن السوفيات من الحصول على قاعدة واحـدة في مصر . وانني اقسم بشرفي العسكري على ذلك . واذا دخـل السوفيات مطـروح واقاموا قاعدة هناك فلن يخرجوا منها ابدا . واذا كان من الصعب علينا اخراج اسرائيل من سيناء وهي الدولة الصغيرة فما بالك بالاتحاد السوفياتي وهو الدولة العظمى . ان الاتحاد السوفياتي يبيعنا السلاح باسعار السوق السوداء . الدبابة التي يبلـغ ثمنهـا في الاسواق العالميـة ٢٥ الف جنيه يضع الاتحـاد السوفياتي ثمنا لها ٤٤ الف جنيه . لقد اشتكى السوفيـات كثيرا من موقف العقيـد القذافي ضدهم ونحن طلبنـا من الرئيس الليبي تخفيف الحملة حتى لا يعتبروا كلامه حجة تحول دون تسليمنا ما نريد . ولقـد تفهم القذافي هدف مصر من طلبها هذا وقال انه على استعداد لارسال وفد الى موسكو يشتري سلاحا منهم . وحدث بالفعل ان توجه وفد ليبي برئاسة الرائد عبـد السلام جلود الى موسكو واجرى محادثات مـع المسؤولين السوفيات تبين لنا انها كانت كلهـا تتميز باللف والدوران . وارسل لنا الاخوان الليبيون الارقام التي قدمهـا السوفيات لهم لنطلع عليها فوجدنا ان الاسعار التي حددها السوفيـات هي ضعف الاسعار العالمية . وعلى هذا الاساس لم تتم صفقة السلاح التي كانت ستعقدها ليبيا مع الاتحاد السوفياتي لحسابنا . وكان الاخوان الليبيون سيدفعون ثمن الصفقة نقدا . وانا قلت لهم بعدما درست الارقام والوضع انه من الافضل الا توقعوا عقد الصفقة ، وان الحل الامثل هـو شراء السلاح غير المتوافر عندنا ، من الغرب .

« وفوق ذلك لقد طلب السوفيات منا رسميا ان يتولى الطيارون المصريون تدريب الطيارين السوريين ، ومعنى ذلك ان يسافر طيارون من عندنا الى سوريا وبذلك يحدث نقص في الجبهة المصرية بالنسبة الى الطيارين . وحجة السوفيات في ذلك انه يجب أن يكون هنالك توحيد في

هذه المسائل ، وهي حجة غير مقبولة لان مثل هذه المهمة مطلوبة منهم . وفي اي حال اريدكم أن تعرفوا انه لن يغادر طيار مصري بلاده الى مكان آخر .

« لقد حدثتكم عن موضوع القواعد التي تطلبها روسيا منا . واريد ان اوضح لكم هنا امرا وهو ان الماريشال تيتو حذرنا من اعطاء روسيا قواعد . وكان تيتو استقبل قبل ان ينبهنا الى موضوع القواعد ، الماريشال غريشكو . وقد جاء وزير الدفاع السوفياتي الى يوغسلافيا للبحث مع الماريشال تيتو في امكان اعطاء الاتحاد السوفياتي قاعدة في الادرياتيك . وقد رفض الرئيس اليوغسلافي ، ولم ينس ان يسأله في تلك المقابلة : ماذا فعلتم بالنسبة الى مصر . هل انكم تنفذون طلباتها ؟» .

ذلك كان كلام الفريق اول صادق في الاجتماع العسكري الكبير الذي رأسه وعقد قبل فترة من سفره الى موسكو . وهو كلام قاطع . انه لا ينتقد فحسب ، وانما يعلن وفي كثير من الصراحة حقائق خافية عن طبيعة العلاقات المصرية ـــ السوفياتية . واستنادا الى هذه الحقائق يصبح من الطبيعي على الفريق اول صادق ان يكون معارضا ويصبح الرئيس السادات مضطرا الى ان يفجر الموقف ، وقد فجره بالفعل .

اذا ، كان من الطبيعي ان يذهل الضباط المصريون بعدما تابعوا الاهتمام الكبير الذي ابداه السوفيات بزيارة الفريق أول صادق ، وان يتزايد ذهولهم من تصريحاته المؤيدة للموقف السوفياتي ، بعد عودته من موسكو . ولقد اعتبر هؤلاء ان الفريق اول صادق قام بمراجعة اساسية لمواقفه السابقة . اذ كيف يسافر الى موسكو معارضا وفي عنف مواقف الاتحاد السوفياتي ، ويعود مشيدا بالسوفيات مطمئنا الى طبيعة التعاون معهم .

وخطر ببال هؤلاء الضباط وببال كثيرين غيرهم من مدنيين وعسكريين ان تكون موسكو تعمل على تدمير الفريق اول صادق وحرقه داخل الجيش وداخل نظام السادات .

وبعدما عاد الفريق اول صادق الى القواعد وشرح الظروف تبين للضباط الذين ذهلوا ان خطة القيادتين السياسية والعسكريةكانت طمأنة الاتحاد السوفياتي الى النهاية علّه يعيد النظر في مواقفه . ولكن الكرملين استمر على موقفه ولم تفد المراجعة المصرية لبعض المواقف في شيء .

... وكان من الطبيعي ان تتدهور العلاقات المصرية ـــ السوفياتية .

وثمة نقطة جديرة بالملاحظة وهي ان الفريق اول صادق كان يبدي ضيقه من تزايد اهتمام رئيس الحكومة الدكتور عزيز صدقي بالسوفيات في كل مرة كانت المعارضة للوجود السوفياتي داخل الجيش تسجل تصاعدا . وحدث ان الفريق اول صادق اصدر قبل فترة من سفره الى

موسكو قانونا يقضي برفع مرتبات الضباط لكن عزيز صدقي رفض القانون بحجة ان الموازنة لا تتحمل ذلك . وادرك صادق ان المسألة ليست مسألة موازنة تتحمل او لا تتحمل فرد بصفة كونه القائد العام للجيش بترقية عشرات الضباط وتبعا لذلك ارتفعت الرواتب يرافقها ترقية .

وهذا الاجراء من جانب الفريق اول صادق امتص ضيقا كبيرا في نفوس الضباط الذين عبروا في غير مرة عن استيائهم من ان الخبراء والمستشارين يقبضون رواتبهم بالذهب وهم لا يحصلون على زيادات اساسية في الرواتب .

وداخل الجيش المصري ترسخت نظرة بان عزيز صدقي لا يريد ان ياخذ في الاعتبار حقائق العلاقات المصريــة ــ السوفياتية ولا يريد ان يتلمس طريقة معاملة السوفيات لمصر .

وفي النهاية اعتبر منطق المعارضة العسكرية المصرية للسوفيات هو المنتصر بعدما اعلن السادات انهاء مهمة الخبراء والمستشارين .

بعــد زيارة السادات الرابعة لموسكــو التي عــاد منها بموقف سوفياتي جديد وجيد . وقبل ان يقوم الفريق اول صادق بتلك الزيــارة ويقابل باهتمام استثنائي لم يقابل به قائد عسكري مصري من قبل . كان هنالــك حرص مصري ملموس علــى ان تبقى العلاقــات المصرية ــ السوفياتيــة في منأى عن اي تدهــور . كان السادات يواجه الــذين يعارضــون الاتحــاد السوفيــاتي بتحــذيرات وتهديدات وتشكيــك في معارضتهم . وكــان في الوقت نفسه يقول ان الخلافات التي تحدث بين مصر والاتحاد السوفياتي انما هي خلافات من النوع الــذي يجري بين الاخوان والاصدقاء .

كان نظام الســادات دائما يطوق اي محاولات لتقويض العلاقــات المصرية ــ السوفياتية ووصل به الامــر الى حــد انه فصل اثنين من المسؤولين في وزارة الخارجية المصرية لانهما قالا في ندوة عقدتها صحيفة « الاهرام » كلاما تجاوز الموقف التقليدي .

كانت « الاهرام » عقدت هذه الندوة بعنوان « لقاء القمة الكبير في موسكو » ونشرت ما دار فيها في العدد الذي صدر يوم الجمعة ١٩ أيار (مايو) ١٩٧٢ ، اي قبل قرابة ٧٢ ساعة من بدء لقاء القمة الاميركي ــ السوفياتي في موسكو ؛ وفي اليوم الثاني لاجراء ديبلوماسي ضد الولايات المتحدة حيث طلبت مصر فجاة خفض عــدد اعضاء البعثة الاميركية الى النصف (اي من ٢٠ الى ١٠) واعادتهم الى بلادهم في خلال شهر معيدة بذلك وضع البعثة الى ما كان عليه في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ عندمــا قطعت مصر علاقاتها بالولايات المتحدة . وفي الوقت نفسه تضمن القرار

(الذي طلب السادات شخصيا من وزارة الخارجية العمل به) خفض عدد أعضاء البعثة التي تشرف على رعاية المصالح المصرية في الولايات المتحدة الى النصف . وقد اتخذ السادات ألقرارين « ردا على السياسة السافرة التي تتبعها الولايات المتحدة في دعم العدوان الاسرائيلي المستمر باحتلال الاراضي العربية » . وصادف ان هذا القرار اتخذ يوم عودة الماريشال غريشكو الى موسكو . وحاول البعض الربط بين القرار والزيارة الا ان القاهرة ردت قائلة ان القرار اتخذ قبل الزيارة بوقت طويل .

وشارك في ندوة « الاهرام » السفير اسماعيل فهمي وكيل وزارة الخارجية المصرية وتحسين بشير رئيس الدائرة الصحافية في الوزارة والناطق الرسمي السابق باسم الحكومة المصرية .

وفي الندوة قال اسماعيل فهمي في معرض الحديث عما يمكن ان تحتله ازمة الشرق الاوسط في هذه القمة وموقف السوفيات من الازمة ، ان افضل ما يمكن ان يعمله العرب هو ان يوضحوا للقادة السوفيات « انه يجب ان توضع قضية فيتنام وازمة الشرق الاوسط في المستوى نفسه . ومعنى ذلك انه اذا كان هناك دور للاتحاد السوفياتي يمكن ان يلعبه في فيتنام ليساعد به امريكا ، فلا بد ان تقوم امريكا بدور لمساعدة السوفيات في الشرق الاوسط . ليس لان الدولتين تريدان الانتهاء من ازمة الشرق الاوسط بين يوم وليلة ، فانا لا اعتقد ذلك . انا مقتنع بان الدولتين تريدان ما يسمى حالة اللاسلم واللاحرب » .

واضاف : « ان الشرق الاوسط بالنسبة الى الاتحاد السوفياتي يأتي في المرتبة الثالثة وبالنسبة الى امريكا يأتي في المرتبة الرابعة ، بينما ازمة فيتنام هي في المرتبة الاولى بالنسبة اليهما . يجب ان يكون لدي الشجاعة السياسية الكافية لان اقول للسوفيات هذا الكلام . ان فيتنام على راسي ، لكن الشرق الاوسط هو حياتي ومماتي . فاذا لم نصل الى هذا واكدت دراساتنا لاجتماع موسكو بين الرئيس نيكسون وزعماء الكرملين اننا لم نصل اليه ، ولم يتم الربط في الاجتماع بين الشرق الاوسط وفيتنام ، فلا بد من ان نعيد تقييم الخط الاساسي الذي نحن سائرون عليه . فعدم تحرك الازمة سببه الدولتان الكبيرتان . ولن تتحرك الازمة ، سياسيا ، الا بهما . فاذا لم يكن في التقدير السوفياتي اليوم ان مصر اولا والعالم العربي من بعدها ، ستصل الى مرحلة مواجهة ورفض لسياسة اللاحرب واللاسلام ، فانه يرتكب بذلك اكبر خطأ في حساباته . واعتقد ان السوفيات يعرفون ذلك بعد تجربتهم الطويلة مع مصر والعالم العربي » .

ودعا اسماعيل فهمي الى اقامة حوار بين مصر والاتحاد السوفياتي « من نوع جديد وخاص ومن غير تهديد » .

اما تحسين بشير فقال في الندوة : « مســلك السوفيات في الفترة الاخيرة يؤكد ان موقفهم في الشرق الاوسط دفاعي وان الاميركيين لديهم اليد العليا . والسؤال المهم هو : لماذا يغير السوفيات موقفهم ويتعرضون لمخاطر في الشرق الاوسط من اجل صالحنا ؟ او مــاذا نعطي الاتحــاد السوفياتي ؟ واذا كنا غير قادرين على اعطاء الاتحاد السوفياتي مزايا اضافية لاعادة الحساب فما يمكن عمله هو الضغط الودي في حال وقوف الاتحاد الســوفياتي موقف المتفرج » .

كان كلام اسماعيل فهمي وتحسين بشير غير عادي اذا قيس بالخط السياسي المصري العام حيال الاتحــاد السوفياتي ولكنه كــان كلاما شجاعا . ولانه كلام شجاع فان موسكو تضايقت .

لقد ارسل الاتحاد السوفياتي فريشكو الى القاهرة قبل ايام من انعقاد القمة ليمتص اي وجهة نظر سلبية ، ولم يخطر ببال السوفيات ان مثل وجهة النظر هذه ستصدر فجأة عبر ندوة في صحيفة «الاهرام» . ومن اجل ذلك تضايقوا وابدوا هذا الضيق .

والغريب ان نظام السادات تجاوب مع هذا الضيق في وقت كــان هو اكثر ضيقا من الاسلوب السوفياتي في معاملــة مصر . وكان مظهر التجاوب سريعا . فقد اعطي الدكتور مراد غالب وزير الخارجية الذي امضى بضع سنوات سفيرا لمصر في موسكو ، كلا من اسماعيــل فهمي وتحسين بشير اجازة مفتوحة . وبرغم ان الاجراء لم يكن قانونيا الا انه تم . واستمر الاثنان في اجازتيهما المفتوحتين اللتين بدأتــا من مطلــع حزيران (يونيو) ١٩٧٢ . وبعد ايام من اعلان السادات قراراته انهاء مهمــة الخبراء والمستشارين السوفيــات نشرت الصحف المصرية نبأ مقتضبا مفاده ان نائب رئيس الجمهورية الدكتور محمود فوزي استقبل اسماعيل فهمي . ومعنى ذلك ان الاعتبار اعيد الى الرجل واستطرادا الى تحسين بشير الذي لم يذكر في النبأ أن الدكتور فوزي استقبله .

وقد وجد محمد حسنين هيكل الفرصة مناسبة ليرد الاساءة التي لحقت به لان اسماعيل فهمي وتحسين بشير اشتركــا في ندوة عقدتها « الاهرام » وشارك هو فيها . وبعد يوم من اعلان السادات قراراته كتب هيكل بتوقيع « المحرر السياسي للاهرام » تحليلا نشر كنبأ رئيسي في الصفحة الاولى وجاء فيه ما اعتبر موجها الى مراد غالب : « . . . ومع أن بعضنا كانوا من قبل مؤتمر موسكو (القمة الاميركية ـــ السوفياتية) يحاولون لفت الانظار الى الظروف المتغيرة والى الاحتمالات المرتقبة الا ان كل مناقشة واي حوار جرى قمعهمــا بطريقة ليست خاطئة فحسب ولكنها استفزازية أيضا » .

ولكي يثبت هيكل رحابة صدر السادات وضيــق صدر الاخرين ، قال بعد ذلك أن السادات قال له (وكان كتب ثلاثة مقالات عن اللاحرب

واللاسلم) ان المقال الثالث هو اردا مقال كتبـــه (اي هيكل) ، لكــن السادات استدعـــاه بعد ذلـــك ليبلغه قـــرار انهـــاء مهمـــة الخبراء والمستشارين .

٦ – عندما نسف السادات زيارة الملك حسين لموسكو

لقد اوحى السادات بان زيارته الرابعة لموسكو كان هدفها البحث مع المسؤولين السوفيات في القمة الاميركية ـ السوفياتية المرتقبة . ولكن هذا لم يكن الهدف الوحيد . كانت هنالك قضية اكثر خطورة . فقد تلقى السادات تقارير اغدت بعضها المخابرات المصرية في عمان ، تفيد بأن الملك حسين سيزور موسكو .

كيف ؟ هل يمكن ان يحدث ذلك ؟

لنبدأ في سرد القصة .

يوم الاربعاء ١٥ اذار ١٩٧٢ اعلن الملك حسين في خطوة مباغتة مشروعه المتعلق بانشاء المملكة العربية المتحدة من قطر فلسطين (الضفة الغربية واي أراض فلسطينية اخرى يتم تحريرها ويرغب أهلها في الانضمام اليها) وقطر الاردن ويتكون من الضفة الشرقية ، على ان تكون عمان العاصمة المركزية للمملكة وفي الوقت نفسه تكون عاصمة لقطر الاردن . وتكون القدس عاصمة لقطر فلسطين .

وبعد اربعة أيام أصدرت مصر وسوريا وليبيا بيانا تعلن رفض اتحاد الجمهوريات العربية لمشروع الملك متهمة الولايات المتحدة بأنها وراء المشروع .

ويوم صدور البيان استقبل الرئيس السادات السيد بهجت التلهوني الذي جاء الى القاهرة مبعوثا من الملك حسين للبحث مع المسؤولين في المشروع .

أحدث موقف مصر وسوريا وليبيا خيبة أمل بالنسبة الى حركة المقاومة الفلسطينية التي كانت ردت بعد يومين على الملك معلنة رفض المشروع ورفض النظام الاردني ، ثم أعلنت فتح من جانبها « ان هدفنا الان اسقاط النظام الاردني » .

كانت المقاومة تريد من دول اتحاد الجمهوريات العربية موقفا متشددا . فالرفض لا يكفي واتهام اميركا لا يكفي . وعلى هذا الاساس

بدأت اتصالات بين حركة المقاومة ودول الاتحاد . ويوم الاربعاء ٢٢ اذار (مارس) ١٩٧٢ توجه السادات الى ليبيا للتشاور مع العقيد القذافي في خطوات اكثر تشددا .

وفي الواقع ، ان التشدد كان مطلوبا انذاك من مصر وحدها لان العلاقات كانت متدهورة بالفعل بين الاردن وكل من سوريا وليبيا .

وكانت الحلقة المفقودة لدى السادات هي : موقف الاتحاد السوفياتي من المشروع . وكل ما عبر عن هذا الموقف كان مجرد تعليق في « الازفستيا » نشرته الصحيفة الناطقة باسم الحكومة السوفياتية يوم ٣٠ اذار (مارس) ١٩٧٢ وجاء فيه ان مشروع الملك حسين « عمل انفصالي ومحاولة لتفرقة الدول العربية التقدمية واضعافها بينما هي تواصل جهودها لانهاء الاعتداء الاسرائيلي » .

وهذا الكلام في « الازفستيا » ليس موقفا بقدر ما هو تقييم للمشروع . والمطلوب موقف . والسادات يريد ان يعرف هذا الموقف ؛ خصوصا بعدما قرأ في التقارير التي رفعت اليه ما يوحي بأن موسكو ترى ان مشروع الملك يمكن ان يناقش ، وان الملك بحث في مشروعه مع سفراء الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا ، والوزير المفوض في السفارة السوفياتية لان السفير كان خارج عمان ، وان لقاء الملك بالوزير المفوض السوفياتي كان على حد تعبير وزير الخارجية الاردنية عبدالله صلاح الذي رافق التلهوني الى القاهرة « اطول واعمق وانفد لقاء » . وكان كلام عبدالله صلاح معدا للنشر في صحيفة « الاهرام » ثم لم ينشر بعد ذلك .

وافادت التقارير التي رفعت الى السادات ان الملك حسين طلب من الوزير المفوض السوفياتي زيارة موسكو للبحث مع المسؤولين السوفيات في المشروع . واجابه الديبلوماسي السوفياتي انه سيعرض الامر على حكومته ويرد عليه .

وجاء الرد بدعوة الملك الى زيارة موسكو .

وهنا تجدر الاشارة الى ان موسكو التي لم تتمكن من الاستفادة من تصريحات ادلى بها الملك حسين في زيارة قام بها الى أربد في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٠ رأت انه يمكنها الان ان تعوض . وفي تلك الزيارة قال الملك في اجتماع جماهيري « لقد طلبنا طائرات واسلحة من الدول الشرقية » . ولم تعمم هذه التصريحات لان الاذاعة والصحف الاردنية منعت من نشر التصريحات .

اذا ، الملك حسين يريد زيارة موسكو ، والاتحاد السوفياتي مرحب ؟ كيف يتم ذلك . وكيف سيكون موقف مصر التي لم تترك تهمة

الا والصقتها بالملك ، عندما ياتي حليفها (الاتحاد السوفياتي) ويتشاور مع عدوها (نظام الملك حسين) . انها ستكون في موقف صعب خصوصا ان لقاء الملك بالمسؤولين السوفيات سيعني قبل اي شيء موافقة موسكو على المشروع ؟

كان السادات يطرح التساؤل تلو الاخر وهو يقلب التقارير التي وردته وبعضها من المخابرات المصرية التي تعمل سرا في عمان . ووصل الى قرار . ما هو هذا القرار ؟ انه نسف الزيارة .

كيف ؟

بدا القصر الجمهوري يتصل ظهر الخميس ٦ نيسان (ابريل) ١٩٧٢ بالوزراء ويبلغهم دعوة السادات الى عقد اجتماع عاجل لمجلس الوزراء بعد الظهر . وبدا الوزراء يتساءلون : لماذا هذا الاجتماع العاجل ؟ اذا كان من اجل الرد على مشروع الملك حسين فان ذلك حدث من خلال البيان الذي اصدره اتحاد الجمهوريات العربية ؟ واذا كان من اجل الخطاب الذي سيلقيه السادات في افتتاح المؤتمر الفلسطيني في المساء ، فان الرئيس عادة لا يتشاور مع وزرائه من اجل هذا الامر . اذا ، لا بد ان امرا ما حدث او سيحدث ، ومن يدري فقد يكون السادات يريد تغيير الحكومة .

لقد طرح الوزراء هذه التساؤلات وبدا كل منهم يعد حقيبته ويصفي اوراقه على اساس ان الحكومة ستتغير .

وتوجه الوزراء الى مقر رئاسة المجلس وجلسوا . وفي الثانية بعد الظهر وصل السادات وكان عائدا لتوه من المطار بعدما ودع الرئيس الروماني نيكولاي تشاوشيسكو الذي كان في زيارة رسمية لمصر استغرقت خمسة ايام وانتهت ببيان مشترك ومؤتمر صحافي عقده في القصر الجمهوري في القبة واعلن فيه ان رومانيا لا تزود اسرائيل بالاسلحة وان موافقة شعب فلسطين اساس اي حل للازمة وان محادثاته مع السادات لم تتناول مشروع الملك حسين بصفة خاصة .

القى السادات التحية على الوزراء وجلس ..وبدا يتحدث . قال انه قرر قطع العلاقات مع الاردن لم يرو لهم الظروف التي جعلته يتخذ هذا القرار ، لكنه في الوقت نفسه طلب اليهم الكلام .

كان السادات اصطحب معه الى جلسة مجلس الوزراء نائبيه حسين الشافعي والدكتور محمود فوزي ومستشاره لشؤون الامن القومي حافظ اسماعيل . ولاحظ الوزراء ذلك واستغربوا .

وبعدما اعلن السادات قراره طالبا من الحاضرين التعليق ، بدا الشافعي الذي لم يكن برغم انه نائب رئيس جمهورية عارفا بقرار السادات ، يتكلم . قال ما معناه : هل بحثنا في تاثير هذا القرار على الاردن . ان قطع العلاقات معناه انهاء الوجود المصري تماما في

الاردن . الن يطلب الملك في هذه الحال سحب البعثة المصرية وبين اعضائها من نعتمد عليهم في مدنا بالتقارير الاساسية . وهل ان الملك لن يطلب منا سحب محطة الرادار التي أقمناها هناك . اننا بقطعنا العلاقات مع الاردن نحقق للملك حسين ما يريده .

وفوجىء السادات بالشافعي يتحدث بهذا الاسلوب فحدق اليه قائلا : سبحان الله انت عاوز ايه ؟

ورد الشافعي مستعملا عبارة « يا اخ انور » : الموضوع مش موضوع قطع علاقات مع حسين . الموضوع هو أن هناك احتلالا مضت عليه خمس سنوات ومش عارفين نعمل ايه . الموضوع الاساسي هو اننا قاعدين منقول السوفيات السوفيات ... والسوفيات لا يعطون مصر شيئا . والفريق اول صادق يمكنه التكلم في هذا الموضوع .

ورد السادات : انا لا اقبل مزايدات . أنت تزايد علي .

واجابه الشافعي : اخ انور مش انا اللي ازايد عليك . انا الوحيد بين اعضاء مجلس قيادة الثورة اللي وقفت معك في محنتك .

وقال السادات : انت عاوز تجرنا الى معركة قبل اوانها ؟

ورد الشافعي : هذه النغمة لازم تنتهي . الحل الاساسي انك تبدأ عمليات محدودة ... عمليات فدائية داخل سيناء ، وان تنسق مع حركة المقاومة الفلسطينية تنسيقا كاملا .

وهنا ضرب السادات الطاولة بيده وقال ما معناه : هذا اسلوبي واللي مش عاوز يتعاون معايا يتصرف . أنا لا اجبر احدا على التعاون معـــي .

وتدخل محمود فوزي . وانتهت الجلسة التي تسنى للوزراء ان يروا فيها للمرة الاولى في حياتهم مناقشة حادة بين رئيس الجمهورية ونائبه. وانصرف الوزراء فيما توجه السادات والشافعي ومحمود فوزي وعزيز صدقي الى الصالون الملحق بقاعة مجلس الوزراء .

وفي هذه الجلسة قال فوزي مخاطبا السادات : تسمح لي اتكلم ؟

ورد السادات : تفضل .

وقال فوزي : انا اعترض على امرين . اعترض عليك وعلى الاخ حسين . الاخ حسين كان عليه الا يقول ما قاله امام الوزراء خصوصا ان بينهم عددا من الوزراء الجدد وليس من الضروري ان يسمعوا مثل هذا الكلام . واعترض عليك لانك كنت منفعلا اكثر من اللازم . وكنت افضل ان ياتيك الاخ حسين في منزلك ويقول لك الكلام الذي قاله بدل ان يقال ذلك في مجلس الوزراء .

وهنا قال الشافعي : لقد طلبت ثلاث مرات مقابلته (اي مقابلة السادات) من اجل ان احدثه في امور عدة ولم اوفق .

وبدا انذاك ان الموضوع صفي لان الشافعي ركب مع السادات في

سيارة الرئاسة وغادرا مبنى مجلس الوزراء . وبعد ذلك اعتكف الشافعي قليلا .

والذي جعل السادات ينفعل ويثور من كلام الشافعي هو انه كان قبل يوم تلقى من عبد اللطيف البغدادي وتسعة اخرين المذكرة التي تهاجم الاتحاد السوفياتي وتدعو الى قيام جبهة وطنية . وعندما تكلم الشافعي وردت ضمن اقواله عبارات واردة في المذكرة الامر الذي جعل السادات يظن ان ثمة اتصالا تم بين البغدادي والشافعي وان الاخير برغم عدم توقيعه على المذكرة قد يكون ضمنا متفاهما مع البغدادي .

بعد تلك الجلسة العاصفة لمجلس الوزراء التي استغرقت ثلاث ساعات وربعا توجه السادات الى مبنى الجامعة العربية ليعلن في خطاب افتتح به الدورة الطارئة التي عقدها المجلس الوطني الفلسطيني ان مصر قطعت كل علاقة لها مع النظام الاردني « حتى يتم تحديد الوسائل والخطط التي يجب ان تتحرك الأمة العربية من خلالها » .

وقال « ان مشاورات عربية واسعة تقوم بها مصر بغية تحقيق مواقف موحدة ، وان مصر ترى ان المقاومة المشروعة هي الممثل الوحيد لشعب فلسطين وان هذا الشعب لن يمثله احد في سوق الرقيق السياسي » .

واضاف مخاطبا اعضاء المؤتمر : « انتم ونحن لا سبيل امامنا غير القتال . وطريق شعب فلسطين هو طريق شعب مصر . ان مصر سوف تقاتل في البر والبحر والجو ومن بيت الى بيت اذا لزم الامر وفاء لحق الحرية وتكريما لشرف الارض » .

وصفق اعضاء المؤتمر طويلا لكلمة السادات التي استغرقت ثلث ساعة من دون ان يعرف احد منهم خلفية القرار الذي اعلن . وكان القرار دعما اساسيا لحركة المقاومة يضاف الى انه جعل الموقف المصري منسجما مع الموقفين الليبي والسوري .

ونجحت خطوة السادات ، فقد حدث بعدما اعلن قراره قطع العلاقات مع الاردن ان طلبت موسكو من الملك حسين ارجاء الزيارة — التي لم تعلن في الاصل — . وبعد يومين اتصل السادات بالسفير السوفياتي فينوغرادوف وطلب اليه ابلاغ زعماء الكرملين انه مسافر الى موسكو . واتصل السفير بحكومته . وتحدد يوم الزيارة . وسافر السادات .

هنا تجدر الاشارة الى ان فينوغرادوف تعمد ان يقول امام كثيرين — وكان مشروع الملك حسين اعلن — انه لا يفهم هذه المعارضة العنيفة الموجهة الى الاردن والملك حسين ، وانه — أي فينوغرادوف — ارسل

الى حكومته تقييما خلاصته ان الاتحاد السوفياتي مخطىء في تجاهل الملك حسين وان هذا التجاهل سيدفعه الى الارتماء أكثر فأكثر في احضان اميركا ، وانه (اي فينوغرادوف) يرى فتح حوار مع الملك .

وقال لي بعض الذين تحدث اليهم فينوغرادوف ان السفير يرى ان الهجوم المصري على الملك ومشروعه يعني تغييرات اساسية في الموقف ، لان المشروع هو تنفيذ لقرار مجلس الامن ويعطي الحكم الذاتي للشعب الفلسطيني وان مهاجمة مصر للمشروع والملك معناها ان مصر لا تريد قرار مجلس الامن .

واذا كان السادات نجح في الحصول على موقف جديد وجيد من الاتحاد السوفياتي في خلال زيارته ، الا انه لم ينجح في تضمين البيان المشترك عن تلك الزيارة فقرة ضد مشروع الملك حسين

وعندما قام الوفد الفلسطيني الذي تمثلت فيه جميع فصائل حركة المقاومة بزيارة لموسكو بدأت قبل ساعات من اعلان الرئيس السادات قراراته المتعلقة باخراج الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات، وهو في أي حال توقيت له معانيه ... عندما قام الوفد بالزيارة في ١٧ تموز (يوليو) ١٩٧٢ في رئاسة السيد ياسر عرفات تبين ان الكرملين ليس ضد مشروع الملك حسين . ومن خلال ملخص نشرته في عددها الصادر الاثنين ٧ اب (اغسطس) ١٩٧٢ مجلة « البلاغ » اللبنانية الوثيقة الصلة بحركة فتح لزيارة الوفد والمحادثات التي اجراها مع المسؤولين السوفيات واستغرقت ست عشرة ساعة يتأكد لنا اجتهادنا بأن الاتحاد السوفياتي ليس ضد المشروع الذي لم يسقط برغم الرفض العربي الواسع له .

ففي احدى الجلسات وجه بوناماريف سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي السؤال الاتي :

يقولون انكم تعارضون مشروع الملك حسين . فما هي الشعارات السياسية التي ترفعونها لمحاربة هذا المشروع . وما هي الوسائل . وهل لديكم مشروع مقابل لمشروع الملك . وما هو راي الدول العربية في هذا المشروع اذا وجد ؟

واجاب الوفد الفلسطيني بالاتي :

« ليس لدينا مشروع بديل . فنحن نؤمن بوحدة الضفتين . اما « الشكل الدستوري » لوحدة ابناء الضفتين فهو ليس بالمشكل في الوقت الحاضر . المشكل هو الاحتلال . ومشروع الملك حسين يحاول ان يطرح المشكلة على اساس انها اردنية ــ فلسطينية ، بينما هي في حقيقتها مشكلة بين الطرف الفلسطيني الاردني والعربي وبين اسرائيل والاحتلال الاسرائيلي . وقد نجحت المقاومة في ايقاف العمل بهذا المشروع الذي تعتبره مؤامرة اميركية ــ صهيونية . ان الهدف من هذا

المشروع هو خلق « شخصية فلسطينية » تابعة للامبريالية وخلق كيان فلسطيني بعيدا عن « الهدامين » كما أشار نيكسون في بيان في مطلع ١٩٧٢ . أن المؤامرة علينا هي تحويل قضيتنا من قضية شعب وتحرر وطني الى قضية حدود » .

كذلك وجه الوفد السوفياتي الاسئلة الاتية :

ــ هل يمكن ان يكون في امكانكم الضغط على الملك والاستناد الى حكومة مثل حكومة سليمان النابلسي ؟

ــ هل يمكن الاعتماد على تطور الاوضاع في الاردن ؟

ــ تقولون ان الثورة الفلسطينية جزء من الثورة العربية . وفي هذه المرحلة عندما نتكلم عن الثورة العربية فانما نتكلم عن الثورة الاجتماعية .

وقد يكون الوفد السوفياتي ــ وحضور بوناماريف الجلسات وهو أمر لم يكن مألوفا في الزيارات السابقة أعطى المحادثات أهمية اساسية ــ وجه الى الوفد الفلسطيني اسئلة اكثر دقة وحساسية ما دامت المحادثات جرت « في جو من الصراحة الكاملة » .

وقد يكون الوفد الفلسطيني حدد مواقف اساسية من خلال رده على الاستفسارات السوفياتية . . . ذلك ان الاسئلة (وعددها عشرة) التي وجهها بوناماريف كانت خطية وطلب ان تكون الاجوبة ايضا خطية.

الا ان الامر الاساسي هو أن الوفد السوفياتي لم يحدد رأيا قاطعا في مشروع الملك حسين ؛ او أن هذا الراي حدد لكنه كان من جملة الآراء ووجهات النظر التي تفرض الظروف الابقاء عليها طي الكتمان . وبين هذه الظروف وعد تلقاه الوفد الفلسطيني من الوفد السوفياتي بأن يبحث في أمر فتح مكتب لمنظمة التحرير في موسكو بكثير من الاهتمام على ان تحدد المقاومة تصورها واراءها حول اشكال عمل المكتب وتصميما دقيقا لمهماته .

. . . ويبقى انه لولا القرار الذي اتخذه السادات بقطع العلاقات مع الاردن ؛ لكانت زيارة الملك حسين ستتم . ولكان الاتحاد السوفياتي ربما حدد موقفا اقرب الى الايجابية منه الى السلبية من مشروع الملك .

٧ – الشيوعيون المصريون ... والسادات

في خلال خمس عشرة سنة من الخطب والقرارات والاجراءات اوجد الرئيس جمال عبد الناصر في مصر جيلا يساريا بل انه جعل هذه المرحلة مرحلة يسارية . فالحملات الدائمة من الخطب التي كان يلقيها ضد الاستعمار كانت تمثل خطا يساريا . والقرارات الاشتراكية التي اصدرها كانت تمثل خطا يساريا . والاجراءات التي كانت تطال في استمرار مواقع اليمين في مصر كانت بالفعل تمثل خطا يساريا .

ووسط ذلك كله كان الانفتاح الذي لا حدود له على المعسكر الاشتراكي يقابله انغلاق او شبه انغلاق على المعسكر الغربي ، يعمق الخط اليساري .

وجاء التعاون الاستثنائي بين مصر والاتحاد السوفياتي على الصعيدين الاقتصادي والعسكري ليجعل من اليسار قضية تناقش بدقة .

ان جمال عبد الناصر جعل في الخمس عشرة سنة من مصر تربة يسارية خصبة الا انه في الوقت نفسه ام يسمح للشيوعيين بأن يتحركوا مستندين الى ان النظام يساري وما دام يساريا فانه يجب ان يرعاهم بل حتى يشركهم في المسؤولية .

لقد حدث العكس تماما . رمى عبد الناصر الشيوعيين في السجون فترة . وبعد عملية ترويض قاسية ابتكرت فيها الاجهزة اساليب اكثر قساوة ، اعلن الشيوعيون مبايعتهم لنظام عبد الناصر من خلال اعلانهم حل تنظيماتهم . قد تكون المبايعة تمت عن قناعة ، او بسبب التاثير الذي تركته الوسائل القاسية التي مارستها الاجهزة ، الا انهم في اي حال اعتبروا مبايعين . وقد تصور البعض ان عبد الناصر سيكافيء المبايعين هؤلاء بأن يشركهم في الحكم ، لكن ذلك لم يحدث ، وكل ما فعله انه وزعهم على مواقع في الدولة تاركا لمحمد حسنين هيكل امر معالجة النخبة المثقفة فيهم . وقد نجح هيكل في انه خصص لهم مجلة «الطليعة»

منبرا مستقلا عن « الاهرام » يقولون فيه او عبره اراءهم شرط ان ترضى في النهاية عنها الرقابة .
اما الرئيس انور السادات فانه خطا خطوة متقدمة حيال الشيوعيين المصريين . صحيح ان الخطوة كانت اضطرارية ، الا انها في الوقت نفسه كانت ضرورية للاسباب الاتية :
اولا — لقد اتسع نطاق الفتور في العلاقات مع الاتحاد السوفياتي في الاشهر الاولى من ولاية السادات خصوصا بعد الموقف المرن الذي وقفه السادات من احداث السودان عندما قام الانقلاب الشيوعي في ١٩ تموز (يوليو) ١٩٧١ . فبدلا من أن يقف السادات — هكذا تصورت موسكو — مع حركة الرائد هاشم العطا او على الاقل يتفهمها ، او على الاقل الاقل لا يساعد على ضربها ، فانه شارك مشاركة اساسية في ضرب الانقلاب الشيوعي وفي الوقت نفسه اوحى الى السوفيات بانه في هذا الموضوع لا يستطيع الا ان يكون محايدا .
ثانيا — ان السادات أعلن منذ تسلم الحكم انه سيكون لكل المصريين وانه يريد تكريس الوحدة الوطنية . وفي هذه الحال لا يمكن اغفال اهمية الشيوعيين المصريين .
ثالثا — لقد كان علي صبري في نظر الداخل والخارج انه « رجل موسكو » في مصر وكان في الوقت نفسه يمارس دور احتواء الشيوعيين . وكان البعض مقتنعا بذلك ، والبعض الاخر ينظر الى الامر على انه مناورة سياسية لا اكثر ولا اقل . وعندما ضرب السادات مجموعة علي صبري تضايق السوفيات وكثر اللغط في صفوف المصريين . منهم من قال ان ضرب علي صبري معناه ان السادات يريد أن يسير قدما في الاتجاه اليميني . ورد السادات على ذلك في شكل عملي . اشرك الشيوعيين المصريين في الحكم ، وهو امر يحدث للمرة الاولى في تاريخ الثورة المصرية ، لان عبد الناصر كان دائما ضد اشراك الشيوعيين في الحكم . وكثيرا ما رفض المناقشة في هذا الموضوع حتى مع السوفيات الذين كانوا يقولون له : الشيوعيون يشاركون في الحكم في سوريا والسودان اما في مصر فدورهم منبري . اي أن كل ما هو مسموح لهم به هو التحدث عبر المنابر الصحافية وعبر مجلتهم التي انشأها خصيصا لهم محمد حسنين هيكل وهي « الطليعة » .
لقد أشرك السادات الشيوعيين في الحكم وبذلك كسب الى جانبه قطاعا عريضا من المثقفين المصريين . وفي الوقت نفسه ارضى السوفيات خصوصا ان عملية الاشراك جاءت بعد ضرب علي صبري وافراد مجموعته .
وكان السادات في منتهى الذكاء . فبدلا من ان يترك الشيوعيين يكثرون من النقد والتنظير لحكمه واجراءاته جعلهم عبر من يمثلهم في

الحكم موافقين على كل اجراءاته ، مؤيدين ، بل مبايعين .
والذي شجع السادات على اشراك الشيوعيين في الحكم كونهم ليسوا حزبيين . ولو كانوا حزبيين لما كان اشركهم .
وثمة ناحية مهمة هي ان اشراك الشيوعيين في الحكم جاء في وقت كان السادات بدأ يفتح ابواب السجون ليخرج الاخوان المسلمون منها . وهكذا فانه باخراج الاخوان المسلمين وسائر العناصر اليمينية والمعارضة للسوفيات ، واشراك الشيوعيين في الحكم ، جعل المعادلة تستقيم بعض الشيء .
وبداية اشراك الشيوعيين في الحكم جاءت يوم ١٤ ايار (مايو) ١٩٧١ باسناد منصب نائب وزير التخطيط في الحكومة التي الفها الدكتور محمود فوزي الى الدكتور اسماعيل صبري عبدالله ، الذي كان في ذلك الوقت في موسكو . وقد قيل انذاك ان الدكتور اسماعيل اعتذر عن قبول المنصب وبعث الى السادات من موسكو برسالة في هذا الشأن ثم تبين انه وافق وجاء الى القاهرة واقسم اليمين الدستورية .
بعد ذلك بثلاثة أيام اشرك السادات في الحكم شيوعيا اخر هو الدكتور فؤاد مرسي اذ عينه عضوا في اللجنة الموقتة للامانة العامة للاتحاد الاشتراكي العربي التي تألفت برئاسة الدكتور عزيز صدقي الذي كان يشغل في ذلك الوقت منصب نائب رئيس الحكومة ووزير الصناعة.
في تلك الفترة كنت في القاهرة . وكان الامر مثيرا بالنسبة الي كما هو بالنسبة الى كثيرين . فليس بالامر العادي ابدا ان يشارك الشيوعيون في الحكم بعد عشرين سنة من قيام الثورة المصرية تخللتها فترات تعرضوا في خلالها للاعتقال والتشريد والتعذيب . ولقد حرصت على ان اتحدث الى الدكتور فؤاد مرسي لاتف منه على هذا التحول في نظرة الحكم المصري الى الشيوعيين . اما الدكتور اسماعيل صبري عبدالله فكان من الصعب التحدث اليه لانه كان في موسكو . كذلك حرصت على ان اتحدث مع السيد خالد محيي الدين «البكباشي الاحمر» الذي ارتضى منذ ان ابعد عن المشاركة في الحكم ان يعمل في السياسة متجردا من صفته التاريخية كعضو في مجلس قيادة ثورة ٢٣ يوليو (تموز) ١٩٥٢ .
وعندما ضرب السادات مجموعة علي صبري كان خالد محيي الدين خارج مصر . وعندما عاد أعلن باسم مجلس السلام المصري الذي يرئسه تأييد السادات . وكان ابلغ السادات قبل ذلك تأييده بصفته الشخصية كواحد من التاريخيين أعضاء مجلس قيادة الثورة .
بدأ خالد محيي الدين يقرأ الماركسية في الاربعينات . ولم يكتشف امر ماركسيته عندما قامت ثورة ١٩٥٢ . لكن هذا الامر اكتشف بعد ذلك واصبح اللقب الذي اطلق عليه « البكباشي الاحمر » شهيرا أكثر من

الاسم ،
كان لقائي بخالد محيي‌الدين مساء الاربعاء ٢٦ أيار (مايو) ١٩٧١ اي بعد قرابة اسبوعين من انفجار الصراع الذي انتهى الى انتصار السادات على مجموعة علي صبري . جلسنا على شرفة منزله في حي الزمالك وهو حي الارستقراطية المصرية . وكان خالد محيي‌الدين يتأهب للانتقال الى مسقط راسه « كفر شكر » ليستعد لانتخابات الاتحـــاد الاشتراكي العربي التي قرر السادات اجراءها من جديد . وخالد محيي الدين عضو مجلس أمة وعضو اللجنة المركزيـــة للاتحاد الاشتراكـــي بالاضافة الى نشاطاته اليسارية التي لا حدود لها .

ولم يكن يخطر ببالي ولا حتى ببال خالد محيي‌الدين انه سيمنع من خوض الانتخابات ويوضع لبعض الوقت في قيد الاقامة الجبرية . لم يكن ذلك يخطر بالبال بعد الخطوة التي خطاها السادات حيال الشيوعيين . ولم يكن يخطر بالبال ايضا انه لن يكتفي بمنع خالد محيي‌الدين من خوض الانتخابات ووضعه في قيد الاقامة الجبرية وانما اعتقاله ايضا ثم الافراج عنه بعد ذلك واعادته الى الاقامة الجبرية . ويوم تم الافراج عنه تعمد المدعي العام القول انه وان كان خالد محيي‌الدين مذنبا الا ان الافراج عنه تم لاسباب خاصة لا يمكن الافصاح عنها .

بعد ذلك زالت « الاسباب الخاصة » على ما يبدو واصبح خالد محيي‌الدين حليفا من نوع معين لنظام السادات .

وفي الجلسة التي استغرقت قرابة ساعتين قال خالد محيي‌الدين لي كلاماً بعضه لم يحن الوقت لنشره .

وقلت لخالد محيي‌الدين : نسمع عن مجلس السلام المصري الذي ترئسه ولا نعرف طبيعة عمل هذا المجلس .

واجاب موضحا محددا :

« للمجلس مرحلتان : الاولى عندما انشيء سنة ١٩٥٠ مع كل حركات السلام العالمية بعد ميثاق ستوكهولم سنة ١٩٤٩ . اما المرحلة الثانية فبدأت سنة ١٩٦٥ حين أعيد تشكيل المجلس ، ذلك انه بعـــد صدور الميثاق الوطني الذي كرس السلام عقيدة الدولة ، وبعد بروز الاتحاد الاشتراكي ، لم نستطع تجاهل هذه الاوضاع وصممنا على اعادة تشكيل المجلس وقبلنا فيه كل التيارات . واصبح المجلس يضم بالفعل عناصر تمثل معظم القيادات الفكرية والسياسية .

« وسنة ١٩٦٨ بعد انتخابات الاتحاد الاشتراكي تبين ان ١٠٦ من اعضاء المجلس الذي يتألف من ١٢٠ انتخبوا اعضاء في اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي . الا انه بعد الاحداث الاخيرة التي شهدتها مصر (الاستقالات الاجماعية وضرب علي صبري وافراد مجموعته) لا بد من اعادة تشكيل المجلس لان بعض اعضائه أعتقل » .

وقلت لخالد محيي الدين ، وهو برغم ماركسيته رئس سنة ١٩٦٦ بعثة الحج المصرية ولا يتناول الكحول : هل تصلح الماركسية كنظام لدولة مثل مصر ؟

وأجاب :

« انني أؤيد الماركسية سياسيا ، اما الالحاد والايمان فانهما قضيتان اجتماعيتان . واذا كان المقصود بالماركسية اللينينية كتابات ماركس ولينين فقط فمن الصعب تطبيقها . ان الماركسية اللينينية هي فكر في جوهرها للمجتمعات المتقدمة المتطورة . وهذا لا يعني ان المنهج لا يصلح للتطبيق . انه يصلح ، انما على الماركسي في دولة مثل مصر ان يبحث عن اسلوب وطريقة معينة لتطبيق هذا الفكر على واقعه مراعيا الظروف الاقتصادية والاجتماعية ودرجة التطور في الوعي .

« وفي بلد مثل مصر لا نستطيع مثلا تجاهل قضية الدين . وفي تقديري ان هذا الموضوع لم يعد قضية بالنسبة الى عدد من الاحزاب الشيوعية . وعلى سبيل المثال فان الحزب الشيوعي الايطالي لم يعد يشترط موقف الانسان الفلسفي لقبول عضوية الحزب . اصبح يرى ان المعركة في جوهرها انما هي معركة سياسية .

« ان الاشتراكية العلمية استفادت في السنوات الاخيرة بكثير من التجارب ، ولم يعد هناك طريق محدود لسلوكه . هناك مبادىء عامة وعلى الثوريين ان يبحثوا وفق ظروف بلادهم عن طريق يختطوه لانفسهم لتحقيق هذه المبادىء » .

واضاف :

« في تقديري ان ثلاثة ارباع الميثاق الوطني في مصر مبنية على أسس ماركسية وان كانت كلمة ماركسية لم ترد اطلاقا » .

وسألت خالد محيي الدين عما يقصد بـ « المواطن الثوري » ، وكان خلال لقائنا ردد هذه العبارة مرارا .

ورد موضحا :

« انه الذي يضع اهدافا ممكنة التحقيق ويجمع الجماهير وراءها ويعبئها لتحقيقها . وفي رأيي ان الحركة الوطنية العربية محتاجة الى اعادة نظر شاملة في استراتيجيتها » .

عبارة اخرى رددها ايضا خالد محيي الدين مرارا خلال لقائنا وهي « واجب اليسار » ، وعندما استوضحته ماذا يعني ، اجاب :

« ان القوة الرئيسية في الحركة الوطنية المصرية والحركة الوطنية العربية هي اليسار . ولذلك فعلى اليسار في مصر واجب تاريخي وهو تأييد بيان السادات في مجلس الامة الذي تعهد بتأمين الحرية والديموقراطية والمكتسبات الاشتراكية . وعلى اليسار ان يخوض المعركة من اجل ان تكون الكلمات عن المعركة والاشتراكية والديموقراطية

حقائق فعلا .

« ويجب الا يغيب عن البال ان هناك قوى تحاول اعطاء هـذه الكلمات تفسيرات معينة . ولذا يجب النضال لربط حركة التحرر في مصر بحركة التحرر العربي » .

وما هو مفهومك كماركسي للحرية والديموقراطية اللتين يطرحهما السادات شعارا ويعد بتحقيقهما ؟

اجاب :

« اننا نرى ان الحرية والديموقراطية معناهما تمكين جماهـير الشعب المصري وخاصة العمال والمثقفين الثوريين من ممارسة دورهم في المشاركة في شؤون السلطة ومراقبتها ، وتدعيم التنظيمات النقابية والتعاونية التي تضم العمال والفلاحين ، والغاء وصاية السلطة على اتحاد نقابات العمال والاتحاد التعاوني للفلاحين » .

والاتحاد الاشتراكي كيف تنظر كماركسي الى مستقبله ؟

واجاب خالد محيي‌الدين :

« ان الاتحاد الاشتراكي في مرحلته المقبلة يجب ان يكون تعبيرا عن القوى الوطنية بحيث يكون لكل طبقة ان تعبر عن مصالحها سواء في صحف الاتحاد الاشتراكي او التنظيمات التابعة له .

« ولكي يكون الاتحاد الاشتراكي تنظيما حقيقيا فان المطلوب من امنائه بذل نشاطات لاكتساب انصار واقناع مواطنين بالاشتراكية . ذلك انه بموجب قانون الاتحاد يشترط في اعضاء مجالس ادارات النقابات والتعاونيات والاتحادات والنوادي الرياضية وغيرها ان يكونوا اعضاء في الاتحاد الاشتراكي ، ومثل هذا الامر يخلق نوعا من الوصاية الالزامية على هذه الهيئات والاتحادات » .

ان اهتمامات خالد محيي‌الديـن ومجلس السلام الذي يرئسه بالقضية الفلسطينية كثيرة . وسألته عن رأيه كماركسي في مستقبل هذه القضية فأجاب :

« لا مستقبـل للقضية الفلسطينيـة الا اذا وجد حـل لعدوان ١٩٦٧ (. . .) . اننا اذا لم نتمكن من ان نهزم هذا العدوان عسكريا او سياسيا فلا مستقبل القضية الفلسطينية » .

اذا ، فان رد الفعل الاول لدى ماركسي كخالد محيي‌الدين كان ، بالاضافة الى الوقوف مع الرئيس السادات ضد علي صبري ومجموعته، دعوة اليسار المصري الى خوض المعركة لتحويل وعود السادات عن الديموقراطية والحرية الى حقائق . ومعنى ذلك ان الماركسيين ، أو على الاقل الاتجاه الذي يمثله خالد محيي‌الدين ، كان ضد علي صبري ، وفي الوقت نفسه فانه يشترط من دون ان يستعمل كلمة « شرط » في مقابل تأييده ان يحول السادات وعوده عن الديموقراطية والحرية الى

الموقف نفسه من مجموعة علي صبري وقفه الماركسي الآخر الدكتور فؤاد مرسي الذي أشركه السادات في الحكم بعد حركة ١٥ ايار (مايو) ١٩٧١ عضوا في الامانة العامة المؤقتة للاتحاد الاشتراكي العربي .

وقبل ان اسجل حوارا بيني وبين الدكتور فؤاد مرسي جرى في منزله الكائن في حي الزمالك ، حي الارستقراطية المصرية ، ينبغي ان اقدمه في شكل سريع . كان احد سكرتيري الحزب الشيوعي المصري* وفي مطلع كانون الثاني (يناير) ١٩٥٩ قبض عليه ضمن مجموعة من القيادات الشيوعية بينها الدكتور اسماعيل صبري عبدالله والدكتور عبد العظيم انيس ومحمود أمين العالم ومحمد سيد أحمد ونبيل الهلالي. كانت المجموعة تضم ٦٤ وعرفت قضيتهم آنذاك بـ « قضية الحزب الشيوعي المصري » .

حكم عليه بالسجن ١٠ سنين امضى ٥ سنوات ونصفا منها بين ابو زعبل والواحات أهم سجنين في مصر ، ثم الغيت بقية المدة .

بعد خروجه من السجن عين رئيس مجلس ادارة شركة ، واختاره الرئيس الراحل جمال عبدالناصر ليكون احد النواب العشرة المعينين في مجلس الامة . بعد ذلك عين رئيسا لمجلس ادارة البنك الصناعي . وعندما تقرر تعيين أمانة موقتة للاتحاد الاشتراكي العربي بعدما ضرب السادات مراكز القوة كان فؤاد مرسي الذي سبق له ان تولى تدريس مادة الاقتصاد السياسي في جامعة الاسكندرية احد اعضاء هذه اللجنة التي رئسها الدكتور عزيز صدقي .

كيف كانت وجهة نظر الدكتور فؤاد مرسي كماركسي مصري في الصراع الذي انتهى الى انتصار السادات وسقوط علي صبري ؟

كان ذلك هو ما أبحث عنه لكن اللقاء تشعب. وتفرعت من السؤال الاساسي اسئلة اخرى تعطي اجوبة فؤاد مرسي عنها صورة شبه واضحة عن موقف الماركسيين المصريين من نظام السادات .

وبدأ فؤاد مرسي الحديث في خلال لقائنا عصر الثلثاء ٢٥ أيار (مايو) ١٩٧١ اي بعد قرابة أسبوع من تعيينه ، في منزله قائلا :

« يجب أن نسجل انه للمرة الاولى في تاريخ ثورة ٢٣ يوليو (تموز) ١٩٥٢ يتقدم النظام على التعاون مع الاشتراكيين الماركسيين بصورة رسمية وعلى أعلى مستويات السياسة والدولة (...) . اننا نقيّم

* كان الاسم الحركي لفؤاد مرسي هو « الرفيق خالد » ، وكان الاسم الحركي لاسماعيل صبري عبدالله هو « الرفيق عاصم » .

هذا الحدث تقييما موضوعيا ونعتبره انعطافا حاسما ومهما في تاريخ الثورة المصرية له دلالته الخاصة بالوحدة الوطنية والاتجاه الى توسيع الحريات وتأكيدها . ولذلك فنحن نرحب به ترحيبا كبيرا ونقبل على هذا التعاون بالروح نفسها وهي روح الامل في ان يكون دورنا مساعدا على دعم الثورة المصرية وتعزيز صفوف القوى الوطنية والاتجاه الى تعزيز الممارسة الديموقراطية في البلاد » .

واضاف موضحا : « ان موقفنا هذا ينبع من نقطة مبدئية وهي ان الرئيس السادات يقف على راس نظام وطني خضع طول السنوات الماضية لاختبارات مريرة فاثبت بما لا يقبل الشك موقفه الوطني المعادي للاستعمار . هذا الموقف الذي لا يمكن ان يتبدل لمجرد السعي من اجل تحقيق حل سلمي لصراع مصر والدول العربية مع اسرائيل ومن ورائها الولايات المتحدة » .

هنا أود تسجيل ملاحظة تبدو الى حد ضرورية قبل ان نكمل الحديث . ان الدكتور فؤاد مرسي يتحاشى وهو يتحدث تصنيف نفسه ورفاقه بأنهم « الشيوعيون المصريون » وقال لي انه يفضل تسمية « الماركسيون المصريون » بدلا منها .

وانطلاقا من هذه الملاحظة قلت لفؤاد مرسي : من يمثل الدكتور اسماعيل صبري عبدالله في الحكومة ؟

وقد طرحت هذا السؤال في وقت كان الماركسيون المصريون ، وبينهم فؤاد مرسي ، يستبعدون الرواية القائلة ان اسماعيل صبري عبدالله بعدما بلغه وهو في موسكو نبأ تعيينه نائبا لوزير التخطيط بعث برسالة الى السادات يعتذر فيها عن قبول المنصب ، ويقولون ان الرجل سيعود بعد أن ينهي علاجه الصحي .

ورد فؤاد مرسي على سؤالي المتعلق بالجهة التي يمثلها في الحكومة اسماعيل صبري عبدالله ، قائلا :

« المعروف ان اسماعيل صبري عبدالله رجل اقتصاد وسياسة يتبنى الاشتراكية العلمية ويناضل من اجلها منذ مطلع شبابه ودخل السجن مرات دفاعا عنها .

« من المعروف ايضا ان في بلادنا تيارا اشتراكيا ماركسيا قبل بالتعاون مع النظام منذ سنة ١٩٦٤ ودعا منذ حل الحزب الشيوعي سنة ١٩٦٥ الى توحيد الاشتراكيين المصريين على مختلف الاصول والمدارس الفكرية في تنظيم اشتراكي واحد . واستمر هذا التيار مخلصا لتلك الدعوة الى الان » .

بعد ضربه مراكز القوة اطلق السادات شعارات راوحت بين التهديد بالفرم والعمل من اجل ايجاد وحدة وطنية حقيقية . وعندما سألت فؤاد مرسي رأيه في هذه الشعارات اجاب :

« ما يعنينا حاليا هو القضية الوطنية والنضال ضد الاستعمار وبالتحديد الوصول الى حل للصراع العربي ـ الاسرائيلي . ومن ثم فان كل القضايا الاخرى تعتبر ثانوية بالنسبة الى القضية الاساسية ولا نعالجها الا من زاوية خدمتها للقضية الاساسية وهي قضية النضال ضد الصهيونية والامبريالية . ولذلك فاننا نؤكد على معاني الوحدة الوطنية ونراها مطلبا لازما للمعركة ، كما نؤكد على معنى الديموقراطية ليس فقط في ممارسة الجماهير للحريات العامة بل ايضا في ضرورة مشاركة الطبقات الشعبية في الحكم بمعنى المشاركة في صياغة القرارات الحاسمة التي تمس مصير البلاد ومستقبلها . ومن هنا فنحن نرحب بما يطرحه الرئيس السادات من برامج ترمي الى تعزيز الوحدة الوطنية والديموقراطية . ومن المؤكد ان المساعي لاعادة بناء الدولة على اسس عصرية انما هي مساع مفيدة لكننا نفهم الدولة العصرية بصفة كونها دولة الاشتراكية والديموقراطية . وبالتالي فلا تعارض بين الاهتمام باعادة بناء الدولة وبين القضية المحورية وهي قضية النضال ضد الاستعمار » .

قاسى الشيوعيون المصريون كثيرا قبل ان يحلوا حزبهم ويتشتتوا . وحاولت الوقوف من الدكتور فؤاد مرسي على رأيه في عودة الاحزاب الى العمل بما فيها الحزب الشيوعي ، انطلاقا من مناداة السادات بالحرية والديموقراطية .

وحول هذه النقطة قال :

« ما زالت صيغة الاتحاد الاشتراكي العربي والجهاز الطليعي الذي في داخله صيغة مناسبة . والعبرة هي في مدى النجاح (...) ليس في اعادة بناء الاتحاد الاشتراكي على اسس ديموقراطية وانما ايضا النجاح في اعادة تشكيل جهاز الطليعة الاشتراكية كتنظيم حزبي علني لصفوة المناضلين من اجل الاشتراكية في البلاد » .

لكن داخل الاتحاد الاشتراكي مواقع كثيرة لليمين ، قلت لفؤاد مرسي . واجاب :

« الصيغة المصرية للتنظيم ، وهي صيغة الاتحاد الاشتراكي ، تفرض من البداية تواجد اليمين . واعني هنا اليمين الجديد اي تلك الفئات من الرأسمالية الوطنية . وهي وان اتخذت مواقف معادية للاستعمار والصهيونية الا انها لا تحبذ طريق التطور الاشتراكي وتفضل ان تسير البلاد في طريق « رأسمالية » .

لقد كثرت التصنيفات للاحداث التي جرت يوم ١٥ مايو (ايار) ١٩٧١ . البعض اعتبرها ثورة جديدة . البعض الآخر اعتبرها حركة تصحيح . اما الدكتور فؤاد مرسي فيقول ان ما جرى « كان خلافا على اسلوب الحكم انعكس على اسلوب معالجة القضايا الاساسية للبلاد

وخاصة القضية الوطنية » .

السؤال الاساسي هو كيف يقبل الماركسيون المصريون التعاون مع السادات في حين انه ضرب صديقهم — او هكذا كان يتصرف ويصور ذلك للناس — علي صبري ، وضرب معه ايضا عددا من اليساريين القياديين والكتاب .

وأجاب فؤاد مرسي عن هذا السؤال بالآتي :

« هناك تناقض ومأساة في الموضوع . ان جزءا من النظام الذي كان قريبا منا موضوعيا ويطرح قضايا وشعارات قريبة منا ، كان بعيدا عنا ذاتيا . موقفه منا قبل ١٥ مايو (ايار) معروف . انه لم يقبل في صفوف الاتحاد الاشتراكي الا الاقلية منا . لم يسمح بتواجدنا في المسؤوليات المهمة على المستوى السياسي، على عكس الرئيس السادات الذي اتاح لنا فرص العمل الوطني وعلينا ان نبرهن اننا جديرون بذلك» .

واضاف : « المعروف ان الماركسيين قبلوا داخل الاتحاد الاشتراكي بصفتهم الفردية وليس بصفتهم التنظيمية . ولهذا فان اكثرية الماركسيين لا تزال خارج الاتحاد الاشتراكي » .

وقبل ان انتقل الى سؤال مكمل لهذا قال فؤاد مرسي : « قبل ١٥ مايو (ايار) لم يكن في الحكم ماركسي واحد » .

السؤال المكمل هو معرفة رأي الماركسيين المصريين في القوى التي رحبت بعملية ضرب علي صبري وافراد مجموعته . ذلك بأن هذه القوى سارت في ترحيبها وتفسيرها شوطا بعيدا .

فوق ذلك ان البعض طرح « جماهير ١٥ مايو » كجزء منفصل عن جماهير ٩ و١٠ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ التي تمسكت بعبدالناصر قائدا برغم الهزيمة . فما هي نظرة الماركسيين المصريين الى ذلك ؟

ورد فؤاد مرسي قائلا :

« ان قوى اليمين في مصر لا تتمتع فقط بمراكز مهمة في الدولة والاقتصاد بل تتمتع ايضا بقوة التقاليد التي لم تقاوم ، وبقوة الذكاء المكتسب طوال عهود قديمة . ولذا فان قوى مضادة كثيرة تحركت في اعقاب اقدام السادات على تحطيم مراكز القوة السابقة ، وسيطرته على مقاليد الامور ودعوته الجماهير الى تبني قضايا الحرية والديموقراطية . وبادرت الى محاولة ركوب هذه الموجة وتوجيهها بحيث تتحول حركة انور السادات الى تصفية الثورة بكل مكتسباتها الوطنية والتقدمية . ولقد ضربت هذه القوى على نغمة الوحدة الوطنية كيما تتسلل الى صفوف الجماهير ، كما حاولت ان تحطم علاقات الصداقة الشريفة بيننا وبين الاتحاد السوفياتي . والعجيب في هذه القوى انها وهي المعروفة بعدائها لقضية الوحدة العربية ارتدت فجأة ثياب الدفاع بحماسة عن هذه الوحدة . ولقد رد عليهم انور السادات كما يجب في

الخطاب الذي القاه يوم ١٩ مايو (ايار) ١٩٧١ في مجلس الامة عندما قال : « نحن على طريق عبدالناصر انصالا بيوم ٢٣ يوليو (تموز) ١٩٥٢ واستمرارا ليوم ٢٣ يوليو ١٩٦١ » (يوم صدور القرارات الاشتراكية).

وكان ملاحظا ان مواقف الماركسيين المصريين من الاحداث التي جرت ليست، واضحة للعالم الخارجي . وقلت لفؤاد مرسي : هل ان هذه المسؤولية تقع على عاتقكم كقوة تقدمية ام ماذا ؟

واجاب : « لا شك في ان المسؤولية تقع على عاتقنا . ولا يمكن ان نكلف غيرنا تحليل مواقفنا وشرحها اذا لم نقم نحن بذلك اولا . لكننا نعتقد ان في استطاعة القوى الوطنية والتقدمية في العالم العربي بما تمتلك من علم وخبرة سياسية ان تقوم بدورها في هذا الصدد . ولقد كانت هذه القوى وفي مقدمتها الاحزاب الشيوعية العربية اقوى لسان عبر عن حقيقة الاوضاع في بلادنا واكبر قوة في العالم العربي وقفت الى جانب الشعب المصري . وما زلنا نتطلع الى دورها في الوقت الراهن في ضوء التطورات المهمة والدقيقة التي مرت بها مصر » .

وما هو تصور الماركسيين المصريين لمخطط الاستعمار بالنسبة الى مصر والمنطقة العربية ؟ سألت فؤاد مرسي .

اجاب :

« في تصوري ان الاستعمار العالمي وبالذات الولايات المتحدة تسعى بكل ما تملك لاسقاط النظام الوطني في مصر . كان هذا مخطط الولايات المتحدة ايام عبدالناصر . وما زال المخطط على حاله في ظل انور السادات . واعتقادي الراسخ هو ان الولايات المتحدة سعت وما زالت تسعى لاسقاط نظام انور السادات . ولا يغطي على هذه رسائل يبعث بها نيكسون او روجرز او زيارات قام بها سيسكو سنة ١٩٧٠ واخرى قام بها روجرز وسيسكو قبل ايام . (قام روجرز بزيارة مصر في ايار (مايو) ١٩٧١) .

« وفي سبيل الوصول الى هدفها فان الامبريالية الاميركية تسعى بذكاء غير عادي لتهيئة المناخ الملائم للوصول الى ما ترمي اليه واخص بالذكر هنا ثلاثة امور جوهرية :

« الاول — تسعى الامبريالية الاميركية لاستمالة اجزاء مهمة من القوى الوطنية وخاصة من الراسمالية الوطنية وتستخدم في مسعاها اسلحة عدة لاغراق هذه القوى واجتذابها مثل شعار الحل السلمي والتنمية والرواج والاستثمارات التي سوف تتدفق على البلاد ، وافضلية الطريق الراسمالي للتطور ؛ وكفاية المشروع الفردي .

« الثاني — تسعى الامبريالية الاميركية لشق صفوف القوى الوطنية وبذر الشقاق بين فئاتها كما تسعى لتعميق هوة اي خلاف يطرا بين هذه القوى .

« الثالث ــ تسعى الامبريالية الاميركية لضرب العلاقــات بين النظام الوطني والدول الصديقة وفي مقدمها الاتحادالسوفياتي، وتستخدم في هذا كل الاسلحة المتاحة من التلويح بخطر الشيوعيــة الى التنديد بالتواجد السوفياتي في البلاد الى التشهير بالمعونات الاقتصادية بدعوى عبء الديون على الاقتصاد المصري .

« ولا شك في ان هذا المخطط يستفيد من اي تناقضات موضوعية داخل البلاد ، كما انه يحاول استغلال رغبة بعض القوى الوطنية في تحقيق السلام والتصدي لمهمات التنمية والتعمير » .

ويضيف فؤاد مرسي :

« ان كل محاولات الامبريالية الاميركية ومن ورائها القوى المضادة في الداخل ترمي الى طمس معالم القضية الوطنية او طرحها الى الوراء ، وتقديم مشاكل اخرى تحتل المكانة الاولى . ومهمة كل القوى الوطنية هي ان تكون على اكبر قدر من اليقظة لفضح مخططات الاعداء والقوى المضادة ومواجهتها » .

وفي نهاية هذا الحديث قال فؤاد مرسي : « نؤكد ان اهم مــا يشغلنا يجب ان يكون القضية الوطنية . واعز ما نملك لمواجهة تطورات هذه القضية هو التمسك بوحدة القوى الوطنية والحرص عــلى عدم المساس بها او الانزلاق الى صراعات لا يستفيد منها الا العدو » .

كان الشيوعيون المصريون في وضع لا يحسدون عليه بعدما نشأت الازمة الحقيقية الاولى في تاريخ العلاقات بين مصر والاتحاد السوفياتي، ازمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات . كذلك كان اليسار المصري الفتي في وضع مماثل . فالجميع كانوا ينعمون بتعايش مثالي مع النظام المصري المظلل بعلاقة مثالية مع النظام السوفياتي . كانت مظلة العلاقات الوطيدة بين النظامين المصري والسوفياتي تحميهم وتؤمن لهم مناخا هادئا ينشطون فيه ويعبرون عن افكارهم . وفوق ذلك ان هذه المظلة كانت في الوقت نفسه تحصنهم في وجه الموجة اليمينية التي يتزايد نفوذها وتأثيرها وامتدادها الشعبي .

وبالفعل فان الحضور اليساري وديناميكية اليساريين المصريين كانا امرا بارزا جدا في جمهورية السادات ، وفي السنين الاخيرة من حكم عبدالناصر . وهم يدركون تماما انهم للمرة الاولى في التاريخ المصري ، وبالذات في العشرين سنة من الثورة المصرية ، أعيدت اليهم مظاهر الاعتبار . واكثر من ذلك اشركوا في الحكم . انهم يعرفون الظروف التي جعلت انور السادات يشركهم في الحكم ، لانه يريد استقامة المعادلة ، بعدما ضرب علي صبري وافراد مجموعته ، لكن ذلك في نظرهم لا يهم .

الذي يهم هو انهم وجدوا منابر لنشر افكارهم . مجلة « الطليعة » منبر ، مجلة « الكاتب » منبر آخر . المقالات التي ينشرونها في معظم الصحف والمجلات المصرية كانت نوعا من المنابر الصغيرة . والذي كان يقرأ انتاج هؤلاء ويقارنه بانتاج الكتاب الاخرين يلاحظ الفرق الجوهري في التفكير والاسلوب والمنهج .

وعلى هذا الاساس ، فمن الطبيعي ان تكون الازمة التي نشأت بين السادات وموسكو ضربة موجعة لهم ، بالاضافة الى انها وضعتهم في مواقف صعبة ومحرجة .

ولا بد ان الشيوعيين المصريين ادركوا تماما بعد التصفيق الحار من اعضاء المؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي لقول السادات يوم ٢٤ يوليو (تموز) ١٩٧٢ انه لن يكون ماركسيا ، ان عليهم مراجعة طريقة تحركهم ، وهي ، للمناسبة ، طريقة فكرية لا اكثر ولا اقل . ان العبارة لم تفاجئهم فهم يعرفون ان السادات لن يكون ماركسيا ، وعبد الناصر من قبله لم يكن ماركسيا وكان يتصرف على اساس انه لن يكون يوما ما ماركسيا ، ولن يجعل مصر « كوبا الشرق الاوسط » . لكن عبارة السادات تلك التي اطلقها في اثناء مجابهة مقلقة مع الاتحاد السوفياتي تعتبر نوعا من التحريض على الماركسية ، او بعبارة أدق ، تعتبر تشجيعا للمد اليميني . ولان الشيوعيين المصريين يعرفون ان لليمين ارضا خصبة في البلاد ، فان قلقهم انطلق من هذه الزاوية .

وفي خلال انفجار ازمة الخبراء كانت سعادة اهل اليمين المصري واضحة وظاهرة . كذلك فان قلق أهل اليسار كان واضحا وظاهرا .

وكان كثيرون يتساءلون : ما هو مصير ممثلي آهل اليسار في السلطة . ما هو على سبيل المثال مصير الدكتور فؤاد مرسي والدكتور اسماعيل صبري عبدالله وكلاهما وزير في حكومة الدكتور عزيز صدقي . وما هو مصير لطفي الخولي الذي يمثل اهل اليسار في شكل براق في اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي والذي قام بمهمات دقيقة واساسية جعلت المقاومة الفلسطينية والتنظيمات اليسارية العربية تطمئن الى السادات وتبدي استعدادها لدعمه .

وسط هذه التساؤلات ابدى الماركسيون المصريون وجهة نظر أولية عبر مقال في « الاهرام » كتبه لطفي الخولي ونشر يوم ٢٢ تموز (يوليو) ١٩٧٢ . واذا كانت الازمة بين السادات والاتحاد السوفياتي سببها حالة « اللاحرب واللاسلم » فان مقال لطفي الخولي حرص على الايحاء بأن الازمة المستجدة ليست من النوع الذي لا يمكن تطويقه ومحاصرته ، وان هنالك حالة من « اللاتفاهم واللاخصام » بين الدولتين اللتين تتفقان في النهاية في معسكر واحد هو معسكر معاداة الاستعمار.

ولقد ركز لطفي الخولي على الآتي :

ــ ان الازمة طارئة « ... ويجب ان نحرص كل الحرص من زاوية وطنية على ان لا نستدرج لرؤية الصديق بعين عدونا الذي هو في الوقت نفسه عدوه ، والا وقعنا أسرى المخطط الاميركي ــ الاسرائيلي ، وهو مخطط يستهدف أول ما يستهدف ضرب حركة التحرر الوطني التقدمية في مصر وتصفيتها » .

ــ أن اختلاف طبيعة السلطة في كل من مصر والاتحاد السوفياتي هو الذي سبب الخلاف . فالسلطة في مصر قومية تحررية تقدميـــة . والسلطة في الاتحاد السوفياتي ماركسية لينينية . والسلطتان ، وان كانتا معاديتين للامبريالية والاستعمار ، الا ان نظرة كل منهما تختلف طبقا للاختلاف في طبيعة السلطة .

ــ وزن قضية الاحتلال الاسرائيلي للاراضي العربية ليس واحدا في استراتيجية البلدين . الاتحاد السوفياتي يعتبر القضية احدى مجموعة قضايا ملتهبة مثل قضية العدوان الاميركي على فيتنام ، والامن الاوروبي ، وتحريم الاسلحة النووية . لكن القضية في اطار الاستراتيجية المصرية هي قضية الحياة والموت .

وأعاد لطفي الخولي الى الاذهان الازمة الاولى في العلاقات المصرية ــ السوفياتية التي حدثت في العام ١٩٥٨ عندمـــا تبادل عبدالناصر وخروشوف النقد أمام الجماهير « ... ولكن بالاحساس المشتـــرك بالمسؤولية والوعي بأهمية الصداقة التاريخية بين البلدين وضرورتها أمكن تخطي الازمة وعلاجها سريعا (...) . والازمة الجديدة ليست الا مجرد سحابة طارئة في سماء الصداقة ، ومسؤولية الطرفين المشتركة ان يبددا‌ها بجهد موحد ومسؤول » .

هنا نصل الى نقطة أساسية . لماذا لم يعالج الماركسيون المصريون هذا التباين في طبيعة العلاقات المصرية ــ السوفياتية من قبل . لماذا لم يكتبوا عن النظرة غير الموحدة لقضية الاحتلال . انهم لو كتبوا ذلك لكان وقع كلامهم مهما ، لان الذي يكتب ــ ما دام ماركسيا ــ فانه يكتب من منطلق الحرص على استمرار ازدهار العلاقـــات بين مصر والاتحـــاد السوفياتي ، في حين لو ان احدا من أهل اليمين كتب ذلك فان كلامه كان سيحمل على محمل التشكيك وسوء النية . لقـــد كان في وسع الماركسيين المصريين ان يكتبوا ذلك لان المجال متاح امامهم . وكان من شأن كلامهم ان يفيد وان يكون على الاقل وسيلة تنبيه . لكنهم لـــم يكتبوا .

وفي خلال انفجار ازمة الخبراء تسنى لي ان اناقش كثيرين منهم في هذه النقطة وكانت حجتهم منطقية الى حد ما .

ما هي هذه الحجة ؟ انهم يلخصونها بالآتي : ان الخط الاعلامي المصري كان في استمرار ثابتا حيال العلاقات مع الاتحاد السوفياتي .

وكانت تتحكم في هذا الامر قضايا دقيقة وحساسة . كانت هنالك شفافية وكانت العلاقات على الصعيد الاعلامي دائما كمن يمسك فراشة . ولم يحدث ان كتاب اليسار واليمين ، وبالذات كتاب اليسار ، شذوا عن القاعدة الاعلامية المتفق عليها عندما يعالجون موضوع العلاقات المصرية ـــ السوفياتية .

ثم كيف يستطيع كتاب اليسار أن يكتبوا منبهين أو محذرين ما دام الحكم لا يحيط أحدا بطبيعة العلاقات . ان أحدا لم يكن يعرف ، ومن اين له ان يعرف ، ان العلاقات متوترة ضمنا وجيدة علنا . ومنذ تسوية الازمة الاولى مع الاتحاد السوفياتي في العام ١٩٥٨ كان الحاكم المصري معلنا بل ومبشرا بازدهار العلاقات مع الاتحاد السوفياتي . واخيرا ، وليس آخرا ، ان الكلمة تسجل لتعكس اتجاها عاما . وهذا الاتجاه كان يوحي بأن كل شيء على ما يرام . ولنتصور مصير كاتب ماركسي يكتب ـــ هذا اذا كان عارفا ببعض الخفايا ـــ عن تباين في الموقفين المصري والسوفياتي في وقت ، او قبل ، او بعد ، صدور بيان رسمي مشترك لا يحمل في طياته اي اشارة الى هذا التباين . انه لو فعل ذلك لكان اعتبر انه يعمل على تقويض الصداقة بين البلدين ، من دون ان يأخذ الذين سيعتبرونه كذلك ، في الاعتبار ، انه يكتب من موقع المنبه والمحذر ، وليس من موقع الساعي من اجل تقويض هذه الصداقة .

ان الماركسيين المصريين كانوا ، شأنهم شأن كل قطاعات الشعب المصري ، في عزلة تامة عما يجري بين النظامين ...

أما اذا تدهورت العلاقات المصرية ـــ السوفياتية بعد اخراج الخبراء والمستشارين ، الى ما هو اكثر خطورة ... الى قطيعة حقيقية وعداء مترسخ ، فانهم سيصبحون طبقة معزولة في بلدهم ، وقد يجدون انفسهم انهم هم الذين سيدفعون ثمنا باهظا اذا قرر نظام السادات ان يوجه المزيد من الضربات الى موسكو علما بأن الوجود الماركسي المصري ليس اكثر من افكار ، ولو كان غير ذلك : خلايا مثلا ، لما كان السادات اشركهم في مواقع المسؤولية . وفي اي حال يجب الا نسقط من الحساب ان الماركسيين المصريين انقسموا بعد قرارات السادات انهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات فريقين ، او مجموعتين . مجموعة مغرقة في ماركسيتها ترى ان الاتحاد السوفياتي لا بديل منه ايا كانت الظروف . ومجموعة معتدلة ذات اتجاه وطني لم تجد بعد الذي سمعته من السادات ، حجة تدافع بها عن الاتحاد السوفياتي .

... وبكثير من الايجاز اصبح الشيوعيون المصريون او « الماركسيون المصريون » ، وهي التسمية التي يفضلونها ، في وضع لا يحسدون عليه ابدا .

٨ – العلاقات الاضطرارية ... والقرارات الاضطرارية

كان من الطبيعي حدوث تلك الانتكاسة في العلاقات المصرية ـ السوفياتية لانها قامت في الاساس على اسباب وظروف اضطرارية . ولو كانت تلك العلاقات قامت اختيارا وليس اضطرارا لكان امكن في خلال الخمس عشرة سنة من التعامل امتصاص الثغرات التي كانت دائما تخترق جدار تلك العلاقات . لكنها قامت اضطرارا واستمرت اضطرارا، وبسبب ذلك جاءت قرارات السادات عملا اضطراريا ايضا . وفي خلال خمس عشرة سنة من التعامل الاضطراري كانت العلاقات السوفياتية ـ المصرية دائما كانها موضوعة في قفص من زجاج ، ويجب الابتعاد قليلا عن هذا القفص كي لا يتأثر من ضربة ما .

ان الذي جعل جمال عبد الناصر يتجه شرقـا ليس مجرد القناعة بهذا الاتجاه . كان يفضل ان يتجه الى الغرب بـدلا من التوجـه الى الشرق . وهو عندما توجه الى الشرق انما توجه لان الولايات المتحدة رفضت ان تتفهـم ظروفه وتلبي رغباته . ولو ان واشنطـن تفهمت في الماضي تلك الظروف ولبت رغبات مصر لما كان الوضع انتهى بعد ذلك الى ما انتهى اليه . والارتباط بالمعسكر الشرقي اضطرارا جعل العلاقة دائما بين مصر والاتحاد السوفياتي معرضة للهزات . ولو كانت العلاقة قامت على اساس اختياري لما كان لهذه الهزات ان تحدث .

وفي استمرار سعى عبد الناصر لكي لا يتحول « الاضطرار » الى « اختيار » ، لان مثل هذا التحول سيهدد مصر بان تصبح مثل كوبـا . وكانت ثمة مساعيه هي ابتكاره مع نهرو وتيتو فكرة عدم الانحياز الذي تحول مع الوقت الى معسكر يضم الدول التي لا تريدها الولايات المتحدة، والتي (اي تلك الدول) لا تريد ان يصل تعاونها مع الاتحاد السوفياتي الى درجة اعلان الماركسية واعتناقها .

ولقد عرف الاتحاد السوفياتي كيف يستغل « اضطرارية » جمال عبد الناصر فاغرقه بالسلاح والمساعدات ، الا انه لم يعرف كيف يستغل

ظـروف النظـام المصري بعد رحيـل عبد الناصر ، مساعدا في ذلـك « اضطرارية » السادات على فك الارتباط الموروث ، بعدما تطور ذلك الارتباط الى درجة ان الارادة المصرية اصبحت متأثرة الى حد وفي بعض الاوجه بالخط العام للسياسة السوفياتية ، الامر الذي يعني ان ملامح سياسة عدم الانحياز التي كانت سمـة اساسية من سمات الناصرية اصبحت باهتة بعض الشيء .

ان نظام السادات كان سيرتضي ، بسبب حالة الاحتلال ومن اجل تحرير الارض ، اهتزاز مفهوم عدم الانحياز للسياسة المصرية اذا كان الارتباط بالاتحـاد السوفياتي سيساعـد على تحرير الارض وانهـاء الاحتلال . لكنه لم يستطع تقبل استمرار الارتباط ما دام لـن يحسم موضوع الاحتلال .

في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٠ زار وفد سوفياتي مصر في رئاسة دين محمد كونابيف . وفي خـلال جلسة خاصة عقدهـا مجلس الامة المصري للترحيب بالوفد القى كونابيف ، وهو عضو مجلس السوفيات الاعلى ، كلمة قال فيها « لم تستطع الصهيونية والاستعمار ضرب نظام عبد الناصر » .

ولقد فوجىء كونابيف ، عندما قدمه رئيس المجلس الى الاعضاء ، بهؤلاء يصفقون له طويلا وفي حرارة . ولاحظ ان التصفيق للكلام الذي قاله كان قصيرا واقل حرارة . وعندما ابدى بعض اعضاء الوفد المرافق ملاحظتهم على ذلك قيل لهـم باسلوب في منتهى التهذيب واللياقـة ان التصفيق الحار والطويل كان سببه ان رئيس وفدكم اسمه «دين محمد» .

اسوق هذه الواقعة لاشير الى ان السوفيات لم يحاولوا مثلا تفهم ناحية الدين عند المصريين . وكانوا لا يتركون مناسبة الا ويشيرون من قريب او بعيد الى هذه الناحية . ولو انهم ارسلـوا الى مصر سفراء مسلمين لكان هؤلاء ربما بشيء من المشاعر الدينية المترسبة او المتبقية في نفوسهم تفهموا ناحية الدين وتأثيره في عقول المصريين . كذلك فانهم لو وظفوا ديبلوماسيا مسلما واحدا تكون مهمته حضور صلاة الجمعة في اي مسجد مصري او الاحتفالات التي تقام في ذكـرى المولد النبوي او ذكرى الاسراء والمعراج ونقل هذا الديبلوماسي تقريرا محايدا عما يراه ويسمعه لكان الكرملين عرف ماذا يعني الـدين بالنسبة الى المصريين ولكان ــ ربما ــ توقف عن اثارة هذه النقطة بالذات في اللقاءات الفكرية والسياسية المصرية ـ السوفياتية .

وفوق ذلـك ان السوفيات لم يراعـوا ناحية اساسية حيـال المصريين :

ان المصري بطبعه انسان اجتماعي وطيب وتلذه معاشرة الاخرين. والسوفيات الذين سكنوا القاهرة وباقي المدن المصرية جعلوا من انفسهم طبقة تعزل نفسها عن المصريين ولا تتعامل معهم . كذلك فان السفارة السوفياتية كانت لا تفتح ابوابها الا للمسؤولين وللعناصر المصرية اليسارية ، اما الجماعات الاخرى فوضع عليها نوع من « الفيتو » .

ثم ان السوفيات صحفا ومسؤولين كانوا لا يشيرون من بعيد او من قريب الى ما يحققه الاتحاد السوفياتي من مكاسب من خلال وجوده في مصر .

وهذه الناحية بالذات كانت تضايق الفريق الذي تصدى نقاشا او كتابة للحملة التي شنتها الصحف السوفياتية ضد قرارات السادات . وكان ابرز هؤلاء احسان عبد القدوس الذي قال لي ونحن نناقش الموضوع « كانت روسيا محتلة افريقيا من خلال وجودها في مصر » .

وهذا الفريق يجزم ان لمصر الفضل الاكبر في انتصار الهند على باكستان . ذلك بان الطائرات السوفياتية التي كانت تنقل السلاح الى الهند ابان حربها مع باكستان وفي خلالها كانت تمر اما بالاجواء المصرية او تتوقف في مطار أسوان للتزود بالوقود . وكان السادات يسمح بذلك وفي الوقت نفسه يتالم . وكان السوفيات لا يتجاوبون مع الم السادات وضيقه .

لقد كان الامر في غاية المرارة . السادات يواجه ضغوطا داخلية بسبب استمرار حالة الاحتلال . والسوفيات بدل ان يتجاوبوا ويساعدوه على انهاء هذا الاحتلال ينقلون السلاح الى الهند مرورا بالاجواء المصرية او بالمطارات المصرية .

ان ضيق المصريين من تجاهل السوفيات للفوائد التي يحققونها من خلال تواجدهم في مصر وتركيزهم في الوقت نفسه على ما يفعلونه وما فعلوه لمصر . . . كان كبيرا .

نعود الى حيث بدانا . ان العلاقات المصرية ــ السوفياتية بدات اضطرارا وليس اختيارا . وتدهورت اضطرارا وليس اختيارا . ولولا الخط الاشتراكي الذي كان يحلم بانتهاجه عبد الناصر ورفاقه اعضاء مجلس قيادة الثورة منذ المرحلة الاولى للثورة لما كان لارتباط مصر اضطرارا بالاتحاد السوفياتي ان يستمر طويلا وان يصبح للصداقة المصرية ــ السوفياتية بعد ذلك مضمون طبقي هو العداء للاستعمار .

ولكن هل ان السبب الذي جعل الاتحاد السوفياتي يبالغ في مساعدة مصر بالمال والسلاح ، هو كسب دولة جديدة تعادي الاستعمار؟

وهل ان السبب الذي جعل الاتحاد السوفياتي يخلق بالنسبة الى

مصر نوعا جديدا من العلاقة تتجاوز من حيث النوعية والحجم علاقته مع الدول الاشتراكية نفسها ، هو كسب دولة جديدة تعادي الاستعمار ؟

الواقع ان الاتحاد السوفياتي كان يخطط في الخمسينات ، عندما وافق على اعطاء السلاح لمصر وعندما قرر بناء السد العالي وعشرات المصانع الاخرى ، لما يتصور انه يجب حدوثه في السبعينات . ولكن هل ما حدث في السبعينات كان هو ما توقعه وما تصور حدوثه الاتحاد السوفياتي .

قد يجوز الجزم ان الاتحاد السوفياتي لم يكن في حساباته ان يوافق ذات يوم على ارسال رجال الى مصر يشتركون مع جيشها في وضع خطط وفي اعداد الجيش لمعركة .

والغريب ان الاتحاد السوفياتي وافق على ذلك من دون ان يكون هنالك سند او ضمانات ايديولوجية . وحتى المعاهدة التي وقع عليها انور السادات بعد ذلك لم تكن السند والضمانات .

وفي غياب الضمانات الايديولوجية كانت هنالك استراتيجيتان غير متطابقتين . الاستراتيجية المصرية غير متطابقة مع الاستراتيجية السوفياتية . واعتمد الجانبان بعد حرب ١٩٦٧ مبدأ التنازلات ما دامت الاستراتيجيتان غير متطابقتين . وهكذا اصبح كل طرف يتنازل للطرف الاخر . وعلى سبيل المثال فان الاتحاد السوفياتي كان ضد حرب الاستنزاف لكن من اجل عبد الناصر وتجاوبا معه وافق على هذه الحرب التي يعتبر انها غير ذات فائدة في مفهومه وحساباته . والاتحاد السوفياتي كان ضد قبول مصر مبادرة روجرز لكنه من اجل عبد الناصر وتجاوبا معه ايد قبول مصر هذه المبادرة .

وفي المقابل فعل عبد الناصر الشيء نفسه . تنازل مثلا في موضوع التسهيلات البحرية للاتحاد السوفياتي علما منه بان اعطاء مثل هذه التسهيلات سيثير ثائرة الراي العام المصري وسيرسم علامات استفهام في سماء السياسة المصرية . وتنازل عبد الناصر ايضا في المسائل التي تمس السيادة المصرية مدركا في الوقت نفسه ان مثل هذا التنازل سيضفي ظلالا على سياسة مصر التقليدية . ويوم قال له السوفيات ان بعض القواعد العسكرية السوفياتية التي ستقام في الجبهة المصرية او في مناطق اخرى يستحسن الا يدخلها احد من العسكريين المصريين لانها سر حربي وافق عبد الناصر بمرارة علما منه بان هذا الشيء سيخلف موجة من الاستياء البالغ في صفوف ضباط الجيش المصري . وقد تسببت هذه الموجة بعد ذلك في حدوث اشكالات كثيرة ، وعمقت الكراهية للسوفيات داخل الجيش . كذلك عندما قال زعماء الكرملين لعبد الناصر بعد موافقتهم على ارسال الخبراء والمستشارين والمدربين والطيارين الى مصر ان العسكري السوفياتي يؤدي قبل انضمامه الى الجيش

قسما بألا يعمل الا تحت قيادة سوفياتية ، وافق عبد الناصر وبذلك أصبح العسكريون السوفيات في مصر جيشا داخل الجيش المصري .
ولقد تنازل في هذه الناحية لانه كان يدرك ان التنازل هو في مستوى المكاسب التي سيحققها من الوجود العسكري السوفياتي في مصر . وكانت هذه المكاسب منحصرة في امرين : الاول ارهاب امريكا وقد حدث ذلك بالفعل . والثاني استفادة العسكريين المصريين من الخبرة السوفياتية ، وهذا الامر حدث بالفعل ايضا .

وورث السادات مبدأ التنازلات . تنازل مثلا في تسجيله في بيان مشترك استنكاره العداء للشيوعية برغم انه في تكوينه الفكري ضد الشيوعية وبرغم علمه سلفا ان الشعب المصري سيتضايق من هذا الاستنكار .

وتنازل ايضا في موضوع المعاهدة التي جاء بودغورني بعد ضرب علي صبري والاخرين طالبا منه التوقيع عليها . وقع وهو يدرك ان ذلك سيحدث ردة فعل مؤلمة في نفوس المصريين .

وتنازل في امور اخرى كثيرة . تنازل حتى في الامر الاساسي وهو ثقة السوفيات المفقودة به وتشجيعهم العناصر المضادة له . وسبب تنازلاته هذه هو الحصول ، في المقابل ، من الاتحاد السوفياتي على تنازلات . الا ان التنازلات السوفياتية نسبيا لم تكن في مستوى تنازلات السادات . ولعل احجام السوفيات عن تقديم تنازلات مماثلة للسادات كان بسبب تخوفهم منه بل وحذرهم بعدما صفى لهم مجموعة علي صبري التي كانت في نظرهم تمثل البورجوازية الصغيرة الاكثر يسارا من المجموعة التي ورثتها . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى قد يكون سبب الاحجام ان الاستراتيجيتين المصرية والسوفياتية تباعدتا كثيرا بعد رحيل عبد الناصر وبالذات في السنة الاولى من ولاية السادات لاسباب موضوعية بعضها يتعلق بالاتحاد السوفياتي وبعضها الاخر يتعلق بمصر .

من الاسباب التي تتعلق بالاتحاد السوفياتي يأتي تقنين التعايش السلمي واستبعاد الحرب النووية في مقدمة هذه الاسباب . وهذا الامر جاء نتيجة لجهد بذله السوفيات طوال ربع القرن الاخير ولن يتنازلوا عنه الا في الضرورة القصوى . وازمة الشرق الاوسط ليست من الضرورات القصوى خصوصا ان وجهة النظر العربية لم تلتق ابدا مع وجهة النظر السوفياتية بالنسبة الى القضية الفلسطينية .

ان السادات الذي راى ان الاتحاد السوفياتي هو الذي اجهض له سنة الحسم لانه لم يعطه السلاح الذي طلبه ، وجد ان مبدأ التنازلات لم يعد يفيد في شيء ، وانه لا بد من خطوة اساسية للخروج من المأزق .

وهكذا تحولت التنازلات الى مجابهة . قـــرر السادات ان يلغي مبـــدأ التنازلات ويعتمد مبدأ المجابهة . لم يختر الحل الوسط وانما انتقل وفي شكــل مفاجيء من حــالة كانت تعكس التعايش الى حالــة توحي بان التعايش سيصبح مهددا .

ولكن الانتقال المفاجيء من التعايش في ظل التنازلات المتبادلة الى المرحلة المتأزمة لا يعني ان مصر استطاعت ان تؤمن مطلبها الاساسي.

لقد حدثت ازمة الخبراء والمستشارين وذهب هؤلاء ولكن الوضع المشكو منه ما زال مستمرا . فمؤخرة مصر لا يمكن تغطيتها الا باسلحة ردع . وحجة الاتحاد السوفياتي في عدم اعطاء هذا النوع من السلاح — الذي ربما كان غير متوافر في حلف فرصوفيا — غير مقبولة من المصريين. كان الاتحــاد السوفياتي ، في كــل مرة يطلـــب المصريون طائـــرات الميغ — ٢٣ ، يعيد الى الاذهان حادثة الطيار العراقي منير روفا الذي هـــرب بطائرته (الميغ — ٢١) الى اسرائيـــل . وكـــان المسؤولـــون العسكريون السوفيات يقولون ان وصول تلـــك الطائرة الى اسرائيل سبب لهم متاعب لا نهاية لها . ذلك بان الطائرة سلمت بعـــد ذلك الى الولايات المتحدة وبدأ السوفيات يشعرون بالمتاعب في فيتنام لمدة سنتين بعد فترة من وقوف الاميركيين على خصائص الميغ — ٢١ . ومن حق السوفيات ان يقلقوا لكن معنى ذلـــك ان يحتفظوا لانفسهم بسلاحهـــم المتطور . معناه ايضا ان الدول الصديقة للاتحاد السوفياتي وذات العلاقة المتميزة معه لا يمكن ان تحصل على مثل هذا السلاح لان الاتحاد السوفياتي قلق من وصوله في شكل او في اخر الى الاعداء . معنى ذلك ايضا ان تسلح دولة مثل مصر سيقف عند حد معين .

وفوق ذلك ان الاتحاد السوفياتي لا يريد اعطاء مصر السلاح الذي يمكنها من الضرب في العمق لانه ضد مبدأ ضرب الاعماق الاسرائيلية . لقد حاول السادات كثيرا ، واطلق التصريح تلو التصريح الذي يعكس قدرة مصر على ضرب اعماق اسرائيل فيما لو ان الوسيلة متوافرة لديه، عل الاتحاد السوفياتي يتجاوب . الا ان التجاوب لم يحصل .

ان ضرب الاعماق في نظر الاتحاد السوفياتي غير مرغوب فيه وغير مأمون . لكنه في نظر مصر عمـــل شرعي وضروري . ومن هنا كـــان التباعد . ومن هنا يمكن القول انه لو كان هنالك سند ايديولوجي لكانت مصر تفهمت المنطق السوفياتي .

الاتحاد السوفياتي لن يعطي مصر السلاح الرادع الذي يمكن ان يؤمن لها مؤخرتها ويؤمن لها في الوقت نفسه تحقيق القـــدرة على تهديد الاعماق الاسرائيلية . والغرب لن يكون في اي حال البديل . فما الذي

يمكن السادات فعله ؟

من الواضح انه ما دامت الوحدة العربية امرا صعب التحقيق في المرحلة الحاضره فان السلاح الاقتصادي سيكون فعالا اذا استعمل في دقة . ولقد كان سلاح التواجد العسكري السوفياتي في مصر هو البديل من السلاح الاقتصادي بعدما تبين لعبد الناصر ان الدول العربية لن تجاريه في موضوع استعمال هذا السلاح . وبعدما قرر السادات الانفتاح على تلك الدول ومهادنتها الى درجة التحالف اصبحت هذه الدول ترى ان الوجود العسكري السوفياتي في مصر يشكل عائقا في وجه استعمال السلاح الاقتصادي ؛ لان استعمال سلاح النفط والارصدة مع بقاء الوجود السوفياتي سيفيد موسكو في النهاية .

وانهى السادات الوجود العسكري السوفياتي . فما الذي ستفعله الدول العربية ؟

ان مصر طالبت ، بعد حرب ١٩٦٧ ، باستعمال سلاحي النفط والارصدة . لكنها عادت في قمة الخرطوم واقتنعت بحجة دول النفط التي كانت ضد هذه المطالبة . وفي المقابل حصلت مصر على مساعدات الدعم التي لا تزال تحصل عليها الى الان . الا ان مصر ترى انه تمكن الاستفادة اكثر من سلاح النفط بطريقة اخرى ، كان تضغط دول النفط لتحصل على مزيد من العائدات على ان تحول العائدات الى مصر تشتري بها السلاح وتستعد للمعركة . وفي الوقت نفسه تحافظ مصر على علاقات جيدة مع الاتحاد السوفياتي . علاقات تتم في اطار يحفظ لمصر حريتها وتحركها ويحفظ للاتحاد السوفياتي استراتيجيته الجديدة .

وهنا تجدر الاشارة الى انه في الوقت الذي بدأ السادات يلوح بتهديد مصالح اميركا كان الملك فيصل يقول في مقابلة مع مجلة «المصور» القاهرية نشرت يوم الخميس ٣ اب (اغسطس) ١٩٧٢ « ان الحديث عن استخدام البترول كوسيلة للضغط على اميركا لا جدوى منه . ومن العبث التفكير فيه الان . ولا يمكن الانتصار الا بالرجوع الى عقيدتنا » .

ان ما جرى بين مصر والاتحاد السوفياتي كان امتحانا لاسلوب معين في التعامل . وما دام تبين ان الاسلوب لم يكن مناسبا الاستمرار فيه للمرحلة المقبلة فان البحث عن اسلوب اخر واجب قومي بالنسبة الى مصر ومصلحة ملحة بالنسبة الى الاتحاد السوفياتي . والذي يساعد على خلق اسلوب اخر هو ان حجج الفريقين منطقية . ولو كانت حجج فريق مقبولة وحجج الفريق الاخر غير مقبولة لما كان في الامكان المطالبة بمنهج جديد للتعامل .

كذلك فان الذي يساعد على خلق المنهج الجديد هو ان السادات يعتبر ان بوريس بونماريف هو المسؤول شخصيا عن تدمير العلاقات . كذلك فان اسلوب فلاديمير فينوغرادف يشارك في المسؤولية .

ولقد ردد السادات مرارا في جلسات مغلقة للمؤسسات الحاكمة في مصر ان بوناماريف هو الذي يتحمل شخصيا مسؤولية تدمير العلاقات . وهذه نقطة جديرة بالملاحظة .

ان بوناماريف هو المسؤول عن الاعلام في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي . وقد سبق له ان عمل في الجيش الاحمر . وكان يتابع في استمرار نشاط المرتبطين بالمحور. وبلغ السادات ان بوناماريف كان يحرص في استمرار على تصويره بانه عمل في الماضي مع النازيين ، وانه (اي السادات) ضد الاشتراكية ويريد ان يجعل من مصر دولة متدينة . وقد اثار السادات في مناسبات كثيرة هذا الدور الذي كان يلعبه بوناماريف ... وهو دور أعتبره السادات تحريضا عليه ، خصوصا ان مهمة بوناماريف الاعلامية كانت تمتد لتشمل كل الاحزاب الشيوعية في العالم .

اما فلاديمير فينوغرادوف الذي ــ في نظر السادات ــ يشارك في شيء من المسؤولية فمشكلته مع المصريين كانت دائما من النوع الصعب حله . كان في استمرار حادا لسببين : الاول انه جاء الى مصر سفيرا ولا يعرف شيئا عن مصر ، او انه لا يعرف السر الذي لو اعتمده في اسلوب معاملته مع المصريين لكان نجح . وكانت تتحكم في اسلوب معاملته امور كثيرة منها انه عضو في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي وهذه العضوية في مثل سنه أمر اساسي وهو تقدم على صعيد الوضع الحزبي وله أهميته القصوى في الاتحاد السوفياتي . وقبل ان يأتي فينوغرادوف سفيرا الى القاهرة كانوا يعدونه في موسكو ليكون وزيرا للخارجية مستقبلا خلفا لاندريه غروميكو . اذا فان الامرين اساسيان ومنهما كان ينطلق في تعامله مع المصريين .

اما السبب الثاني فهو ان فلاديمير فينوغرادوف متخصص في الشؤون الاميركية والاونيسكو . وكان على موسكو قبل تعيينه سفيرا ان تفطن لهذه الناحية . وبعدما جاء الى القاهرة اصبح يعامل المصريين بعقلية اميركية ، وهنا فشل ، لان المصريين يجب أن يعاملوا بعقلية متوسطية . ومن هنا سر نجاح سيرغي فينوغرادوف السفير الذي كان قبل فلاديمير فينوغرادوف ، والذي توفي قبل فترة من وفاة عبد الناصر .

ان المصريين يقولون عن سيرغي فينوغرادوف انه كان مثاليا في طريقة تعامله ، ربما لانه فهم العقلية المتوسطية في خلال عمله سفيرا لمدة اثني عشر عاما في باريس. وفي خلال الحرب العالمية الثانية كان سيرغي فينوغرادوف سفيرا في تركيا . وبسبب ادراكه للعقلية المتوسطية استطاع ان يحيد تركيا محققا بذلك انجازا كبيرا ومهما بالنسبة الى الاتحاد السوفياتي .

ولقد تضايق السادات لان فلاديمير فينوغرادوف استمر الى النهاية

حادا وينظر من عل ، ويقول دائما في تقاريره الى زعماء موسكو انه غير قادر على التعامل مع المصريين لانهم يخفون عنه امورا كثيرة . وهو عندما غادر مصر الى الاتحاد السوفياتي لم يطلب مقابلة السادات لوداعه . ولو ان تلك المقابلة تمت لكانت لطفت بعض الشيء الاجواء المتوترة . غير ان فينوغرادوف استقل باخرة سوفياتية من الاسكندرية من دون ان يتنبه الى تلك اللفتة البروتوكولية .

اذا فان ابدال فينوغرادوف بسفير اخر يبدو عملا ضروريا من اجل خلق اسلوب جديد للتعامل المصري ـ السوفياتي . كما ان اذابة الجليد بين بوناماريف والسادات تبدو عملا اكثر ضرورة من اجل الغرض نفسه .

والاهم من ذلك كله هو ان تتفهم القيادة السوفياتية العقلية المصرية وتراعي نقطة اساسية هي ان قرارات السادات انهاء الوجود العسكري السوفياتي خلقت له موجد تأييد شعبية عارمة . وقد ردت موسكو على ذلك بابداء المزيد من الحماسة والعطف على عبد الناصر والناصرية كأنما تريد ان تفهم المصريين ان المشكلة ليست مع مصر وانما مع نظام انور السادات .

واذا كان عبد الناصر في الماضي من خلال قدرته المذهلة على تأميم الصراع الطبقي استطاع ان يبقي العلاقة المصرية ـ السوفياتية في منأى عن اي نقاش علني ، فان السادات اصبح بعد قراراته الخطيرة قادرا على ان يفتح صفحة جديدة من العلاقات مع الاتحاد السوفياتي من دون ان يجد الكثيرين من الذين يريدون ان يناقشوا او ينظّروا .

ويبقى في الافق السؤال الكبير : لقد ذهب عزيز صدقي الى موسكو وعرض ان يتم اعلان انتهاء مهمة الخبراء والمستشارين عبر بيان ودي مشترك . ورفض زعماء الكرملين وهذا ما عالجناه في صفحات سابقة . وعاد عزيز صدقي وابلغ السادات فاعلن الرئيس المصري يوم الثلثاء ١٨ تموز (يوليو) ١٩٧٢ انهاء مهمة الخبراء والمستشارين . وفي اليوم التالي وزعت « تاس » بيانا من جانبها جاء فيه : « ان الاتحاد السوفياتي يعتزم متابعة تطوير وتدعيم علاقاته مع جمهورية مصر العربية في كل المجالات بعد اكمال مهمة المستشارين العسكريين . ان هذه العلاقات قائمة على اساس قوي وعلى معاهدة الصداقة السوفياتية ـ المصرية والكفاح المشترك من اجل تصفية اثار العدوان الاسرائيلي . ولقد وجدت جمهورية مصر العربية والاتحاد السوفياتي من الملائم بعد تبادل الاراء اعادة العسكريين السوفيات الذين كانوا ارسلوا الى مصر لفترة محدودة » .

ان ما طلبه عزيز صدقي لم يكن يختلف كثيرا عما جاء في بيان « تاس » . فلماذا لم يقبل زعماء الكرملين اصدار البيان الودي المشترك؟

هل لانهم كانوا غير متصورين ان السادات سيعلن من جانبه انهاء مهمة الخبراء والمستشارين اذا رفض زعماء الكرملين اصدار البيان ؟ أم انهم ارادوا احراج نظام السادات بحيث تترتب عليه مسؤولية إي رد فعل ينتج من ذلك ؟

ان السوفياتي نصف قديس ونصف متوحش . وعندما ابلغت موسكو بما ينوي السادات اعلانه تصرفت بنصفها المتوحش ... وفي اليوم التالي صدر بيان « تاس » عن النصف القديس . وبذلك غرقت المسألة في بحر من الغموض .

ان الجميع في مصر كانوا يتساءلون في استمرار عما سيحدث بعد ذلك . ما الذي سيفعله الاتحاد السوفياتي ؟ وسر هذه التساؤلات ان العلاقات بين مصر والاتحاد السوفياتي لم يكن لها مثيل في تاريخ العلاقات السوفياتية مع بلد اجنبي . فهي ليست مثل العلاقات التي بين الاتحاد السوفياتي وتشيكوسلوفاكيا بحيث انه عندما حدثت بوادر تحرر في تشيكوسلوفاكيا قمعت هذه البوادر بالقوة السوفياتية المسلحة . وهي ليست مثل العلاقات التي كانت بين الاتحاد السوفياتي والسودان بحيث انه عندما ضرب نظام جعفر النميري الحزب الشيوعي السوداني لم يفعل الاتحاد السوفياتي اكثر من الرد الكلامي العنيف لانه لا يستطيع ان يفعل اكثر من ذلك . وهي ليست مثل العلاقات التي بين كوبا والاتحاد السوفياتي بحيث ان نظام كاسترو لم يجد الحماية اللازمة له لدى السوفيات الا لانه اعلن الماركسية مذهبا للحكم . ان العلاقة بين مصر والاتحاد السوفياتي من نوع لا مثيل له ولذا كثرت التساؤلات حول طبيعة رد فعل موسكو بعدما انهى السادات الوجود العسكري السوفياتي في مصر . ولو كانت هنالك طبيعة علاقات مماثلة لطبيعة العلاقات المصرية ــ السوفياتية لما كان تساءل احد، ولكان المتسائلون قالوا ان الاتحاد السوفياتي سيفعل مع مصر ما فعله مع الدولة الفلانية .

انما الواضح ان السوفيات لا يتحركون على ارضية ردة الفعل ولم يحدث ان تحركوا تحت تأثير ضغط دولة صديقة . ان الاتحاد السوفياتي مثلا لم يتحرك بسبب موقف اليسار العالمي من قضية الغزو السوفياتي لتشيكوسلوفاكيا ومن قضايا اخرى كثيرة . وهو لو كان سيتحرك على ارضية ردة الفعل لما كان مثلا ابقى البرنامج الذي اعده لاحتفال الذكرى العشرين للثورة المصرية على حاله من دون ان يعدل فيه .

لكن الاتحاد السوفياتي في مثل هذه الحالات يعطي مؤشرات معينة للتعبير عن ضيقه من امر حدث . من هذه المؤشرات ان معاملة السوفيات للمصريين في الاتحاد السوفياتي تبدلت . بعدما كانت استثنائية اصبحت عادية . ومثل هذا الامر حدث بعدما ضرب السادات

علي صبري وافراد مجموعته ثم عادت المعاملة الى ما كانت عليه ، اي معاملة استثنائية .

من المؤشرات ايضا ان تعطي الصحف السوفياتية ، او صحف دول حلف فرصوفيا بطلب من السوفيات ، تفسيرات معينة لخطوات او قرارات تصدر عن النظام الذي اغضب الكرملين . وهذا حدث بالنسبة الى السادات حيث ان وكالة الانباء المجرية قالت تعليقا على قرار اصدره السادات يوم الاثنين ٢١ آب (اغسطس) ١٩٧٢ واعاد بموجبه بعض ضباط الجيش السابقين الى الخدمة ، ان الضباط الذين اعيدوا كان عبد الناصر قد اقالهم في اعقاب حرب ١٩٦٧ . وقالت ايضا ان المجموعة الوحيدة من الضباط التي لم تشملها عملية اعادة التعيين هي التي كانت مرتبطة بعلي صبري وتعتبر يسارية .

بعد الذي جرى له في مصر ما الذي سيفعله الاتحاد السوفياتي عربيا ؟ هل يضع صيغة جديدة للتعامل مع دول المنطقة ما دامت صيغة التعامل مع مصر لم تنجح ، أم يتجه نحو سوريا والعراق والمقاومة الفلسطينية ؟

ان علاقته بسوريا عريقة . وعلاقته بالعراق متينة وتربطهما معاهدة للصداقة والتعاون . وعلاقته بالمقاومة الفلسطينية قد تصبح مع الوقت جيدة .

ولقد كان ابرز العلامات المميزة في مرحلة التدهور الذي شهدته العلاقات المصرية ـ السوفياتية في اعقاب اعلان السادات انهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات ان يتضمن البيان الفلسطيني ـ السوفياتي المشترك ـ الذي صدر يوم الجمعة ٢٨ تموز (يوليو) ١٩٧٢ في اعقاب انتهاء زيارة قام بها وفد من المقاومة الفلسطينية في رئاسة ياسر عرفات لموسكو ـ فقرة تدين اعداء الصداقة السوفياتية . كذلك كانت هنالك علامة مميزة اخرى هي سفر الرئيس العراقي أحمد حسن البكر الى موسكو يوم ١٤ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٢ في زيارة رسمية عززت احتمال قيام الجبهة العراقية ـ السورية ـ الفلسطينية مستقبلا . وكان البكر دعا يوم الخميس ١٧ آب (اغسطس) ١٩٧٢ في افتتاح المؤتمر العالمي للتضامن مع العراق قوى التحرر العربية الى « تطوير علاقات الصداقة والتعاون والكفاح المشترك وتعزيزها مع قوى التحرر والتقدم في العالم وفي مقدمتها الدول الاشتراكية والاتحاد السوفياتي خصوصا » .

ان تلك العلامتين بالاضافة الى اهتمام استثنائي بسوريا جاء في اعقاب الفتور المصري ـ السوفياتي الذي تطور الى تدهور ، تجعلنا

نفترض ان الاتحاد السوفياتي بدأ يدرك ان حدوده تنتهي لتبدأ حـدود ايران وتركيا ثم لتبدأ بعد ذلك حدود العراق وسوريا . وقد تكـون استراتيجيته لربـع القرن المقبل تأخذ في الاعتبار ذلـك . وعلى هذا الاساس يجب أن نتوقع دورا يقوم به العقيد القذافي ويستهدف قطـع الطريـق على اي مبالغـة في التفاهم والتعامل بين سوريا والاتحـاد السوفياتي خصوصا اذا كان هذان التفاهم والتعامل سيتمان كردة فعل على ما حدث بين مصر والاتحاد السوفياتي .

٩ - الحرب على جبهتين

كثيرون في مصر افترضوا ان السادات ما دام قرر اخراج السوفيات فانه سيخطو خطوة متقدمة في طريق التفاهم مع الولايات المتحدة . والذين افترضوا هذا الافتراض قالوا : اذا كان من الصعب على السادات ان يخطو تلك الخطوة المتقدمة فلماذا لا يزور الامم المتحدة . ان زيارته لها ، وقد انهى الوجود العسكري السوفياتي في مصر ، سيكون لها دوي ، او على الاقل بريق من نوع معين . وقد تكون الزيارة مناسبة لتحريك الازمة بطريقة مميزة وممتازة . فالديبلوماسية المصرية نجحت كثيرا في الماضي الا ان تحريكها للازمة لم يكن مميزا ولا ممتازا . ثم انه اذا حدث وزار الامم المتحدة فقد تتأمن ظروف لجمعه مع الرئيس الاميركي على ارض دولية حتى لا يقال ان رئيس مصر ذهب الى اميركا ليقابل رئيسها . وعندما يتم هذا اللقاء يتكسر الجليد وقد يذوب مع الوقت .

لكن السادات يرى ان تجاربه مع الولايات المتحدة كانت دائما عقيمة ، ويرى ايضا انه خدع من الاميركيين . ولكي يؤكد للمصريين ان عليهم الا يعلقوا اهمية كبرى على الولايات المتحدة قال امام رجال الصحافة والاعلام عندما اجتمع اليهم في الاسكندرية يوم الثلثاء ٢٩ اب (اغسطس) ١٩٧٢ « اننا نحارب على جبهتين : جبهة الاتحاد السوفياتي وجبهة الولايات المتحدة » . وبعد ذلك قال في البيان الذي وجهه الى الامة بعد ظهر الجمعة في الاول من ايلول (سبتمبر) ١٩٧٢ لمناسبة العيد الاول لقيام اتحاد الجمهوريات العربية والعيد الثالث لثورة الفاتح من سبتمبر (الثورة الليبية) ان العالم اليوم « لا يملكه الا الاقوياء يفرضون عليه حربهم او سلامهم ولكننا لن نتخلى عن مبادئنا » .

ومن قبل ان يخرج الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات باشهر قال « ان اميركا عايزه واحد لسانه زفر يتكلم عليها » .

ومآخذ السادات على الولايات المتحدة انها كانت تصعد الازمة في

كل مرة كان يبدي فيها استعداده للتساهل . ولقد حرص في كل مرة يلتقي فيها مسؤولا او صحافيا اميركيا ان يشير الى ان الاميركيين يجب الا يقلقوا من موضوع الوجود الروسي في مصر لانه قادر على انهاء هذا الوجود في اي لحظة انما المهم ان تصدر عن الحكومة الاميركية بادرة ايجابية حيال ازمة الشرق الاوسط . وبعدما عقد المعاهدة مع الاتحاد السوفياتي حرص على ابلاغ اي مسؤول او صحافي اميركي كان يلتقيه ان المعاهدة لن تؤثر في مساعي مصر من اجل التسوية السلمية وانها لن تعطي السوفيات اكثر مما هم حاصلون عليه .

ومرة قيل للسادات لماذا لا تكتب الى نيكسون وتوضح له موضوع الوجود العسكري السوفياتي ؟ فاجاب : لقد كتبت له واوضحت ان السوفيات انفسهم لا يريدون بقاء قوات لهم في مصر . وكنت انا دائما الذي اسعى لتمديد اقامة السوفيات في مصر برغم ان وجودهم يكلفنا مبالغ باهظة . ولكنه (اي نيكسون) لم يشأ ان يتجاوب . وكنا في كل مرة نوضح ونتساهل فيرد الرئيس نيكسون باعطاء اسرائيل المزيد من السلاح والمساعدات .

ولعل الكلام الذي قاله وزير الخارجية الاميركية وليم روجرز امام لجنة الشؤون الخارجية والدفاع في البرلمان الاسرائيلي يوم الجمعة ٧ ايار (مايو) ١٩٧١ بعدما حلق فوق شرم الشيخ وقبل ان يزور القدس العربية كان دليلا قاطعا على ان السادات من جانبه اوضح ما فيه الكفاية . والذي قاله روجرز الذي كان انذاك في اسرائيل بعدما زار مصر « ان اسرائيل ليس لديها الى الان موقف واضح بينما كشف الرئيس انور السادات اوراقه وعرض موقفه في وضوح » .

لقد كان السادات يأمل في أن تسفر المحادثات التي اجراها مع روجرز في ايار (مايو) ١٩٧٠ عن نتيجة ايجابية . ويوم وصل وزير الخارجية الاميركية الى القاهرة بعد ظهر الثلثاء ٤ أيار (مايو) وصرح بأن الولايات المتحدة « على استعداد لان تستكشف مع مصر واسرائيل بطريقة عملية امكان التوصل الى اتفاق موقت لفتح قناة السويس ، كان السادات في وضع المستعد للتجاوب مع الولايات المتحدة في هذا المسعى مستعدا في الوقت نفسه لتحمل كل المضاعفات الداخلية والعربية التي ستنشأ نتيجة لذلك . وهو من اجل ذلك مهد كثيرا عبر تصريحات عدة. ولكن روجرز اخذ من السادات اكثر مما اعطى . وما اخذه الوزير الاميركي ساهم في توسيع دائرة تمييع القضية .

واكتشف السادات بعد ذلك ان الولايات المتحدة لا تريد ان تفعل شيئا وان روجرز جاء الى القاهرة وتصرف كسائح اميركي اكثر منه وزير خارجية دولة في يدها المفتاح الاساسي لحل ازمة الشرق الاوسط. ومن المصادفات الغريبة ان زيارة روجرز تمت في الشهر نفسه التي

تمت فيه عام ١٩٥٣ زيارة جون فوستر دالاس للعاصمة المصرية . من المصادفات الغريبة ايضا ان الموضوع الاساسي لمهمة دالاس كان العمل على انهاء الاحتلال البريطاني لقناة السويس في حين ان الموضوع الاساسي لمهمة روجرز كان السعي لانسحاب القوات الاسرائيلية من بعض سيناء تمهيدا لفتح القناة .

واذا كانت زيارة دالاس لم تحقق شيئا فان زيارة روجرز لم تحقق شيئا أيضا لانه ليس في النية تحقيق شيء لمصلحة مصر .

وفي أيار (مايو) ١٩٥٣ ابلغت مصر دالاس صراحة ان الخطر الذي يواجهها هو الاحتلال البريطاني للقناة والاحتلال الصهيوني لاراض عربية في فلسطين . أما دالاس فقال ان الولايات المتحدة ترى أن الخطر هو في تطلعات الاتحاد السوفياتي الى المنطقة .

منذ ذلك الوقت كانت الولايات المتحدة تحسب حسابا للتطلعات السوفياتية . وكان دالاس بعيد النظر لان التطلعات تلك تحولت الى وجود عسكري سوفياتي في مصر . وقد اقلق هذا الوجود الولايات المتحدة . وبرغم ان السادات أنهى هذا الوجود الا أن الولايات المتحدة لم تفعل شيئا .

ان القناعات التي تولدت لدى السادات بعد أسابيع من اخراجه السوفيات ، او بالاحرى ، انهائه الوجود العسكري السوفياتي هي أن الولايات المتحدة لن تفعل شيئا . واذا جاز التعبير فانه احس بالندامة على كل التنازلات والتساهلات التي فعلها وقدمها في الماضي . وحيال ذلك بدأ يلوح بتهديد المصالح الاميركية ليثبت للولايات المتحدة ان تقديراتها كانت في غير محلها .

ولقد عبر نيكسون عن هذه التقديرات عندما قال في تقريره المعنون « رسالة عن حالة العالم » والذي ارسله الى الكونغرس يوم الاربعاء ٩ شباط (فبراير) ١٩٧٢ « ان الاتحاد السوفياتي استغل النزاع لدعم مركزه في مصر » . والذي يريد السادات ان تفهمه اميركا هو أن مركز الاتحاد السوفياتي لم يتدعم في مصر بسبب ازمة الشرق الاوسط وان امكانات اخراجه كانت سهلة ، وان مركز الولايات المتحدة في المنطقة العربية كلها هو الذي سيتعرض لهزات ان هي استمرت على موقفها الحالي المنحاز الى جانب اسرائيل .

ولقد حرص السادات على ابلاغ الراي العام الاميركي عبر مقابلة مع « نيوزويك » نشرت بعد ثلاثة عشر يوما من اعلانه قرارات انهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات «ان المصالح الاميركية ستصبح قريبا عاملا من عوامل المعركة من اجل استعادة اراضينا (...) . واستطيع ان اؤكد ان خريفا حارا طويلا ينتظر المصالح الاميركية في الشرق الاوسط . واذا كان الرئيس نيكسون يعتقد ان في

امكانه الاعتماد على فترة من الهدوء في هذه المنطقة في خلال معركته الانتخابية فان مفاجأة جديدة تنتظره » .

كذلك حرص في لحظة يأس من الموقف الاميركي على ان يقول بعد اسابيع لصحيفة « الفيغارو » انه يرفض اي وساطة اميركية وان اخراج الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات من مصر يجب ان يؤدي الى تفهم ومساعدة اكبر من اوروبا الغربية .

ان السادات يأمل في ان يكون لدول اوروبا الغربية تأثير في موضوع ازمة الشرق الاوسط وهو في ذلك يختلف في الرأي عن حليفه الاساسي الفريق حافظ الاسد الذي ربما ، لتباين موقف كليهما من الاتحاد السوفياتي ، سمح لصحيفة « البعث » التي قالت يوم الخميس ٣١ آب (اغسطس) ١٩٧٢ « ان المبالغة في تقدير التغييرات التي حدثت في اوروبا الغربية بعد ١٩٦٧ حيال النزاع العربي ـ الاسرائيلي هي جزء من الجهود المبذولة لعزل حركة التحرر العربي وابعادها عن الانظمة التقدمية حليفات حركة التحرر وصديقاتها الحقيقية » .

في ١٠ ايار (مايو) ١٩٧١ صدرت مجلة « تايم » الاميركية وغلافها عبارة عن رسم يمثل ابو الهول له رأس السادات . وقالت المجلة في ست صفحات خصصتها للحديث عن السادات ان الرئيس المصري « يدير شؤون اكبر الشعوب العربية من حيث السكان والاهمية بقوة وفعالية اكثر مما كان متوقعا. واستطاع في خلال المناورات الديبلوماسية البارعة ان يجعل من نفسه شخصية رئيسية لحل مشكلة الشرق الاوسط اذا كان هناك اي حل (...) . وفي خلال الاسابيع والاشهر المقبلة سيصبح السادات احدى الشخصيات الرئيسية التي على الولايات المتحدة ان تتعامل معها في محاولة لاحتواء الصراع العربي ـ الاسرائيلي الخطر ، ومنعه من ان يصبح مواجهة سوفياتية ـ اميركية » .

كان ذلك الغلاف الاول في « التايم » للسادات . ولقد نشرته عشية اقدامه على ضرب علي صبري ومجموعته . وفي تلك الفترة كان السادات تكلم كثيرا وسعى كثيرا وتساهل كثيرا . واصبح بالفعل شخصية رئيسية داخل بلده وفي نظر العالم . لكن الشيء الذي لم يحدث هو ان الولايات المتحدة لم تتعامل معه من اجل احتواء الصراع العربي ـ الاسرائيلي . الذي فعلته انها تفاهمت مع الاتحاد السوفياتي . وما دامت تفاهمت فان المواجهة السوفياتية ـ الاميركية استبعدت ، وبقي السادات وحيدا يحاول ايجاد مخرج للمأزق .

صحيح ان الموقف هو في النهاية ـ اذا كانت المعركة مستبعدة او مؤجلة ـ في يد الولايات المتحدة ، لكن استمرار التأجيل الاميركي للحسم والضغط على اسرائيل، سيجعل حجة المطالبين بضرب المصالح الاميركية

قوية وشرعية . وسيصبح المتطرف كثيرا هو المسموع الكلمة كثيرا .

ان رد الفعل الاميركي على انهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات في مصر كان باهتا . وقد التقى رد الفعل هذا رد الفعل الاسرائيلي . فوزير الخارجية الاميركية وليم روجرز قال انه لا امل في تطبيق قرار مجلس الامن الا بالمفاوضات المباشرة . ومن قبله دعت غولدا مئير رئيسة وزراء اسرائيل السادات « الى الاجتماع معا كمتساويين خصوصا اننا لم نعلن حدودا دائمة ولم نرسم خارطة نهائية ولم نطالب بالتزامات مسبقة حول قضايا يجب توضيحها عن طريق المفاوضات ». ويوم الاثنين ٢ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٢ قالت مجلة «تايم» ان اسرائيل عرضت على مصر بواسطة الاميركيين « مشروع سلام » يقضي باعادة اكثر من ثلثي سيناء على ان تحتفظ بغزة وساحل خليج العقبة من ايلات الى شرم الشيخ . ولقد نفت اسرائيل النبأ . كما ان مصر نفته للعالم الخارجي ولم تسمح بنشره في صحفها .

واستمر الوضع على حاله . الوجود العسكري السوفياتي الذي كان يرهب الولايات المتحدة انتهى من مصر . والموقف الاميركي استمر على حاله .

ومصر لا تنوي اعادة النظر في موقفها الثابت وغير مستعدة على حد قول الدكتور محمد حسن الزيات « ان تخطو اي خطوة لا تعرف سلفا انها تؤدي الى التحرير والسلامة والجلاء عن الأرض العربية » .

واكثر من ذلك ان الزيات قال يوم الاربعاء ١٦ اب (اغسطس) ١٩٧٢ ان الوسيط الدولي الدكتور غونار يارينغ منحاز الى اسرائيل «ولو كنت اسرائيليا لحاولت أن اصنع تمثالا ذهبيا للسيد يارينغ » .

ولكن ..

بعد هذا الكلام باسبوعين كان وزير الخارجية المصرية (آنذاك) الدكتور مراد غالب يعقد في جنيف محادثات مع يارينغ احيطت بالكتمان الشديد . وبعدها سافر الوسيط الدولي الى موسكو .

ثم جاءت حادثة ميونيخ يوم الثلثاء ٥ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٢ لتنسف أي خطط للسلام ... اذا كانت هنالك خطط بالفعل برغم تصريحات النفي وتصريحات التشدد والتصلب من جميع الأطراف المعنية .

أما الاتحاد السوفياتي فكان حدد موقفه سلفا عندما نشرت صحيفة « البرافدا » يوم الاربعاء ٢٣ آب (اغسطس) ١٩٧٢ مقالا انتقدت فيه السادات من دون أن تسميه قائلة « ان تقارب بعض الزعماء العرب من الولايات المتحدة لن يكون مثمرا على صعيد تسوية النزاع مع اسرائيل لان تأييد اميركا لاسرائيل يتزايد ، وان السلام العادل لا يتحقق الا بالتعاون معنا » .

١٠ – ماذا يطلب المصريون ... وماذا سيفعل السادات ؟

في اول تصريح للسادات امام الجيش بعد اخراج الخبراء والمستشارين السوفيات ، وكان ذلك يوم السبت ٢٩ تموز (يوليو) ١٩٧٢ في خلال حفلة تدشين اول سفينة حربية من صنع مصري قال مخاطبا الضباط ان الهدف من قرارات انهاء مهمة الخبراء والمستشارين « هو خدمة مصر ومعركة مصر . ان هذه القرارات تلقي علينا تبعات يجب ان نقبلها . وعلينا المسؤولية فالمعركة معركتنا والمصير مصيرنا . ان اسرائيل لن ترحل عن الاراضي المحتلة الا بمعركة ، واننا نستعد لخوض معركتنا لتحرير الارض وبناء قدرتنا الذاتية » .

وقبل ذلك باسبوع (السبت ٢٢ تموز (يوليو) كان محمد حسن الزيات وزير الدولة لشؤون الاعلام (آنذاك) يقول في اول مؤتمر صحافي منذ انهاء مهمة الخبراء والمستشارين « اننا نأمل ونرجو ان تشكل خطوة الرئيس السادات الاخيرة وكل خطواتنا السابقة فرصا للتحرك بالشرق الاوسط نحو السلام . اننا نرفض استمرار حالة اللاحرب واللاسلم لاننا نريد السلام فقط ، ولا نريد حلا يفرضه العسكريون في اسرائيل . كما اننا لا نريد مجرد مهلة في انتظار حرب جديدة » .

وعندما قال الزيات ان مصر ستواصل تقديم تسهيلات بحرية للسوفيات ولاي دولة تحتاج اليها بما فيها الولايات المتحدة ، ظنت السفارات الغربية التي بلغتها التصريحات أن العلاقات المصرية ـ الاميركية في طريق الانفراج . وعندما استفسر الديبلوماسيون الاجانب في اليوم التالي عن هذه التصريحات (التي ادلى بها الزيات للاستهلاك الخارجي، ومن اجل ذلك لم تنشر في الصحف المصرية) قيل لهم : انتظروا خطاب الرئيس فهو سيحدد الموقف في كثير من الوضوح .

وحاول الديبلوماسيون ايضا أن يقفوا على رد فعل مصر حيال معلومات افادت ان الولايات المتحدة ابلغت السادات ان انهاء مهمة الخبراء والمستشارين يساعد على تسهيل المساعي السلمية الاميركية ،

فقيل لهم : انتظروا خطاب الرئيس فهو سيحدد الموقف في كثير من الوضوح .

وحاول الديبلوماسيون ايضا الوقوف على رد فعل مصر حيال التصريحات التي أدلى بها وزير الدفاع الاميركي ميلفن ليرد يوم الاثنين ٢٠ تموز (يوليو) وجاء فيها ان سحب العسكريين السوفيات من مصر لم يشمل طياري النفاثات وخبراء الصواريخ ، فقيل لهم : انتظروا خطاب الرئيس فهو سيحدد الموقف في كثير من الوضوح .

ويوم الاثنين ٢٤ تموز (يوليو) ١٩٧٢ القى السادات خطابه في افتتاح المؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي العربي فاذا به يعلن ان « كل التعقيدات في الموقف سببها اميركا » وان هنالك منشورات طبعت في اميركا تشكك في وحدة المسلمين والاقباط في مصر . واذا به ايضا يعلن ان الولايات المتحدة تعهدت لاسرائيل بثلاثة امور هي :

ــ ان تحول دون صدور قرار من مجلس الامن يلزم اسرائيل بالتراجع الى الحدود التي كانت قائمة يوم ٤ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ .

ــ ان لا تفرض عليها ولا تترك اخرين يفرضون عليها اي تسوية للازمة لا تكون صادرة عن مفاوضات مباشرة بينها (اي اسرائيل) وبين العرب .

ــ ان تحتفظ الولايات المتحدة في كل الظروف لاسرائيل بالتفوق العسكري .

وبعدما سمع الديبلوماسيون الاجانب ، الذين كانوا سالوا كثيرا ، كلام السادات وصلوا الى قناعة ان انهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات قضية مصرية ــ سوفياتية وليس قضية مصرية ــ اميركية من جهة وسوفياتية من جهة اخرى .

ولقد لاحظ هؤلاء كيف ان السادات كرر تلاوة التعهدات الاميركية الثلاثة ست عشرة مرة .

لقد أعلن السادات في الخطاب الذي القاه يوم ٢٤ تموز (يوليو) ان « كل التعقيدات في الموقف سببها اميركا » . وفي أول تصريح له امام الجيش بعد اخراج الخبراء والمستشارين قال ان الهدف من ذلك « هو خدمة مصر ومعركة مصر » .

واذا كانت قرارات انهاء مهمة الخبراء والمستشارين خدمة للمعركة التي لا يتوقف حديث السادات عنها فهل يمكن خوض هذه المعركة اذا كانت العلاقات فاترة او متدهورة بين مصر والاتحاد السوفياتي ؟

بالطبع لا . فليست هنالك الدولة البديل من الاتحاد السوفياتي . هنالك اميركا . ولا يمكن اميركا ان تكون البديل . تمكن مهادنتها بل ومصالحتها والتفاهم معها حتى ولو كان ذلك على حساب شيء من المصالح السوفياتية ، اذا كانت ستحل أزمة الشرق الاوسط في الشكل

الذي يرضي مصر والدول العربية . عدا ذلك لا يمكن ان تكون البديل اذ ليس من المعقول ان تمد الولايات المتحدة اسرائيل ومصر معـــا بالســـلاح .

ان فرنسا واسلحتها ليست هي البديل . وبريطانيا واسلحتهـــا ليست هي البديل . وفوق ذلك ان مسألة اعداد جيش يستعمل السلاح الاميركي أو الفرنسي او البريطاني مسألة معقدة وتحتاج الى فترة طويلة من الزمن .

اذا لا بد من خلق مناخ جديد للتعايش والتعامل مـــع الاتحاد السوفياتي .

لقد اشترط السادات وهو ينهي مهمة الخبراء عقد قمة مع الزعماء السوفيات للبحث في « الوقفة الموضوعية » . والزعماء السوفيات الذين ضايقتهم طريقة السادات في اعلان انهاء مهمة الخبراء والمستشارين ، ضايقتهم شروطه خصوصا انها اعلنت على الملأ . ففي الماضي كان التشاور يتفق عليه من دون مقدمات . عندما يرى الرئيس المصري انه لا بد من التشاور مع زعماء الكرملين في امر ما كـــان يبلـــغ السفير السوفياتي بذلك ويتولى هذا الاخير ابلاغ موسكو وتتم في ضوء ذلك لقاءات ومشاورات .

ان الصيغة الاشتراطية ضايقت السوفيات ولذلك كان تجاوبهم باهتا . ولقد بحث في الموقف مليا في قمة القرم ولم تكن لهجة البيان الذي صدر من اجتماعات زعماء المعسكر الشيوعي في مستوى المناقشة التي سادت الاجتماعات . ولا بد ان الكرملين اخذ في الاعتبار ان بيان قمـــة القرم السابقة التي عقدت للبحث في احداث السودان لم يؤت ثمارا وابعد السودان كثيرا عن الاتحاد السوفياتي . وبدلا من ان يساعد ذلك البيان على زعزعة حكم النميري فان الحكم صمد وازداد تصلبا في وجه اي مسعى لتسوية الموقف مع موسكو . وفوق ذلك ان البيان فتح ثغـــرة في جدار العلاقات المصرية ــ السوفياتية وعمق الشكوك المتبادلة بين النظامين .

ولولا ان الصيغة الاشتراطية لم تضايق السوفيات لما كـــان السادات ابلغ اعضاء مجلس الشعب في الجلسة التي عقدها المجلس قبل ظهر الخميس ١٧ آب (اغسطس) ١٩٧٢ انه لن يرد على الرسالة التي وصلته من بريجنيف في اعقاب انهاء مهمة الخبراء والمستشاريـــن لانها في الاصل غير مقبولة بسبب لهجتها ، وانه سيبعث اليه برسالة في الوقت المناسب .

واضاف « الموقف لا يتحسن . المفروض ان يحضر الى القاهرة وفد سوفياتي على مستوى عال لكن هم قاعدين في القرم . ان الرسالة التي بعث بها بريجنيف سيئة ومرفوضة . والدكتور الزيات اعطاها وصفا

اقل من الذي تستاهله . وواضح ان زعماء الكرملين ما زالوا يفكرون بعقلية ما قبل ٨ يوليو (يوم اتخاذ السادات قراراته انهاء مهمة الخبراء) . انا شايف ان الرسالة كتبها مجموعة خبراء سوفيات في الشؤون السياسية ووقعها بريجنيف . وانا سارسل رسالة اخيرة الى بريجنيف قبل ما اقطع » .

وقال ان ثلاثة ارباع الرسالة يتحدث عن الامبريالية ودور الاتحاد السوفياتي ، اما الربع الاخير فعبارة عن عتاب .

وشاع في اوساط مجلس الشعب ان الزعماء السوفيات لا يحبذون عقد قمة مصرية ـ سوفياتية في موسكو ولا في القاهرة وانهم يرون ان يجتمع رجال الصف الثاني في العاصمة السوفياتية ويشكلون لجانا ثم ترفع هذه اللجان تقريرا الى القيادة .

وقبل ان اكمل سرد ما قاله السادات في مجلس الشعب ارى الاشارة ضرورية الى انه تردد في تلك الفترة ان رسالة وصلت الى الدكتور عزيز صدقي رئيس وزراء مصر من رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي اليكسي كوسيغين . وقد ثار صدقي عندما حاول الصحافيون ان يتأكدوا منه ما اذا كان بالفعل تسلم رسالة وأمر بعدم نشر الخبر ، معتبرا ان نشره هو بمثابة تخريب عليه لان معناه ان بين السوفيات وبينه علاقة خاصة .

وفي خلال الجلسة التي عقدها مجلس الشعب حاول بعض الاعضاء الاستفسار من السادات عن امور داخلية وعربية الا انه قال لهم ان الاجتماع مخصص للعلاقات المصرية ــ السوفياتية . لكنه في الوقت نفسه تحدث عن موضوعين رأى انهما مكملان للموضوع الذي انعقد المجلس من اجله . الموضوع الاول هو العلاقات مع السودان . والموضوع الثاني هو اتفاق الوحدة مع ليبيا .

حول الاول قال : النميري ناكر للجميل . احنا اللي رجعناه . وحتى لما حصل انقلاب هاشم العطا كان الطلب الاساسي اللي طلبناه هو المحافظة على حياة النميري . وبكل أسف انا ماعرفش ارتباطاته ايه . انما الخط اللي ماشي بيه غير مفهوم . وانا تعمدت اني ما استقبلش عمر الحاج موسى .

(كان وزير الاعلام السوداني عمر الحاج موسى آنذاك في زيارة للقاهرة وقد اجتمع الى وزير الاعلام المصري الدكتور عبد القادر حاتم فقط) .

حول موضوع اتفاق الوحدة مع ليبيا قال : انا حاولت اؤجلها سنة . رحت لقيت القذافي مولع الدنيا . والمظاهرات في الشوارع تطالب بالوحدة . ان القذافي رجل مخلص . وحتى عرض أن تشتري ليبيا الطائرات التي تريدها مصر . وانا قلت له ان القضية مش قضية فلوس

وانما حنجيب السلاح منين ؟
ثم أكد السادات انه منذ يوم ١٥ أيار (مايو) ١٩٧١ (يوم ضرب علي صبري وافراد مجموعته) لم تتسلم مصر من الاتحاد السوفياتي سلاحا له قيمة .
ومنذ انتهى اجتماع مجلس الشعب والبعض الذي عرف بما قاله السادات يتساءل : ما الذي قصده السادات من عبارته « انا حابعت رسالة لبريجنيف قبل ما اقطع » . هل انه يقصد الغاء المعاهدة ام فرض قيود على تموين السفن السوفياتية ؟
لقد حدث بعد أيام من انهاء مهمة الخبراء والمستشارين ان سحب السوفيات ، من دون أن تطلب منهم مصر ذلك ، قطعهم الحربية من المتوسط والبالغ عددها قرابة ستين قطعة . اذا فمسألة القيود على تموين السفن غير واردة . اما موضوع المعاهدة فانه لا قيمة له ما دامت العلاقات فاترة . والموضوع ليس موضوع وثيقة مكتوبة بين دولتين بقدر ما هو تنفيذ روحية الوثيقة انطلاقا من القناعة الكاملة بها .
بعد اجتماعه الى اعضاء مجلس الشعب التقى السادات وهو يقضي اجازته في الاسكندرية رجال الصحافة والاعلام . ولاحظ الذين حضروا اللقاء أن السادات قال كلاما اكثر حدة في حق السوفيات .
ومما قاله ان الاتحاد السوفياتي يشن حملة اعلامية ضد مصر وتتولى سفاراته في الخارج توجيه هذه الحملة وتعزيزها ، وتصور الحملة حقيقة الموقف مغلوطة .
وزاد : « هم بصعدوا الموقف وانا مستني . لكن لما يجي الوقت للتصعيد حاكشفهم . حافضحهم في العالم كله » .
وسأل رجال الصحافة : هل يمكن ان نرد على الحملة السوفياتية ؟
واجابهم : ردوا . واجهوا الحملة انما من دون تصعيد .
ووجد في الاجتماع من يقول للسادات : ماذا في شأن التجمعات الماركسية في مصر ؟
ورد السادات : لا يمكن ان اتخذ اجراء استثنائيا . اللي عاوز يبقى ماركسي يبقى . انما ما دام لا يشكل خطرا على امن الدولة فلن نتعرض له .
وسأل اخر : ان الكتب الماركسية توزع بكثرة في البلد . الا يجب ان ننشط من جانبنا لاظهار خطورة الماركسية ؟
وقال السادات : ارفض شن حملة ضد الماركسية . اللي عاوز يقول رأيه يقوله .
وسأل احدهم عن المعركة وهل ان اخراج السوفيات يعني تأجيلا لها .
وأجاب السادات : سنخوض المعركة ضد اسرائيل قبلنا او كرهنا .

ان مرور خمسين يوما على قرارات السادات انهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات كان كافيا لوضع تقييم لما جرى ووضع تصور لما يجب ان يحدث في المستقبل .

وفي هذه الفترة انقسم المصريون فرقاء . الغالبية العظمى ترى ان يذهب السادات بعيدا في موضوع مجابهة السوفيات . فاذا كانوا يريدون ان يتفهموا مصر فلتفتح صفحة جديدة معهم ، والا فليبحث الحاكم المصري عن وسيلة اخرى . وفريق عاقل يرى أن مسالة العلاقات مع السوفيات يجب أن تعالج من زاوية الهدوء والحرص على المصلحة وليس من زاوية الغضب . ويتسلح هؤلاء بعبارة قالها السادات في معرض سؤاله عما يقال ان الاتحاد السوفياتي لم يمد مصر بالسلاح الذي يساعدها على حسم الموقف وهي « اذا كان صديقي مليونيرا ، واذا كان محجما عن تزويدي بما اريد بأي حجة ، وانا أعرف انه قادر على اقراضي ، فواجبي أن استمر في اقناعه ، حتى يقدم لي ما اريد » .

وفريق يرى ان على الرئيس السادات ان يستقل الطائرة ويتوجه الى موسكو ويتصارح مع زعماء الكرملين في كل صغيرة وكبيرة . ومثل هذا اللقاء بعد الجفاء الذي اخترق جدار العلاقات من شأنه ان يفيد . ذلك بأنه ليس هنالك بديل من الاتحاد السوفياتي ما دام الاحتلال قائما.

وفريق متطرف يرى ان مصر استفادت سياسيا واقتصاديا من خطوة السادات في انهاء مهمة الخبراء والمستشارين وما تبعها من خطوات أخرى .

كيف ؟

هذا الفريق يعتبر ان اي عملية اتصال مصرية بالعالم الخارجي كانت تتم عن طريق السوفيات . بعد ذلك اصبحت مصر في حل من هذا الشيء واصبح الاتصال يتم من دون طرف ثالث .

وهذا الفريق يعتبر ان طبيعة العلاقات بين مصر والاتحاد السوفياتي بعد استقدام الخبراء والمستشارين والمدربين ، وبعد عقد معاهدة الصداقة والتعاون ، أفقدت مصر صفة عدم الانحياز ، واصبح العالم يعامل مصر على أساس انها منحازة وجزء من كتلة معينة . وخسرت مصر من جراء ذلك فوائد مادية وسياسية كثيرة . وبعد قرارات السادات نشأ وضع جديد . وبدأت دول كثيرة تتزاحم لتقديم العروض الى مصر .

والمعركة ؟

ان هذا الفريق يبسط الامر كثيرا .يعتبر ان المسالة مسالة تخطيط. كان التخطيط قائما على أساس ان السلاح سوفياتي . بعد ذلك يصبح التخطيط على اساس السلاح المتوافر والممكن الحصول عليه .

ولكن ذلك يتطلب وقتا طويلا . والفريق المتطرف يأخذ في الاعتبار ان الصراع العربي ــ الاسرائيلي سيكون طويلا جدا .

وهذا الفريق يعتبر ان فرص تصليح الموقف مع الاتحاد السوفياتي ليست متوافرة ما دام هدف السوفيات هو اسقاط نظام السادات . وهم حاولوا بالفعل اسقاطه عندما طلبوا من علي صبري وافراد مجموعته ان يلحوا على السادات في بدء المعركة . وقد فعل علي صبري ما طلب منه . وكان تصور السوفيات انه اذا كان الجميع يريدون الحرب والسادات لا يريدها فان النظام يسقط تلقائيا .

ويشير هذا الفريق الى ان السوفيات شجعوا على المطالبة بالمعركة في حين انهم يعرفون جيدا ان مصر ليست قادرة عليها وانهم لا يتجاوبون معها لجعلها قادرة .

ولدى هذا الفريق قناعة بان السوفيات كانوا يسعون بعد جمال عبد الناصر لكي يكون حاكم مصر شيوعيا او ذا ميول شيوعية .

ولكن هل هذا ممكن . هل يعقل ان يكون حاكم مصر شيوعيا ؟

ويقول الفريق المتطرف ان الاتحاد السوفياتي لا يهمه ان يكون النظام شيوعيا ؛ الذي يهمه هو أن يكون رأس النظام رجلهم . وبعدها تصبح المسألة سهلة . ويستطيع الرئيس حكم البلد بالاجهزة .

ويضيف هذا الفريق : كانت سياسة الاتحاد السوفياتي دائما هي التعامل مع مصر بطريقة غريبة . كان السوفيات دائما يتباطأون في تلبية حاجات مصر . لماذا ؟ لان سياستهم تقضي بذلك . وهم لو لبوا كل ما تطلبه مصر لما كانوا سيبقون . ان بقاء السوفيات في مصر كان رهنا بحاجة مصر اليهم . ولقد اراد السادات اعادة النظر في هذه الطريقة لان مصر كانت ستصبح مع مرور الزمن اسيرة حقيقية لهم .

ان منطق هذا الفريق يبالغ في تصوراته واجتهاداته ولكنه وجد قطاعات عريضة من المصريين تقبل به . ولكنه ليس المنطق الذي سينتصر في النهاية .

ما هو اذا المنطق الذي سينتصر ؟

ان نظرة الى « بيان تنظيمي » أصدرته الامانة العامة للاتحاد الاشتراكي العربي في آب (اغسطس) ١٩٧٢ وموجه الى قيادات التنظيم واعضاء لجانه ، ان نظرة الى هذا البيان السري توضح لنا ان في نية النظام المصري احتواء الخلاف الذي حدث . فقد جاءت في البيان (راجع نصه الكامل في فصل الوثائق) فقرة تنص « ان التحليل الموضوعي للصداقة المصرية ـ السوفياتية يجعل تلك الصداقة حقيقة نحرص عليها ايمانا باهميتها وضرورتها وما توفره لنا من دعم في حركتنا الداخلية نحو التنمية ... » .

كذلك فان وزير الدولة لشؤون الاعلام (آنذاك) محمد حسن الزيات بسط الامر عندما قال لي في لقاء معه يوم الثلثاء ٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٢ « اذا كنا حريصين على الا نفقد صوت تاهيتي ... فهل نفقد

صوت الاتحاد السوفياتي . ان اعجابنا بفرنسا مثلا سببه انها فرضت حظرا على السلاح لاسرائيل في حين ان الاتحاد السوفياتي يمدنا بالسلاح والمساعدات . والمسألة المطروحة ليست اذا كان يجب أن يكون هنالك تعاون بين مصر والاتحاد السوفياتي ، وانما المدى الذي يستطيع ان يذهب اليه الاتحاد السوفياتي في هذا المجال » .

اما محمد حسنين هيكل الذي كان اول من اخرج الازمة المصرية ـ السوفياتية من السر الى صفحات « الاهرام » فانه حرص على أن يقول وهو في زيارة لميونيخ في مقابلة مع وكالة الانباء الالمانية الغربية وزعتها يوم ٢٩ آب (اغسطس) ١٩٧٢ « اننا نحرص على ان تبقى علاقتنا جيدة مع الاتحاد السوفياتي . ان العلاقات السياسية والاقتصادية يجب الا تتأثر مهما يحدث . ان الجيش المصري تجهز في خلال سنوات بالمعدات العسكرية السوفياتية وليس هنالك سبب ، بل لا يمكن تغيير مصدر السلاح لان ذلك سيكون صعبا جدا . اننا نكتفي بالسعي الى شراء معدات عسكرية صغيرة من مصادر اخرى » .

وفي اليوم نفسه كان وزير الخارجية المصرية (آنذاك) الدكتور مراد غالب يقول في مكسيكو « ان السوفيات تركونا كأصدقاء وسيحترمون اتفاقاتهم معنا » .

لقد حرص السادات على ان يصف خطوته في اخراج العسكريين السوفيات بأنها كانت « تحذيرا اوليا » وانه ينتظر ردا من موسكو قبل ان يقوم بـ « الخطوة الثانية » .

وكما ان السوفيات لم يفهموا او انهم لم يحاولوا فهم العقلية المصرية فان نظام السادات لا يريد ان يتفهم العقلية السوفياتية . ان تعابير من نوع « انهاء مهمة الخبراء » بدل « انتهاء مهمة الخبراء » و« تحذير اولي » بدل « تنبيه اولي » لا تؤدي الى المطلوب، الا اذا كانت النية انهاء التعامل مع الاتحاد السوفياتي وخلق قطيعة وهو امر لا يمكن حدوثه ما دامت مصر في حاجة الى السلاح السوفياتي ، وما دامت اقساط المرحلة الثانية مثلا من قرض السد العالي تنتهي في كانون الثاني (يناير) ١٩٨١ ، ناهيك باقساط السلاح التي ليس معروفا متى يستحق موعد تسديدها .

في الوقت الذي كان الخبراء والمستشارون السوفيات يغادرون القاهرة تلبية لطلب الرئيس انور السادات . وفي الوقت الذي كانت سفنهم التي نعمت بضع سنوات بالمياه الدافئة تمخر عباب المتوسط متجهة الى البحر الاسود عائدة الى حيث الصقيع والجليد ، في هذا الوقت كانت تحط في مطار القاهرة طائرات الايليوشن حاملة اعدادا من

ابناء الجمهوريات السوفياتية جاءوا الى مصر ... للسياحة .
والمصريون بدأوا منذ ثلاث سنوات يعرفون السوفيات سياحا .
وبالطبع لم يعجبهم هذا النوع من السياح . فالفرق كبير بين أن يكون السائح اميركيا وبين ان يكون قادما من جمهوريات الاتحاد السوفياتي .
السائح الاميركي او الاوروبي جيوبه مكدسة بالدولارات .
والسائح السوفياتي ليس في جيوبه سوى بضعة دولارات . ومن اجل ذلك فهو لا ينفق في خلال وجوده في مصر سوى القليل . ومن اجل ذلك ايضا فان ترحيب فنادق مصر وتجارها وملاهيها بهم يكون دائما باهتا .
ولقد بدأ السوفيات يأتون سياحا الى مصر بموجب اتفاق سياحي مع الحكومة المصرية . والهدف من هذا الاتفاق كان تسديد بعض الديون المترتبة على مصر . وبموجب الاتفاق الذي لم ينته بعد تصل كل يوم ثلثاء من موسكو طائرة «ايليوشن» حاملة مئة وثلاثين من شغيلة الاتحاد السوفياتي وتعود الطائرة محملة بمئة وثلاثين آخرين امضوا اسبوعهم المقرر في مصر .
وبعد حرب ١٩٦٧ حاول احد المصريين اجتذاب السوفيات فأنشأ متجرا في حي الزمالك الذي كانت تسكنه عشرات العائلات السوفياتية أطلق عليه أسم « لينينغراد » . وكان هذا هو الاسم الروسي الوحيد يطلق على محل تجاري في مصر وسط الاسماء الاميركية والانكليزية والفرنسية واليونانية الكثيرة .
ولن اجد خاتمة لهذا الكتاب افضل من عبارة قالها الدكتور محمد حسن الزيات عندما سألته ، وكان في صدد وضع تقييم لعملية ميونيخ التي قام بها شبان من منظمة « ايلول الاسود » ، وكانت بلغته قبل قليل من لقائنا يوم الثلثاء ٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٢ ، ماذا بقي من السوفيات في مصر ؟ فأجاب :
« السد العالي ومجمع الحديد والصلب وذكريات في قلوب المصريين ... » .

وثائق

يتالف هذا الفصل من ٦ وثائق . الاولى هي النص الكامل للمعاهدة المصرية ـ السوفياتية . والثانية عبارة عن مذكرة رفعتها الى الرئيس السادات مجموعة من الشخصيات المصرية وتحذر من الاتحاد السوفياتي مطالبة في الوقت نفسه بقيام جبهة وطنية .

اما الوثيقة الثالثة فهي بيان للجنة المركزية يتضمن قرارات السادات انهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات .

الوثيقة الرابعة هي « بيان تنظيمي » حول العلاقات المصرية ـ السوفياتية موجه الى قيادات تنظيم الاتحاد الاشتراكي العربي .

اما الوثيقة الخامسة ، فعبارة عن بيان سري جدا لمحمود رياض عن المعركة واميركا وروسيا والحل السلمي .

والوثيقة السادسة تسجل وعدا للسادات بان يتم التحرير قبل ٢٥ نيسان (ابريل) ١٩٧٣ .

النص الكامل للمعاهدة المصرية – السوفياتية

في ما ياتي نص معاهدة الصداقة والتعاون التي وقعت عليها مصر والاتحاد السوفياتي مساء الخميس ٢٧ أيار (مايو) ١٩٧١ :

ان اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية والجمهورية العربية المتحدة مقتنعان كل الاقتناع بأن متابعة تطور الصداقة والتعاون بين اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية والجمهورية العربية المتحـدة تلبي مصالح شعوب الـدولتين وتخدم قضية تعزيز السلام العالمي .

وانطلاقا من مثل النضال ضد الامبريالية والاستعمار من اجل الحرية والاستقـلال والتقدم الاجتماعي للشعوب والعزم على خوض النضال الثابت من اجـل تعزيز السلام العالمي والامن ، وطبقا للنهج المستقل لسياستهما الخارجية المحبة للسلام ، وتاكيدا للامانة لاهداف ميثاق هيئة الامم المتحدة ومبادئه والسعي الى تعزيز العلاقات التقليدية للصداقة الخالصة بين الدولتين والشعبين وتوثيقها عن طريق عقد معاهدة حول الصداقة والتعاون تخلق اساسا لتطورهما اللاحق ، اتفقا على ما ياتي :

المـادة الاولى :

يعلن الطرفان المتعاقدان الساميان رسميا انه ستبقى دوما صداقة لا تنفصم عراها بين كلا البلدين والشعبين .

وانهما سيطوران ويوطدان في المستقبل ايضا مـا يربطهما من اواصر الصداقـة والتعاون الشامل في المجالات السياسية والاقتصادية والعلمية الفنية والثقافية ، والمجالات الاخرى ، على اساس مبادىء الاحترام لسيادة الدولة وحرمة كامل اراضيها وعدم التدخل في الشؤون الداخلية لبعضهما البعض ، والمساواة والمنفعة المتبادلة .

المـادة الثانية :

ان اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية ، كدولة اشتراكية ، والجمهوريـة العربية المتحدة الهادفة الى بناء مجتمع اشتراكي ، سيتعاونان بصورة وثيقة وشاملة على توفير الظروف لديمومة المنجزات الاجتماعية الاقتصادية لكلا الشعبين وتطويرها اللاحق .

المــادة الثالثة :

واذ يسترشد اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية والجمهورية العربية المتحدة بالسعي الى العمل من كل الجوانب لصيانة الســلام العالمي وامن الشعوب ، فانهمــا سيواصلان بكل حزم بذل الجهود التي تستهدف تحقيق السلام الوطيد والعادل في الشرق الاوسط وصيانته طبقا لاهداف ميثاق الامم المتحدة ومبادئها . ان الطرفين المتعاقدين ، اذ ينتهجان سياسة خارجية محبة للسلام ، سيناضلان من اجل السلام وتخفيف حدة التوتر الدولي وتحقيق نزع السلاح التام والشامل وحظر الاسلحة النووية وغيرهــا من انواع اسلحة الابادة الجماعية .

المــادة الرابعة :

واذ يسترشد الطرفان المتعاقدان بمثل الحرية والمساواة بين كل الشعوب ، فانهما ينددان بالامبريالية وبالاستعمار بكل اشكالهما ومظاهرهما . وسيقفان في المستقبل كذلــك ضد الامبريالية ومن اجل التصفية الكاملة والنهائية للاستعمار وتنفيذ لائحة الامم المتحدة الخاصة بمنح الاستقلال لكل البلدان والشعوب المستعمرة وسيناضلان من دون هوادة ضد العنصرية والابارتيد (التفرقة) .

المــادة الخامسة :

وسيعمل الطرفان المتعاقدان في المستقبل ايضا على توسيع التعاون الشامل وتعميقه وتبادل الخبر في المجالات الاقتصادية والعلمية الفنية في الصناعة والزراعة والثروة المائية والري واستغلال الموارد الطبيعية وتطور الطاقة واعــداد الكوادر الوطنية وغيرها من مجالات الاقتصاد .

وسيوسع الطرفان التجارة والملاحة بين كلتا الدولتين عــلى اساس مبادىء المنفعة المتبادلة وقاعدة أولى الدول بالمراعاة .

المــادة السادسة :

وسيعمل الطرفان المتعاقدان على متابعة تطوير التعاون بينهما في مجال العلم والفنون والاداب والتعليم والصحة والصحافة والاذاعة والتلفزيون والسينما والسياحة والتربية البدنية وغيرها من المجالات . وسيعمل الطرفان على توسيع التعاون والاتصالات المباشرة بين المنظمات السياسية والاجتماعية للشغيلة والمؤسسات والدوائر الثقافية والعلمية من اجل التعرف المتبادل والاعمق على حياة وعمل منجزات شعبي كلا البلدين .

المــادة السابعة :

ان الطرفين المتعاقدين اللذين تهمهما صيانة السلام وامن الشعوب ، واذ يوليان اهمية كبيرة بتنسيق اعمالهما على الصعيد الدولي في النضال من اجل السلام ، فانهما سيجريان

لهذا الغرض المشاورات المنتظمة بينهما على مختلف المستويات حول كـل القضايا المهمة التي تمس مصالح الدولتين . وفي حالة نشوب اوضاع يـرى الجانبان فيها خطرا عـلى السلام او خرقا له ، فانهما سيجريان فورا الاتصالات بينهما بغية تنسيق مواقفهما لازالة الخطر الناشيء او احلال السلام .

المـادة الثامنة :

ولصالح تعزيز القدرة الدفاعية للجمهورية العربية المتحدة ، فان الطرفين المتعاقدين سيواصلان تطوير التعاون في المجال العسكري على اساس الاتفاقات المعنية بينهما .
ان مثل هـذا التعاون سينص ، من جملـة ما ينص ، عـلى المساعـدة في تدريب العسكريين في الجمهورية العربية المتحدة وفي اتقان استعمال الاسلحة والمعدات التي تزود بها الجمهورية العربية المتحدة لتعزيز قدرتها في قضية ازالة اثار العدوان ، وكذلك تعزيز قدرتها لمواجهة العدوان بصورة عامة .

المـادة التاسعة :

وانطلاقا من اهداف هذه المعاهدة ومبادئها يعلن كل من الطرفين المتعاقدين بانه لن يدخل في تحالف ولن يشترك في اي تكتل دولي او في اي اعمال او تدابير موجهة ضد الطرف المتعاقد الاخر .

المـادة العاشرة :

ويعلن كل من الجانبين المتعاقدين عن ان التزاماته بالمعاهدات الدوليـة القائمة لا تتعارض مع احكام هذه المعاهدة ، وانه يلتزم بعدم انضمامه الى اي اتفاق دولي يناقض هذه المعاهدة .

المـادة الحادية عشرة :

وسيمتد مفعول هذه المعاهدة خمس عشرة سنة اعتبارا من يوم سريان مفعولهـا .
واذا لم يعلن احد الطرفين المتعاقدين قبل سنة من انتهاء الفترة المذكورة عن رغبته في انهاء مفعول المعاهدة فان مفعول المعاهدة سيسري لمدة خمس سنوات اخرى ، وهكذا ، الى ان يعلن احد الطرفين المتعاقدين ، قبل عام من انتهاء مفعول الخمس سنوات ، عن نيته تحريريا بايقاف مفعولها .

المـادة الثانية عشرة :

وتخضع هذه المعاهدة للابرام وستكون نافذة المفعول من يوم تبادل وثائق الابرام الذي سيجري في اقرب فرصة في مدينة موسكو .

ووضعت هذه المعاهدة في نسختين باللغتين الروسية والعربية وان النسختين لهمـــا المفعول نفسه .

وقعت في مدينة القاهرة في السابع والعشرين من ايار ١٩٧١ الموافق الثالث من ربيع الثاني ١٣٩١ هجرة .

عن اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية
ن. بودغورني

عن الجمهورية العربية المتحدة
انور السادات

مذكرة الى السادات

تحذر من روسيا وتطالب بجبهة وطنية

في ما ياتي نص مذكرة رفعها عبداللطيف البغدادي و٩ شخصيات مصرية معروفة الى الرئيس انور السادات :

ما من مصري يملك اليوم ان يلوذ بالصمت . واولئك الذين يملكون الراي ويحبسونه ضنا به ، او حذرا لعواقب ، انما يرتكبون في حق مصر اثما لا يغتفر .

ان الموقعين على هذا الخطاب ، مصريون . تلك هي صبغتهم الوحيدة ، يتوجهون الى رئيس الدولة مدركين كل الادراك انهم لا يفضلون احدا من ابناء مصر الا بامر واحد ، انهم اثقل حملا . لقد منحتهم مصر شرف خدمتها وبوأتهم مكانا رفيعا بين الصف الاول من خدامها . ان لمصر اذن في ذمتهم دينا مضاعفا .. انهم يتقدمون بهذا الخطاب وفاء لدين مصر وولاء لها .

لم تعرف مصر ، على ما حفل به تاريخها من محن ، محنة كتلك التي تمر بها .

ان المحن التي اطبقت على مصر لا تهدد الارض وحدها . ان مصر ، حضارة وتراثا ، عقيدة وقيما ، نضالا وعملا ، فكرا وعلما واملا . ان مصر ، وجودا ومصيرا ، تمتحن اليوم امتحانا شديدا ، ود الاعداء لو كان فيه هلاكها .

ان الغزو الاسرائيلي يدنس ، منذ ٥ سنين ، جزءا غاليا من ارض مصر .. وفي نيته — وقد اعد لها ما استطاع من قوة — ان يجعل منه جزءا لا يتجزأ من اسرائيل .

ان الولايات المتحدة الاميركية — احدى الكبريين — تقدم لاسرائيل من القوة القدر الذي ياذن لها بالاصرار على العدوان ، ويغريها بالمزيد .

ان الاتحاد السوفياتي — القوة الكبرى الاخرى — يقدم لنا من العون ، الذي لا ياذن حتى اليوم بتحرير الارض واسترداد الحق .

ان الدول العربية — لاسباب متباينة عند كل منها — لم تستجمع بعد كل قواها ، ومن ثم فان العمل العربي من اجل التحرير لم يرق بعد الى مستوى الخطر الذي يهدد الامة .

ان البناء الداخلي يوشك ان ينقض .

فان هزيمة يونيو باسبابها واحداثها وعواقبها قد زلزلت التيار الوطني ، فكشفت منه

صدوعاً واحدثت تصدعا .

ولدت هزيمة يونيو في حضن استبداد الفرد بالسلطة وصورية التنظيم الشعبي والمؤسسات الدستورية وتحيز القانون وغلبة التشريعات الاستثنائية ، وامتهان الكلمة الحرة ، وشيوع الخوف ، فالنفاق ، فالهون ، فالهوان .

ولقد وعى الشعب درس الهزيمة ولن ينساه .

طريق النصر لا يمكن بحال ان يكون طريق الهزيمة .

صنعت مصر امسها وحدها ولن يصنع الغد سواها . تلك هي الحقيقة الاولى ، بل الكبرى التي ينبغي ان نعود اليها .

لقد انقضت على هزيمة يونيو سنوات خمس ، ولئن صح ان الزمن عامل محايد فالاصح انه ينحاز بغير تردد ضد اولئك الذين لا يحسنون تقديره ، ولقد آن لمصر ان تحسن تقديره .

ان لمصر ان تستخلص بامانة وشجاعة تلك الحقيقة الكبرى التي اسفرت عنها استراتيجية العمل الوطني بعد خمس سنين من الهزيمة .

لقد آن الاوان لان ترسم سياسة التحرير الوطني على اساس ان قوى مصر الذاتية وحدها — روحية ومادية — هي الركيزة الاولى والارضية لتلك السياسة . نحن وحدنا اصحاب الشرف المثلوم والكرامة الجريحة والارض المحتلة ، ولن يسترد الشرف والكرامة والارض سوانا .

ان حسابات معركة التحرير الوطني ينبغي ان تراجع على هدى من امكانات مصر وحدها .

لقد عاشت مصر الخالدة تحارب من اجل استقلالها في جبهتين : الغزو الاسرائيلي ، واطماع القوى الكبرى . وحينئذ فان الامكانات الوطنية هي التي تحدد طبيعة النضال الوطني من اجل التحرير واسلوبه .

وآن الاوان من ثم لمراجعة سياسة الاسراف في الاعتماد على الاتحاد السوفياتي . ان تلك السياسة لم تحقق بعد ٥ سنين من الهزيمة ، تحرير الارض وردع العدوان واسترداد الحق . ونحن لا نقصد بحال المساس بالصداقة المصرية — السوفياتية ، فانه لمن قبيل الطيش ان تستغني مصر عن صداقة احدى القوتين الكبريين . ان ما نقصد ان تعود العلاقة السوفياتية الى الاطار الطبيعي والمأمون للعلاقة بين دولة حديثة الاستقلال حريصة عليه حرصها على الحياة ، ودولة كبرى لا تبرأ استراتيجيتها — بحكم العقيدة والمصلحة — من طموح الرغبة في بسط النفوذ .

وليس يدور بخلد واحد منا ان الخط السياسي المقترح يمكن ان يتم بخطى غير متانية ، او باسلوب غير محكم الاعداد والتنفيذ . ان التحول الى الخط الجديد ينبغي ان يستوفي حقه من الوقت ومن الاعداد المحكم والحكيم ، وان امنه وضمانه وجدواه تكمن كلها في سلامة الخطوات التكتيكية المنفذة له ودقتها .

وآن الاوان الآن كي تعود مصر الى منطقة الامان بين القوتين الكبريين ، بل بين القوى الكبرى بعد تعدد الاقطاب . لقد كانت مجاوزة حدود تلك المنطقة بغير شك سببا من اسباب المحنة .

ان سياسة محالفة الشيطان لا اعتراض عليها ، الا اذا كانت او انتهت لحسابه ، وهي بالضرورة مفضية الى حسابه اذا لم يكن الحليف كفؤا له ونده .

لقد عبرت حركة الطلاب الاخيرة عن مشاعر القلق التي تنتاب مصر على مصيرها ، قلقا فجره التشكيل الوزاري الاخير . ان الشعب قد ازداد شكا في قدرة الاوضاع الراهنة على تحرير مصر .

ان الموقعين على هذا الخطاب يقدرون ما تبذلون من جهد صادق من اجل الوطن ، على ان تبعات مصر اليوم تبعات كبرى ، والتبعات الكبرى لا يقوى على حملها غير اولي القوة والاقتدار والشجاعة من اشراف الرجال . ان كل الشخصيات الوطنية التي عرفت في ولائها لمصر ولثورة ٢٣ يوليو الشجاعة الراي والاقتدار ينبغي ان تدعى لمناقشة شؤون الوطن العامة واقتراح تشكيل جبهة وطنية تتولى تخطيط سياسة النضال الوطني من اجل التحرير .

والله نسال ان يوفقنا جميعا وان يهيء لنا من امرنا رشدا .

عبد اللطيف البغدادي ، كمال الدين حسين ، احمد عبده الشرباصي ، محمد عصام الدين حسونه ، عبد الخالق الشناوي ، احمد كمال ابو الفتوح ، الفريق مدكور ابو العز ، الدكتور رشوان فهمي محفوظ ، الدكتور المهندس مصطفى خليل ، صلاح دسوقي .

القاهرة ٤ ابريل (نيسان) ١٩٧٢

قرارات انهاء مهمة الخبراء والمستشارين في بيان اللجنة المركزية

الثلثاء ١٨ تموز (يوليو) ١٩٧٢ عقدت اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي اجتماعا فوجئت بالرئيس انور السادات يعلن فيه انهاء مهمة الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات . وحول هذا الاجتماع اصدرت اللجنة البيان الاتي :

« عقدت اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي اجتماعا صباح الثلثاء ١٨ يوليو (تموز) ١٩٧٢ برئاسة الرئيس محمد انور السادات .

وفي بداية الجلسة اعلن الرئيس ان هذا الاجتماع يوافق ذكرى العيد العشرين لثورة ٢٣ يوليو المجيدة التي نعمل جميعا في اطار مبادئها ومن أجل استمرارها ، ثم دعا الاعضاء الى ان يقفوا دقيقة تحية لذكرى الرجل الذي فجر تلك الثورة ، جمال عبدالناصر — رحمه الله — .

ثم القى الرئيس بيانا سياسيا مهما استغرق نحو ساعة ونصف الساعة ، عرض فيه الموقف السياسي وتطورات علاقات الصداقة المصرية — السوفياتية ، كما اعلن قرارات مهمة تم اتخاذها في اطار تلك الصداقة .

وقد بدأ الرئيس بتحديد الخط المبدئي الذي تسير عليه سياستنا الخارجية ، فقرر انه الخط الاساسي الذي انتهجته ثورة ٢٣ يوليو (تموز) التي فجرها منذ عشرين عاما الزعيم الراحل جمال عبدالناصر . ومؤدى هذا الخط ان قراراتنا كلها تنبع من ارادتنا ، وتستمد من الشخصية المصرية ، ومن تراب مصر ، وتخدم مصالح شعب مصر الذي لم يقبل ابدا ان يدخل في مناطق النفوذ .

واعلن الرئيس بعد ذلك انّ هذه السياسة المبدئية هي التي جعلت تاريخ الثورة منذ قيامها عام ١٩٥٢ سلسلة متصلة من المعارك .

وبعد ان عرض الرئيس تفاصيل هذه المعارك منذ بدا النضال ضد الاحتلال الانكليزي، ثم منذ حاولت الولايات المتحدة احتواء القوى الوطنية والثورية في حلف بغداد الاستعماري عام ١٩٥٤ الى ان وقع العدوان الاسرائيلي عام ١٩٦٧ بينما كانت ثورة ٢٣ يوليو دائمة

ولا تزال نقبل التحدي وترد عليه ، وكان خطها ــ وسيظل دائما ــ خطا مبدئيا تحكمه ثلاثة امور :

نحن ضد الامبريالية والاستعمار .

ونحن نبني مجتمعا اشتراكيا من واقع ارضنا هنا .

ونحن نتحرك في اطار القومية العربية التي تربط شعب مصر بشعوب البلاد العربية ارتباط تاريخ ومصلحة ومصير .

والذي يهمنا في ذلك كله هو مصلحة شعبنا .

واضاف الرئيس السادات :

« وخلال هذه المعارك كلها كان لنا في سياستنا الخارجية هدف اساسي ، هو ان تكون علاقتنا بالاتحاد السوفياتي وخاصة بعد سنة ١٩٦٧ على اكمل واحسن ما يمكن وعلى جميع المستويات . وكان هذا خطا اساسيا في سياستنا . ذلك ان عدونا الرئيسي اسرائيل ورغم تدعيمها كاملا من الولايات المتحدة .. والاتحاد السوفياتي وقف معنا في جميع الميادين سياسيا واقتصاديا وعسكريا . وكان هذا موقفه من قبل عدوان ١٩٦٧ . ففي عام ١٩٦٥ حين انذرتنا الولايات المتحدة في عهد جونسون بقطع المعونة ثم قطعتها فعلا ، سافرنا الى الاتحاد السوفياتي وكنت مع الرئيس جمال ــ عليه رحمة الله ــ ووقف الاتحاد السوفياتي معنا في ذلك الوقت وقت ان بدأت المواجهة الصريحة بيننا وبين اميركا .

وكان له موقف لا يمكن ان ننساه اذ ابرم معنا اتفاقا خاصا تم بمقتضاه تخفيض مديونيتنا تجاهه ، تخفيفا للضغط الاميركي علينا ، خاصة وان اميركا تقدم لاسرائيل معونات اقتصادية وعسكرية بلا حدود .

وفي سنة ١٩٦٧ بادر بامدادنا بالاسلحة بعد ان فقدنا ٨٠ في المئة من سلاحنا ووقف معنا سياسيا في المحافل الدولية ، كما وقف معنا اقتصاديا ايضا لان معركة البناء لا تنفصل عن معركة التحرير ، فساعدنا في بناء السد ، ويساعدنا حاليا في انجاز مشروع لا يقل اهمية عن السد وهو اقامة مجمع للحديد والصلب يعمل فيه حاليا ٢٥ الف عامل .

ثم تلت ذلك فترة سنة ١٩٧٠ حيث قبلنا مبادرة روجرز ووقف اطلاق النار ثم اعلنا مبادرتنا في ٤ فبراير (شباط) ١٩٧٠ وتعلمون جميعا ملابساتها والشروط التي اشترطناها فيها على ما بينته لكم من قبل .

وبعد ذلك شرح الرئيس تفاصيل المحادثات العديدة مع قادة الاتحاد السوفياتي والتي تمت كلها في اطار الصداقة بين الشعبين المصري والسوفياتي ، والتي دار اكثرها حول امداد قواتنا المسلحة بالمعدات والاسلحة اللازمة لخوض معركة التحرير وازالة آثار العدوان » .

وقال الرئيس : « ان هذه المحادثات لم تخل احيانا من خلاف في وجهات النظر ولكني كنت اعتقد ان هذا الخلاف طبيعي ولا غرابة في حدوثه .

فالاتحاد السوفياتي دولة كبيرة لها دورها العالمي الذي لا يمكننا تجاهله ، وله بهذه الصفة استراتيجيته الخاصة . اما نحن فجزء من اراضينا محتل ، هدفنا الاساسي على المستويين المصري والعربي هو ازالة اثار هذا العدوان . ونعتقد ان هذه الازالة مع التعنت الاسرائيلي والتأييد الاميركي المستمر لهذا التعنت لن تكون الا بمعركة لحسم هذا الموقف .

ثم وقعت حوادث السودان في يوليو ١٩٧١ وتاثرت بهــا وقتيا علاقتنا مع الاتحـاد السوفياتي ، وفي اكتوبر (تشرين الاول) سافرت للمرة الثانية الى موسكو وشرحت للقادة السوفيات موقفنا المبدئي من حوادث السودان ، وصفيت معهم — كاصدقاء — اثار تلك الحوادث » .

وقبل ذلك — وبالتحديد في ١ و ٢ مارس (اذار) ١٩٧١ — قام السيد الرئيس بزيارة للاتحاد السوفياتي ، وكانت هذه اول زيارة لسيادته كرئيس لجمهورية مصر العربية ، سبقت ميعاد انتهاء وقف اطلاق النار يوم ٣ مارس (اذار) .

وتناقش السيد الرئيس بوضوح كامل مع القادة السوفيات وقام خلاف في وجهـات النظر بشان موضوع التسليح ونوعيته وتوقيت ورود السلاح .

وقد اعتبر مثل هذا الخلاف امرا غير مستغرب بين الاصدقاء ، وكان ينبغي ان نستمر في مناقشته بصراحة ووضوح . واكد السيد الرئيس رفضه وضع اي قيود على استعمال السلاح من جانب مصر مهما كانت نوعية هذا السلاح ، عملا بالاساس الذي لا نحيد عنه من ان القرار السياسي في مصر لا بد ان يظل ملكا للقيادة السياسية في مصر وحدها ولشعب مصر وحده دون استئذان اية جهة مهما كان أمرها .

واوضح الرئيس انه بعد عقــد المعاهدة كان من الواضح لديه نتيجة للمحادثات التي تلت عقدها مباشرة ان الاتحاد السوفياتي سيقوم بتوريد أنواع معينة من الاسلحة ضرورية للمعركة وضرورية ايضا من حيث التوقيت الزمني الذي كان قــد وضعه باعتبــار ان عــام ١٩٧١ عاما حاسما الا أن تلك الاسلحة لم تصل في المواعيــد المتفق عليها وحدث تغــير اساسي في العالم وهو حرب الهند وباكستان الذي كان الاتحاد السوفياتي على نحو ما طرفا فيها .

كل ذلك حدث في عام ١٩٧١ مما جعلنا كما سبق وصرح الرئيس نعيد حساباتنا اذ ان الامر صار يتطلب اعادة تقدير الموقف .

ثم اقترب موعد زيارة الرئيس نيكسون للاتحــاد السوفياتي واجتماعــه مع القادة السوفيات واعتبرنا هذه الزيارة موعدا نحدد بعده مواقفنا ، ونقف بعده مع اصدقائنــا السوفيات لنعيد حساباتنا معا ، ونراجع اساليب عملنا .

واضاف الرئيس :

ثم زرت الاتحاد السوفياتي للمرة الثالثة في فبراير (شباط) ١٩٧٢ للتباحث حــول توريد الاسلحة . وزرته للمرة الرابعة في ابريل (نيسان) لتحديد موقفنا السياسي للقادة السوفيات قبل زيارة نيكسون لموسكو ، واعلنت لهم بوضوح رفضنا لامور ثلاثة :

١ — رفضنا للحد من الاسلحة خلال هذه المرحلة لان هذا يخدم اسرائيل ، اذ عندها اكوام من الاسلحة ، وهي مستمرة في احتلال اراضينا .

٢ — رفضنا لاي اتفاق على استمرار حالــة اللاسلم واللاحرب لان هذا معناه ان اسرائيل تكسب على المدى الطويل .

٣ — عدم التفريط في اية ارض عربية .

ثم قال الرئيس : « وبعد ان جاءنا التوضيح السوفياتي لمحادثات نيكســون مع القادة السوفيات احسست بالحاجة — في ضوء ما تقدم جميعه — الى وقفة مع الصديق . وهنا

احب ان اكون واضحا ، ان هذه الوقفة مسلك موضوعي وهي تتم في اطار الصداقة التي تجمع بيننا ، ولا يجوز ان تعالج ابدا بالتشنج . وقد هاجمت التشنج من قبل وساهاجمه دائما . اننا نتخذ قراراتنا ونحدد مواقفنا بارادتنا وحريتنا في يدنا وقراراتنا نتخذها في وقتها المناسب ، اما التشنج فهو موقف العاجزين .

وبعد دراسة الموقف من جميع نواحيه ، ومن منطلق التقدير الكامل لمعونات الاتحاد السوفياتي الضخمة لنا والحرص الكامل على صداقتــه وجدت من المناسب ونحـن على مشارف مرحلة جديدة من مراحل تلك الصداقة ان اتخذ القرارات الاتية :

اولا ــ انهاء مهمة المستشارين والخبراء السوفيات العسكريين الذين حضروا بناء على طلبنا وذلــك ابتداء من ١٧ يوليو (تموز) ١٩٧٢ على ان يحــل ابناؤنا في القوات المسلحة المصرية محلهم في كافة ما كانوا يقومون به من اعمال .

ثانيا ــ تكون كافة المنشآت والمعدات العسكرية التي اقيمت داخل الاراضي المصرية خلال فترة ما بعد عدوان يونيو (حزيران) ١٩٦٧ ملكا خالصا لجمهورية مصر العربية وتحت ادارة قواتها المسلحة .

ثالثا ــ الدعوة ــ في اطار معاهدة التعاون والصداقة مع الاتحاد السوفياتي ــ الى اجتماع مصري ــ سوفياتي على مستوى يتفق عليه لاجزاء مشاورات بالنسبة الى المرحلة المقبلة .

وقد تم فعلا تنفيذ القرار الاول والثاني بالامس (الاثنين ١٧ يوليو (تموز) ١٩٧٢) وتجري حاليا مشاورات مستمرة لتحديد اسلوب للتعاون اكثر فعالية في المستقبل » .

وقال الرئيس بعد ذلك ان من الضروري ان نضع هذه القرارات في اطارها الصحيح، فهي لا تمس ــ بحال ــ جوهر الصداقة المصرية ــ السوفياتية ، وانما المسألة في جوهرها وقفة موضوعية مع الصديق ، نعطي فيها كل ذي حق حقه ، ونضع ــ معا ــ اسلوبـا للمرحلة الجديدة من مراحل صداقتنا .

وقال الرئيس بعد ذلك: « انه ليس في هذه القرارات شيء غريب فلقد اعلنت لكم مرارا من قبل ، واعلنت للقادة السوفيات في لقاءاتنا الاربعة ان المعركة معركتنا واننا لن نحارب الا بجنودنا ورجالنا واننا فوق ذلك لا نسعى للمواجهة بين الاتحاد السوفياتي واميركـا ، واعتبرت هذه خطوطا رئيسية لسياستنا » .

واضاف الرئيس في النهاية ان هذه القرارات لا تعني اي تأجيل للمعركة ، فلم يكن في نية احد ان يحارب المستشارون الاصدقاء معنـا ، ولا يتصور ان يحارب جندي غيرنـا معركتنا من اجل ارضنا وحقنا وكرامتنا .

وبعد ان انتهى السيد الرئيس من القاء بيانه اجاب عن بعض الاسئلة المقدمة مــن الاعضاء ، ثم تحدث عن دورة المؤتمر القومي المقبلة في ٢٣ يوليو واقترح على اللجنة ان يكون البند الوحيد في جدول اعمال المؤتمر هو موضوع « الوحدة الوطنية » خلال مرحلــة العمل المقبلة .

وبعد ان اتم الرئيس بيانه معلنا هذه القرارات قابلها الاعضاء بالتأييد التام الــذي انعكس واضحا في الكلمات التي القاها بعض اعضاء اللجنة . وعقب انتهاء كلمات الاعضاء اتخذت اللجنة قرارها بتأييد الرئيس في قراراته » .

« بيان تنظيمي »
حول العلاقات المصرية — السوفياتية
موجه الى قيادات تنظيم الاتحاد الاشتراكي

اصدرت الامانة العامة للاتحاد الاشتراكي العربي في مصر ، خلال شهر آب (اغسطس) ١٩٧٢ ، « البيان التنظيمي » الآتي نصه حول العلاقات المصرية ـــ السوفياتية ، وهو موجـــه الى قيادات التنظيم واعضاء لجانه :

في ١٨ يوليو (تموز) ١٩٧٢ الماضي تحدث الرئيس انور السادات الى اللجنة المركزية في اجتماعها التاسع كاشفا عن تطور العلاقات المصرية ـ السوفياتية ، التطور الذي انتهى باصدار القرارات الثلاثة المهمة التي تضمنت انهاء عمل المستشارين العسكريين للاتحاد السوفياتي في مصر ، وتحديد الموقف بالنسبة الى بعض الممتلكات والاسلحة السوفياتية الموجودة على ارض مصر ، كما تضمنت في النهاية اقتراح عقد اجتماع مشترك لعمل مشاورات تتعلق بالمرحلة المقبلة .

ولقد كانت هذه القرارات الثلاثة في اطار الملابسات التي احاطت باصدارها ـــ كما قرر السيد الرئيس ـــ تعبيرا عن الاحساس بالحاجة الموضوعية الى وقفة مع الاصدقاء نعطي فيها كل ذي حق حقه ، وتحدد عندها أساليب العمل ، والتعاون خلال المراحل المقبلة .

ومنذ صدرت تلك القرارات تعددت اصداؤها وتفسيراتها بين الاصدقاء والاعداء على السواء ، وصار من الضروري ان يكون اعضاء التنظيم وقياداته بصفة خاصة ـــ على فهم كامل ودقيق لكل الحقائق والتفاصيل التي تتعلق بالصداقة المصرية ـــ السوفياتية ، حتى يستطيعوا وضع كل هذه التفاصيل التي تمس العلاقات المصرية ـــ السوفياتية في اطارها الموضوعي الصحيح .

أسس الصداقة المصرية ــ السوفيتية

ان الصداقات بين الشعوب لا تقوم ــ حين تقوم ــ على انفعالات عاطفية طارئة ، وانما تقوم على التقاء ــ ولو جزئي ــ في المبادىء او المصالح .

وهي بالضرورة علاقات تبادلية ، تنبع من مبادىء او مصالح مشتركة ، وتحقق مصالح ــ أيا كان نوعها ــ لطرفيها او اطرافها جميعا .

وفي هذا الاطار فقد قامت الصداقة المصرية ــ السوفياتية على موقف مشترك ، جوهره معاداة الاستعمار في كل مكان ، ومناهضة الصهيونية العالمية التي تحمي عن طريق اداتها الضاربة ــ اسرائيل ــ مصالح الاستعمار في المنطقة العربية كلها .

كذلك ظلت هذه الصداقة تحقق لطرفيها جميعا ، فوائد اساسية اختلفت قيمة ونوعا مع اختلاف مراحل تلك الصداقة .

وفي الجانب المصري فان هذه الصداقة تحقق الفوائد الاساسية الاتية :

(١) تدعيم الاقتصاد المصري في حركته نحو التنمية ، بعد تحرره من التبعية للاقتصاد الغربي ، وهو تدعيم يتمثل اساسا في تقديم القروض والمعونات المادية والفنية اللازمة لتنفيذ العديد من المشروعات الاقتصادية الواردة في الخطة .

وتعتبر مساهمة الاتحاد السوفياتي الضخمة في اتمام مشروع السد العالي ، ومشروع مجمع الحديد والصلب ، أبرز مظاهر هذا التدعيم الاقتصادي .

(٢) تدعيم الموقف المصري والعربي السياسي في ازمة الشرق الاوسط ، باتخاذ موقف التاييد والمؤازرة للحق العربي داخل الامم المتحدة وخارجها، وهو موقف قاده الاتحاد السوفياتي وشاركت فيه مشكورة ، سائر الدول الاشتراكية .

(٣) الدعم العسكري لقواتنا المسلحة ، وهو الدعم الذي اتخذ ابعادا جديدة وكبيرة بعد عدوان ١٩٦٧ ، وما اعقبه على الفور من اعادة بناء القوات المسلحة المصرية . وهو دعم كان له ــ بعد الارادة القتالية المصرية التي صممت على الصمود ــ اكبر الاثر في سرعة وقوف قواتنا المسلحة على اقدامها في فترة زمنية قياسيا بعد عام ١٩٦٧ .

وفي الجانب السوفياتي فان الصداقة المصرية ــ السوفياتية مكنت الاتحاد السوفياتي من ان يكسر في المنطقة العربية حاجزا كان يعزله تماما ، اذ استطاع من خلال تقديم المعونات غير المشروطة بشروط سياسية ، أن يفتح سلسلة من الصداقات مع شعوب المنطقة وأن يقيم علاقات اقتصادية متينة مع العديد من دولها ، كما استطاع اسطوله من خلال التسهيلات التي منحت له ، وكذلك من خلال المناخ السياسي العام المتقبل ــ ولو جزئيا ــ لوجوده في المنطقة ، ان يحقق حلما عسكريا قديما تعذر تحقيقه بالوسائل وبالقدرة السوفياتية وحدهما .

ان الرؤية الموضوعية للصداقة المصرية ــ السوفياتية ، هنا وهناك ، تقتضي الاهتمام باستيعاب هذه الطبيعة التبادلية لفوائد الصداقة المشتركة ، وعدم التركيز على جانب واحد منها .

اوجه الاختلاف

على ان من الضروري — رغم ما تقدم جميعه — ان نذكر ان التحليل الموضوعي للعلاقات المصرية — السوفياتية يشير — الى جانب الصداقة القائمة على الموقف المشترك والمصالح المتبادلة — الى وجود اختلافات مهمة بين استراتيجية ومبادىء كل من الصديقين، تؤدي بالضرورة الى وجود مصالح عديدة غير مشتركة .

ا — فالاتحاد السوفياتي — الان — دولة كبرى ، تتنازع مكان الصدارة من القوى الدولية مع الولايات المتحدة . وله بهذه المثابة مصالحه الذاتية واستراتيجيته العالمية التي تحكم حركته الدولية في المجالات العسكرية والاقتصادية والسياسية بينما نحن دولة صغيرة نامية تجتاز مرحلة دقيقة في تنمية اقتصادها ، ويتعرض كيانها مع كيان الامة العربية كلها لعدوان صهيوني استعماري متعدد الجوانب متشعب الاطماع .

ب — والاتحاد السوفياتي دولة ايديولوجية ، تقود معسكرا كاملا تقوم انظمته كلها على اساس من الماركسية اللينينية بكل اصولها النظرية والتطبيقية ، وتتحرك دوليا — ولو جزئيا — على اساس تدعيم هذا المعسكر وتوسيعه . بينما نحن جزء من امة عربية مؤمنة ، يبني نظاما اشتراكيا له خصائصه الذاتية ، وله تحفظاته الاساسية على الفكر الماركسي وعلى كثير من تطبيقاته العملية ، ولعل في مقدمة هذه التحفظات لا اننا نقيم نظاما ونبني حضارة ، يقومان معا على الايمان بالله تعالى ودينه المنزل على رسله ، ويرفضان التفسير المادي للانسان وللتاريخ بكل ما يؤدي اليه هذا الرفض من مواقف فكرية وتطبيقية ، ولعل هذا ما عناه الرئيس السادات حين حرص على ان يؤكد في مناسبات عديدة اننا اشتراكيون وتقدميون ، ولكننا لا نبني نظاما ماركسيا على ارضنا ، وان منطلقنا منطلق وطني تقدمي مناهض للامبريالية والاستعمار .

ولعل من اهمها كذلك اننا ونحن نبني مجتمعنا نتحرك في اطار قومية عربية تؤمن بوجودها كحقيقة تاريخية ، وكضرورة مصيرية ، بينما يرفض الاتحاد السوفياتي هذا المنطلق كما ينكر علماؤه وقادته ان العرب امة تتحقق لشعبها خصائص القومية الحقيقية (حسب تعريف ستالين كما يقول تقرير ملاحظات الحزب الشيوعي السوفياتي على برنامج الحزب الشيوعي السوري) .

النتائج التي ترتبت على أوجه الاختلاف

وكان طبيعيا ومنطقيا ان يخلق هذان الامران في بعض الاوقات خلافا في وجهات النظر ، وفي حسابات المصالح ، وفي ترتيب الاولويات . وعلى وجه التحديد فقد خلق هذان الامران الخلافات الاتية :

أولا : خلاف مبدئي حول اسرائيل نفسها .. فعلى الرغم من الموقف السوفياتي المبدئي والصادق في تاييد الدول العربية في صراعها مع اسرائيل ، وبصفة خاصة في مطالبتها بانهاء آثار العدوان الاسرائيلي الذي وقع عام ١٩٦٧ ، فان الاتحاد السوفياتي يعترف باسرائيل

ويرى اهمية المحافظة على كيانها ، ولا تشغله قضية « الشرعية الدولية » التي احاطت بانشائها على الارض العربية عام ١٩٤٨ .

ولهذا كان طبيعيا ان يصف قادة الاتحاد السوفياتي وعلماؤه النظريون شعار ازالة اسرائيل بأنه « ليس شعارا خاطئا من الناحية التكتيكية فحسب ، ولكنه خاطىء من ناحية المبدأ كذلك » . (ملاحظات الحزب الشيوعي السوفياتي على برنامج الحزب الشيوعي السوري) .

وفي اعتقادنا ان هذا الخلاف المبدئي يفسر كذلك موقف الاتحاد السوفياتي من هجرة اليهود السوفيات الى اسرائيل .

ثانيا : خلاف اساسي حول المعركة كحل لقضية احتلال الارض العربية واستمرار العدوان الاسرائيلي علينا .

فبينما نؤمن نحن نتيجة التحليل الموضوعي لظروفنا وظروف عدونا ، ولتاريخ المحاولات المتعددة للوصول الى تسوية سلمية ، بأن التحرك لحسم قضية الاحتلال عن طريق المعركة ، امر حتمي وواجب ، فان الاتحاد السوفياتي يرى غير ذلك .. انطلاقا من الحرص على تجنب مواجهة عسكرية مع الولايات المتحدة (نص ملاحظات الحزب الشيوعي السوفياتي على برنامج الحزب الشيوعي السوري) حيث يقوم التقرير على لسان النظريين والقادة السوفيات « اننا نرفض الحل العسكري لا لاننا ضد الحرب فحسب ، وانما لاننا واقعيون » .

هذا مع ان مصر قد اوضحت اكثر من مرة انها لا تطلب من احد ان يحارب لها معركتها وانها فوق ذلك لا تسعى ابدا لمواجهة عسكرية بين القوتين الكبيرتين في العالم وانه لن يحارب معركتنا الا ابناؤنا . هذا الخلاف يلقي اضواء عديدة على الصعوبات التي احاطت بالعلاقات المصرية ــ السوفياتية حول موضوع تزويد قواتنا المسلحة بما تحتاج اليه من اسلحة هجومية ، تمكنها من خوض معركة تحرير الارض .

ولقد شرح الرئيس انور السادات تفاصيل هذه الصعوبات مبينا بصفة خاصة كيف تخلف الاتحاد السوفياتي عن تنفيذ بعض الوعود والاتفاقات المتعلقة بالتسليح ، وخصوصا خلال عام ١٩٧١ الذي اردناه عاما حاسما لحالة اللاحرب واللاسلم . ورغم ما تم في اكتوبر (تشرين الاول) من تلك السنة من وعود مكررة بارسال الاسلحة ، فقد انتهى ذلك العام دون توريد لتلك الاسلحة او تعاقد عليها . واوشك هذا الموقف ان ينال من صبر الجبهة الداخلية وتماسكها ، بعد ان تهيأت نفسيا لمواجهة عسكرية مع العدو المحتل .

ولقد كان هذا الموقف ، خصوصا وقد جاء في اعقاب المواجهة السياسية والعسكرية شبه المباشرة ، مع الولايات المتحدة في الصراع الهندي ــ الباكستاني ، مؤشرا الى حسابات سوفياتية ترى تاجيل المعركة وتعمل على منع اقدامنا عليها .

ثالثا : خلاف تكتيكي اقتضته طبيعة المصالح السوفياتية وحساباتها المرحلية بعد زيارة الرئيس الامريكي نيكسون للاتحاد السوفياتي .

ان في تقدير التنظيم السياسي ان المباحثات التي جرت في ذلك اللقاء والاتفاقات التي تمت خلاله قد ادخلت العلاقات السوفياتية ــ الامريكية في مرحلة جديدة ، كان طبيعيا ان تنعكس على قضيتنا الاولى .

ان البيان المشترك الصادر عن تلك المباحثات يكشف عن حرص متزايد من جـانب الاتحاد السوفياتي على ان تتحول العلاقات السوفياتية ـ الاميركية الى علاقة منافسة لا علاقة صراع وعلى التجنب الكامل للمواجهة مع الولايات المتحدة .

ان الحديث في تلك البيان عن « الاسترخاء العسكري » في وقت بلغ فيه التسليح الاميركي لاسرائيل ذروته القصوى ومعدله القياسي ، تأكيد واضح لما يؤدي اليه اختلاف طبيعة مصالح الاتحاد السوفياتي كدولة كبرى ، من تأثير على قضيتنا الاولى .

كما ان ما ورد في تلك البيان من دعـوة الى التعاون لتنفيذ قـرار مجلس الامن ، ـ يساوي بين من تعاونوا طوال خمس سنوات لتنفيذه ومن سخروا جهودهم خلال تلك السنوات الخمس لمنع تنفيذه ـ مؤشر اضافي الى ان حسابات المصالح الخاصة قد يمتد تأثيرها ـ يوماً ما ـ الى بعض جوانب الموقف السياسي للاتحاد السوفياتي من القضية .

ان التقارب السوفياتي ـ الاميركي الذي دخل مرحلة جديدة بعد لقاء نيكسون مـع القادة السوفيات في موسكو ، مع استمرار الولايات المتحدة في تصعيد دعمها العسكري لاسرائيل واستمرار الحذر السوفياتي في تزويد قواتنا المسلحة بالاسلحة المتطورة اللازمة لخوض معركة التحرير عنصر اساسي في تجميد الموقف في الشرق الاوسط وفي تكريـس واستمرار حالة اللاسلم واللاحرب .

ان اختلاف نوع المصالح بيننا وبين الاتحاد السوفياتي ادى الى ان تكون قضية ازالة آثار العدوان على رأس قائمة الاولويات في استراتيجيتنا ، وان تظل كذلك دائما . بينما ادى الى تراجعها في قائمة الاولويات السوفياتية .. وهو امر يخص الاتحاد السوفياتي ولكن لا بد ان نعرفه ونعيه كحقيقة موضوعية .

الخلاصـة

ان ما تقدم جميعه يصل بنا الى حقيقتين لا بد ان تستوعبهما قيادات التنظيم .

الاولى : ان التحليل الموضوعي للصداقة المصرية ـ السوفياتية يجعل من تلـك الصداقة حقيقة نحرص عليها ، ايمانا باهميتها وضرورتها ، وما توفره من دعم في حركتنا الداخلية نحو التنمية ، وفي صراعنا مع عدو يتمتع بتأييد ودعم لا حدود لهما من جـانب القوة الكبرى الاولى في العالم ـ بحسابات القوة لا بحسـابات المبدأ ـ وهي الولايات المتحدة .

وايمانا بذلك ، وادراكا موضوعيا لقيمة الصداقة المصرية ـ السوفياتية فقد حرص الرئيس انور السادات على ان يضع القرارات الثلاثة الصادرة يوم ٨ يوليو (تمـوز) ١٩٧٢ في اطارها الصحيح ، وان يصفها بأنها وقفة موضوعية مع الصديق ، نعطي فيهـا كل ذي حق حقه . وحرص كذلك ـ انطلاقا من نفس الايمان والادراك الموضوعي ـ على التحذير من أية محاولة تهدف الى استثمار الموقف الناتج عن تلك القرارات ، استثمـارا يستفيد منه العدو وحده ، ويستهدف ـ في ما يستهدفه ـ ضرب جذور الصداقة المصرية ـ السوفياتية .

الحقيقة الثانية : ان هناك حدودا للدعم العسكري السوفياتي ــ قد تكون حدود قدرة ، او حدود مبدأ ، او حدود حسابات سياسية ومصلحية ــ ولكن واجبنا ان نعرفها على أي حال وان نتعامل معها كحقيقة موضوعية اخرى في الصراع القائم حول الشرق الاوسط ، وفي العلاقات العربية ــ السوفياتية .

ولقد نفذت قيادتنا السياسية بشجاعة الى هذه الحقائق الموضوعية حين دعت الى وقفة مع الصديق ، والى مشاورات معه بعد ٨ يوليو (تموز) ، والى اسلوب جديد تقوم عليه الصداقة المصرية ــ السوفياتيــة ، يقوم على اعلان شجــاع للمواقف الحقيقية ، وتحديد منضبط لحدود القدرة او الرغبة في خدمة المصالح المشتركة ، كما يستند قبل ذلك الى تحديد موضوعي صريح لطبيعة المصالح المشتركة وحجمها ، والى اتفاق واضح حول اسلوب رعايتها وتدعيمها .

واذا صح ما وصل الينا من أن الاتحاد السوفياتي قد اصدر تعليمات الى ممثليه في الخارج ليقودوا حملة اعلامية جوهرها ان مصر لا تريد الحرب ، وان الاتحاد السوفياتي من جانبه قد زودها بكل ما تحتاج اليه في معركتها .. فان هذا في تقدير التنظيم السياسي لا يكون المنهج الموضوعي السليم لتناول المرحلة الدقيقة التي تمر بها العلاقات المصرية ــ السوفياتية .

اننا هنا في مصر لن نثير حوارا جديدا حول المعركة ، فان الاعداد لها هو في مبادئنا وحساباتنا الطريق الوحيد لاسترداد الارض ، وهو ــ في حساباتنا كذلك ــ الارض الصلبة التي يمكن لنا عسكريا وسياسيا واقتصاديا ان ننطلق منها لمواجهة كل الاحتمالات .

ان التشكيك في هذه الحقيقة ــ لا يخدم العلاقات المصرية ــ السوفياتية ، وانمــا الذي يخدم تلك العلاقات هو الرؤية الموضوعية الشجاعة للمصالح والمواقف المشتركة ، وللمبادىء والمصالح والمواقف المختلفة . فعليهما معا يمكن ان تقوم صداقة حقيقية بــين الشعوب .

ان ادراك هذه الحقائق كلها ، وتناول العلاقات المصرية ــ السوفياتية بهذا القدر الضروري من الموضوعية والوضوح ، هو المدخل الصحيح لاقامة وتدعيم صداقة مصرية ــ سوفياتية تحمي المصالح المشتركة للشعبين ، ولا تسمح للاعداء باستثمار هذا الموقــف استثمارا يضر بمصالح الطرفين .

عهد من السادات :
التحرير قبل ٢٥ نيسان (ابريل) ١٩٧٣

هذا العهد من السادات تضمنه خطاب القاه مساء الثلثاء ٢٥ نيسان (ابريل) ١٩٧٢ في ذكرى المولد النبوي :

ايها الاخوة :

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد اشرف المرسلين وصاحب الذكرى الامين

ايها الاخوة :

حين نلتقي اليوم لنحتفل بذكرى مولد الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم علينا ان نقف قليلا لنتامل . نتامل الفترة التي نعيشها اليوم فترة امتحان رهيب ، امتحان اول ما يكون لايماننا وامتحان لصلابتنا . امتحان لايماننا . فلقد حملنا الامانة امانة الرسالة المحمدية ولكننا نمتحن اليوم اشد امتحان يمكن ان نتعرض له في حياتنا . انهم يريدون ان يزلزلوا ايماننا . حرب نفسية علينا قوامها اننا لا نستطيع ان نواجه الاسرائيليين وان علينا ان نستسلم لهم ولشروط امريكا . حملة يلس ان اياسوا فلا مكان لكم بعد اليوم الا بالاتفاق مع اسرائيل وامريكا والخضوع لشروطهم . ونسي كل هـؤلاء ، نسيت امريكا ونسيت اسرائيل اننا حملة رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . نسوا أن محمدا صلى الله عليه وسلم حبس هو واهله سنين ولم يستسلم . اوذي . اعتدي عليه . حاولوا كل المحاولات لزحزحته عن اهداف رسالته ولكنه صمد الى ان اذن الله سبحانه وتعالى له بالهجرة فهاجر واتم رسالته وحارب واستبسل وصمد وقاوم ، الى ان تحققت دعوة الحق. دعوة الايمان . دعوة الاسلام . الى ان أرتفعت رايتها بعد ثلاثة وعشرين عاما . ينسى كل

هؤلاء امريكا واسرائيل وما شابههم ، اننا نحمل نفس العقيدة ، نحمل الرسالة اليوم وامانتها ، واننا في سبيل حريتنا وفي سبيل اعلاء كلمة الحق والحرية والايمان لن نتزلزل . لن نحيد عن موقفنا . لن تنال منا امريكا ولا اسرائيل . قد يكون لديهم من السلاح الشيء الحديث ونحن نستورد ايضا الشيء الحديث . ولكن الامر في اساسه ليس امر السلاح ، وانما هو امر الفرد المؤمن . نحن نؤمن بان الله سبحانه وتعالى معنا . نحن نؤمن بان الحق معنا . نحن نؤمن كما قال لنا الله سبحانه وتعالى اننا خير امة اخرجت للناس . نحن نؤمن بما اوصانا به الله سبحانه وتعالى في كتابه « وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم » .

سنصبر .. سنصبر صبر المؤمن .. المؤمن القوي وليس المؤمن الضعيف . سنصبر صبر المؤمن القوي ونحن نعد الان بكل ما نملك ، وبكل ما نستطيع لكي نخوض معركة الشرف . انه قدر علينا .. وقدر علينا ان نحارب هذه المعركة كي نحرر ارضنا .. كي نحرر الى جانب ارضنا اولى القبلتين وثالث الحرمين. يعتقد البعض انهم يستطيعون ان يساوموا ولكن القدس واولى القبلتين ليست ملكا لفرد وانما هي ملك لنا جميعا .. الامة الاسلامية. ولا يستطيع فرد ان يقرر مصير اولى القبلتين لمجرد ان خانته الشجاعة .. او ان خارت قواه .. لا .. هذه مسؤوليتنا نحن . والله سبحانه وتعالى يقول لنا « وان هذه امتكم . امة واحدة وانا ربكم فاعبدون » ويعود فيكررها : « وان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاتقون » . تكرارا وتاكيدا لا يستطيع فـرد ابدا ان يقرر مصير اولى القبلتـين وثالث الحرمين .

سنستعيدها باذن الله من اولئك الذين قال فيهم كتابنا : كتبت عليهم الذلة والمسكنة. منذ متى كانوا ذوو شان الا بعد ان وقفت وراءهم قوى الاستعمار . ولكن لن تستطيع قوى الاستعمار ان تتحدى ارادة الله .. لا يمكن مهما كان .

اننا نعد لهم ايها الاخوة .. ولكن كما قلت لكم من قبل علينا بالصبر والصمت . صبر المؤمن .. صمت الواثق .. علينا بالصمت والصبر لكي نعد امرنا . فلا محالة من المعركة. ولا مناص من المعركة لكي نحرر ارضنا ولكي نثبت للعالم كله شرقه وغربه اننا امة نستطيع ان ندافع عن حقنا . نستطيع ان نسترد ارضنا . اننا امة قد تلحق بنا هزيمة يوم من الايام . نخسر معركة ولكننا لا يمكن ابدا ان نخسر مصيرنا ... ولا ان نخسر نفوسنا ولا ان نخسر ايماننا .. ابدا لن تستطيع قوى الارض مجتمعة ان تجعلنـا نخسر نفوسنا او ان نخسر ايماننا .

نريد ان نقول لكل هؤلاء اننا نصبر الان .. صبر وصمت .. صبر المؤمن .. وصمت الواثق حتى تاتي الساعة ولن تكون بعيدة ان شاء الله .

ايها الاخوة :

في هذه الذكرى علينا ان نتاسى بحياة رسولنا صلى الله عليه وسلم . جاهد وكافح وصبر واوذي ولكنه لم يتخل ابدا عن رسالته ، ولم تلن له قناة . لم يحد ابدا عن طريق الحق عن طريق الايمان . علينا ان نتاسى في هذه المرحلة العصيبة التي نمتحن فيها اشد

امتحان . اليوم نتاسى بصاحب هذه الذكرى عليه الصلاة والسلام ، نصبر ونصمت ولكن في عزم واصرار حتى نحقق بعون الله لشعبنا ولامتنا كل ما تريده ان شاء الله ، ويعود اولئك الذين ظنوا انهم يستطيعون ان يعربدوا في المنطقة العربية وان يعربدوا في هذه المنطقة من العالم لان دولة استعمارية كبرى كالولايات المتحدة تحميهم .

نصبر ونصمت ونعد الى ان نثبت لهم اننا لن نقبل الضيم وسنحرر ارضنا بعون الله ، مهما كانت التكاليف ، مهما كانت المشاق ، مهما كان الاذى . ولكن على اسرائيل ان تعلم تمام العلم انها ستدفع الثمن مضاعفا هذه المرة .

انهم يتحدثون عن المفاوضات المباشرة اليوم ولقد جاوروا محمدا عليه الصلاة والسلام في المدينة ، جاوروه وفاوضهم وتعاهد معهم ، ولكنهم في النهاية اثبتوا انهم اهل خسة وخيانة وغدر يوم ان تحالفوا مع اعدائه لضربه في المدينة ولضربه في الداخل . فكان اروع ما فعل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ان اجلاهم عن الجزيرة العربية باكملها .

هذا ما فعله رسولنا . لن نفاوضهم مفاوضة مباشرة . نحن نتاسى . نحن نعرف تاريخنا ونحن نعرف تاريخهم مع رسولنا من قبل . انهم قوم خسة وغدر . قوم متآمرون . قوم جبلوا على الخيانة .

انا اعلنها هنا وفي هذه الذكرى ان احلامهم التي يتكلمون عنها اليوم ونشوة غرور النصر الذي ظنوا انهم حصلوا عليه سنة ١٩٦٧ وسيحصلوا عليه الى الابد. اقول لهم في هذه الذكرى ومن هذا المكان : لن نتنازل عن شبر من ارضنا ، ولن نفاوض اسرائيل تحت اي ظرف من الظروف ، ولن نساوم على حق من حقوق شعب فلسطين بل انني اعاهدكم .

في العام الماضي ومن هذا المكان عاهدتكم عهدا وقلت لكم انني الى ان تاتي الذكرى المقبلة ستكون هناك مظلة للتامينات ، اي ان اي مواطن في بلدنا لا يصل الى سن الشيخوخة الا ويجد من الدولة معاشا له .. واليوم كما قراتم مضى هذا المشروع ، وبعد شهرين اثنين فقط ستعم مظلة التامينات على جميع افراد شعبنا .. عاهدتكم بهذا في العام الماضي .

في هذا العام اعاهدكم ان نحتفل في الذكرى المقبلة ان شاء الله وفي هذا المكان بعون الله .. ليس فقط بتحرير ارضنا ، وانما بقهر ذلك الغرور الاسرائيلي والعربدة لكي يعودوا مرة اخرى كما قال لنا كتابنا : « كتبت عليهم الذلة والمسكنة » . لن نتنازل عن هذا .. لم يعد الامر امر تحرير ارضنا فقط .. انه امر يتعلق بشرفنا نحن .. وبكرامتنا نحن .. وبرسالتنا التي نؤمن بها .. سنعيدهم كما كانوا .

واذا ظنوا انهم في غفلة من الزمن قد حصلوا على بعض القوة .. سنعيدهم ، لان القوة ليست كما قلت في السلاح وانما القوة من الداخل .. قوة الايمان .. قوة الفرد .. قوة الايمان بالرسالة والايمان بالعقيدة .. والايمان بالمبدأ . ونحن نحمد الله سبحانه وتعالى اننا اصحاب رسالة اقوى ما تكون في مبادئها الى جانب سماحتها ، فهي رسالة القوة .. قوة الفرد .. قوة المجتمع .. قوة الايمان بان الله سبحانه وتعالى هو مالك الملك

يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير انه على كل شيء قدير .

ربنا انـك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى عليك يا ربي شيء في الارض ولا في السماء ، فاهدنا يا رب سبلنا ووفقنا وانصرنا انك نعم المولى ونعم النصير . والسلام عليكم ورحمة الله » .

سري جدا :

بيان لمحمود رياض في اللجنة المركزية

عن المعركة واميركا وروسيا والحل السلمي

هذا البيان عن الموقف السياسي بكثير من التفصيل القاه السيد محمود رياض — وكان يشغل انذاك منصب نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية — في اجتماع مغلق عقدته اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي يوم الأربعاء ١٦ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٠ . ولقد أودع البيان اللجنة المركزية مكتوبا عليه « سري جدا » :

السيد الرئيس

السادة اعضاء اللجنة المركزية

عندما اتحدث اليكم اليوم عن تطورات الموقف وسياسة الجمهورية العربية المتحدة ، اود ان اشير الى كلمة السيد رئيس الجمهورية عندما تحدث امام مجلس الامة ووضع الخطوط الرئيسية لسياسة الجمهورية العربية المتحدة ، عندما قال :

المعركة اولا ... والمعركة ثانيا ... والمعركة اخيرا . اننا اذا لم نحرر هذه الارض فمعنى ذلك اننا خضعنا للعدوان الاسرائيلي الاستعماري ومن هم خلفه . ليس هناك من يقبل في امتنا تحرير بعض هذه الارض والتخلي عن بعضهـا لان القبول بذلك لا يمكن ان يسمى حلا وسطا ، وذلـك انه ليس هناك نصف حـل . ان التنازل عن اي شيء يعني التنازل عن كل شيء ، اننا نريد سلاما ولن نربط سلامنا بشيء غير العدل وحده ، لانـه اذا لم يرتبط بالعدل يصبغ قبولا بالامر الواقع المفروض بقوة العدوان وهو ما لا نستطيع ان نقبلـه .

اهداف العدو

هذا ما اوضحه السيد رئيس الجمهورية وهو يوجز سياستنا التي نسير عليها ولكن قبل ان ندخل في تفصيلات الموقف وتطوراته اعتقد انه من الضروري ان نبدا الحديث ببيان اهداف العدو ، اذ ان المعركة باهداف العدو في هذه المرحلة اساسية ، ولا اقصد بالمعرفة مجرد العلم ببعض الحقائق فحسب ، وانما اقصد استيعاب هذه الحقائق .

فالعدو اعلن في الماضي ان اهدافه هي اقامة دولة اسرائيل الكبرى بين النيل والفرات ، وما زالت هذه الاهداف هي نفس اهدافه اليوم ، هذه حقيقة يجب ان نتذكرها على الدوام ...

قاعدة للتوسع

واذا تتبعنا تصرفات العدو منذ عام ١٩٤٨ حتى الان نجد انه نجح في المرحلة الاولى في اقامة اسرائيل على جزء من الاراضي الفلسطينية التي اغتصبها وكانت هذه الارض هي القاعدة التي ينطلق منها للتوسع واقامة الدولة الكبرى بين النيل والفرات ، وحتى يستطيع ان يفعل ذلك كان لا بد عليه وسوف يكون من سياسته على الدوام ضرب القوة العربية التي تستطيع ان تقف امامه وهي مصر .

واذا ما تذكرنا ما حدث سنة ١٩٤٨ نجد ان اسرائيل بعد ان لجات الى الكثير من الحيل والخداع بمعاونة الدول الاستعمارية في ما يتعلق بالهدنة حتى تستفيد منها وتستخدم هذا الوقت من اجل زيادة قواتها ، كانت دائما تهاجم مصر ، وكانت المعركة الاخيرة مع مصر ، وكانت بقية الجيوش العربية عاجزة او متفرجة ، وكانت النتيجة توقيع الهدنة سنة ١٩٤٩ مع اربع دول عربية هي مصر وسوريا والاردن ولبنان .

والواقع اذا رجعنا الى هذه الاتفاقات نجد في نصوصها ما يؤكد قيام سلام دائم في المنطقة ، ولكن كان ذلك يتعارض دائما مع اهداف اسرائيل ، فماذا فعلت اسرائيل بعد ذلك ؟ انتهزت فرصة غضبة انكلترا وفرنسا عام ١٩٥٦ عندما بدانا في تدبير العدوان فاشتركت اسرائيل معهما ، لانها اعتقدت ان هذا العدوان سيؤدي الى تحطيم الثورة المصرية ، واذا تحطمت الثورة المصرية نجحت اسرائيل بالتالي في التوسع الذي تريده بضم « سيناء » اولا ثم الاتجاه بعد ذلك نحو الاردن ونحو سوريا .

وفعلا بمجرد ان بدا العدوان الذي ابتدات به اسرائيل وليس انكلترا وفرنسا حسب الخطة المتفق عليها بين الدول الثلاث ، اعلنت اسرائيل دون انتظار ضم سيناء ظنا منها ان هذا العدوان سوف ينجح فعلا ..

هدف لم يتغير

الن في سنة ١٩٥٦ كانت اسرائيل تدبر فعلا ضم اية اراضي مصرية اليها وكان الهدف هو ضرب مصر ثم بعد ذلك كانت سوف تتجه الى الضفة الغربية للاردن والى الاراضي السورية اذا كان قد قدر للعدوان الثلاثي ان ينجح ، ولكن عندما صمد الشعب وفشل العدوان عادت اسرائيل الى ما وراء خطوطها .

ثم بدات في تدبير هجوم وعدوان اخر وهو ما حدث سنة ١٩٦٧ فتوجهت ايضا نحو مصر ، وعندما نجحت في احتلال « سيناء » اتجهت بعد ذلك الى الاردن وسوريا ، وكلنا

نعلم هذه الوقائع ولكني اشير اليها لاذكر ان هدف اسرائيل لم يتغير ولم يتبدل ، وانـه لتحقيق هذا الهدف ستتجه دائما نحو مصر لضرب مصر وتحطيم القوة المصرية ، لانه بدون ذلك لن تستطيع ان تحقق الهدف الذي قامت من اجله .

ان اسرائيل ـ عندما وضعت هذا الهدف او بمعنى اصح عندما وضعت الصهيونية هذه الاهداف ـ كان يجب ان تجد قوة كبرى تستند اليها لتحقيق هذا الهدف فكانت انكلترا في بداية الامر ، وبعد ان انتهى دور انكلترا كدولة عظمى لجأت الى اميركا ، وما تقوم به فعلا الان الولايات المتحدة هو دعم الصهيونية العالمية ، اي الحفاظ على ما كسبته اسرائيل ثم معاونتها في المزيد من التوسع والحفاظ على التوسعات الجديدة .

دور الولايات المتحدة.

وكان من الممكن ان تبقى خطط اسرائيل او خطط الصهيونية واهدافهـا في الاوراق فقط ، اي تبقى حلما من الاحلام ولا تتحقق وذلك ما لم تتواجد القوة التي تساندها ، وهو ما حدث من بريطانيا في الماضي ، ثم يحدث الان من الولايات المتحدة .

ان العدوان الحالي تخطيط اسرائيلي ولكن هـذا التخطيط لم يكن ليوضع موضـع التنفيذ ولم يكن ليستمر ما لم تكن هناك مساعدة وتخطيط من قبل الولايات المتحدة . الآن ، يجب ان ننظر الى دور الولايات المتحدة ، واذا اردت ان اتحدث عن دور الولايات المتحدة فيجب في الواقع ان اتحدث عن دورها في المنطقة بالنسبة الى اسرائيل وبالنسبة الى مصر بالذات ، وقد يكون من الانسب ان ننظر الى دور الولايات المتحدة بالنسبة الى مصر حتى نستطيع ان نتفهم الدور الذي تقوم به بالنسبة الى الصهيونية ولماذا تساعد اسرائيل .

ماذا تريد اميركا ؟

كانت الولايات المتحدة ـ بعد الحرب العالمية الاخيرة ـ تتصور انها تستطيع ان تحل محل انكلترا وفرنسا ، وكان هذا هو الدور الذي تحاول ان تلعبه ، وفعلا نجحت اميركـا في هذا الدور وحلت محل الاستعمارين الفرنسي والانكليزي في كل مكان تتركه انكلترا او فرنسا . وكانت الولايات المتحدة تتصور ان قيامها بهـذا الدور طبيعي في منطقة الشرق الاوسط ، بل اعلنت صراحة ان هناك فراغا وان هذا الفراغ يجب ان تملاه الولايـات المتحدة ، ولعلكم تذكرون محاولاتها في ما يتعلق بالدفاع المشترك ، وموضوع حلف بغداد ، ثم مبادرة ايزنهاور وكلها محاولات تهدف الى السيطرة على منطقة الشرق الاوسط .

وقفت مصر والثورة المصرية ضد كل هذه المحاولات واعلن الزعيم الخالد جمال عبد الناصر ان مصر لا تقبل اي نفوذ اجنبي في المنطقة وانها ستقاومه بكل قوة ، وفعلا استمرت مقاومتها للنفوذ الاميركي ومحاولة السيطرة الاميركية على المنطقة وكلنا نعلم ما حدث خلال هذه الفترة وكيف حاولت اميركا الضغط علينا بكل الوسائل واستخدمت كل الاساليب سواء

بالضغط السياسي او الاقتصادي ثم انتهى الامر الى استخدام القوة وهو عدوان سنة ١٩٦٧ .

السيطرة على المنطقة

دور امريكا في المنطقة في الواقع لم يتغير ايضا . لقد تحدثت عن دور اسرائيل وهو دور توسعي لم يتغير لانها تستهدف اقامة اسرائيل الكبرى اي الدولة اليهودية التي يمكن ان تستوعب جميع يهود العالم . ودور الولايات المتحدة ايضا في المنطقة لم يتغير وهو محاولة السيطرة على المنطقة ، بمعناه الكامل كما تسيطر على بعض دول امريكا اللاتينية، وكما تحاول ان تسيطر على بعض المناطق في آسيا لا عن طريق مساعدة شعوب هذه الدول من اجل التنمية وانما السيطرة بهدف استغلال هذه المناطق وشعوبها ..

وكلنا نعلم ايضا اننا في محاولاتنا السابقة مع الولايات المتحدة من اجل المساعدات الاقتصادية كانت كل المساعدات التي عرضوها هي امدادنا بالقمح لكنهمرفضوا المساعدة في اقامة اية صناعة في مصر .

ونعلم ايضا كيف رفضوا مشروع السد العالي . ان دور الولايات المتحدة ايضا لم يتغير اطلاقا ، ولا زال كما هو لمحاولة السيطرة على المنطقة ، وحتى تسيطر على هذه المنطقة لا بد من ازالة الدولة التي تقف ضد هذه السيطرة الامريكية . ان دور امريكا في الواقع ليس دور الدولة التي — كما يحاول البعض ان يصورها — تخضع للنفوذ الصهيوني .. البعض يحاول ان يلتمس العذر لامريكا بان هناك نفوذا ... صهيونيا ، وان هذا النفوذ هو الذي يوجه سياسة الولايات المتحدة في منطقتنا ولكن هذا التصوير خاطىء .

هناك نفوذ صهيوني هذاصحيح ، لكن هناك ايضا سياسة امريكية في المنطقة ، فلا يجوز ان نغمض اعيننا وان نتجاهل الحقائق ، هناك معركة مستمرة بيننا وبينها منذ سنة ١٩٥٥ على الاقل منذ بدأت الولايات المتحدة فعلا عملها السياسي في المنطقة من اجل السيطرة عليها واستعملت في ذلك كما قلت كل الوسائل . ولا زلنا نذكر محاولات الانقلاب في كل دولة وقفت ضد السياسة الامريكية .

ان هناك دور معين تقوم به الولايات المتحدة تمشيا مع اهدافها السياسية ودورها في العالم ، ولتحقيق هذا الدور في هذه المنطقة نجد ان اسرائيل يمكن ان تقدم لها خدمة كبرى وذلك عن طريق استخدام اسرائيل لضرب القوى المتحررة في المنطقة والتي تتمثل كلها في مصر . فاذا استطاعت اسرائيل ان تضرب مصر وان تقضي على الثورة المصرية كان الباب مفتوحا على مصراعيه امام الولايات المتحدة لتسيطر على هذه المنطقة .

مـــاذا تعني السيطرة ؟

ما معنى السيطرة على هذه المنطقة ؟... هذا ايضا سؤال اساسي يجب علينا دائما

ان نتذكره لان كلمة سيطرة احيانا تكون كلمة غامضة وقد تعني الكثير من المفاهيم ...
معنى السيطرة على هذه المنطقة هو السيطرة على مقدراتها ، أي ان يبقى هذا الشعب فقيرا . اردنا ان نقيم السد العالي فرفضت ، اردنا ان نقيم الصناعة فرفضت ان تساعدنا.
الآن كيف يمكن للشعب المصري ان يرتفع بمستواه ؟ لا بد من توسع زراعي ، ولا بد من اقامة الصناعة . فاذا عجزنا عن التوسع الزراعي والتوسع الصناعي فسوف يصبح الشعب فقيرا مضطرا لان يمد يده للولايات المتحدة فتقدم له القمح ليأكل فقط ويظل على مستواه المنخفض .

هذا هو الدور الاساسي الذي تقوم به الولايات المتحدة ، ليس هنا فقط انما تقوم به ايضا في آسيا وامريكا اللاتينية ولهذا السبب نجد ان شعوب هذه المناطق كلها بدأت تتنبه لسياسة الولايات المتحدة والدور الذي تقوم به ، وعلينا ان نكون واعين لــه حتى نتفهمه في هذه المرحلة .

ان المسألة ليست مجرد وجود قوات اجنبية على ارضنا ، هذه القوات تساندها امريكا ، ووراء سياسة امريكا سياسة معينة ...

محـــاولات للخداع

اذا تمشينا مع هذا الكلام ونظرنا الى دور الولايات المتحدة بالنسبة الى اسرائيل فقد يكشف لنا الاسباب التي قد تبدو في البداية غامضة تماما ، الولايات المتحدة قبل عدوان ١٩٦٧ كانت على الدوام على لسان رؤساء الولايات المتحدة تقول انها تؤيد استقلال دول المنطقة وسلامة اراضي دول هذه المنطقة ، وعندما اعتدت اسرائيل في سنة ١٩٦٧ تجاهلت الولايات المتحدة تماما جميع هذه التصريحات التي صدرت عن الرؤساء في الولايات المتحدة.

نقطة اخرى هي ان الولايات المتحدة ـ كما تعلمون وسبق ان ذكرت ذلك ـ قدمت لنا مذكرة رسمية قبل العدوان باثني عشر يوما تؤكد فيها انها ستقف ضد اي عدوان وانها تؤيد وحدة وسلامة دول هذه المنطقة ... بعد اثني عشر يوما ماذا فعلت الولايات المتحدة ؟... لم تنفذ الولايات المتحدة وعودها التي اعلنتها سواء على لسان رؤساء الجمهوريات او عن طريق الاوراق الرسمية التي قدمتها لنا، وانما وقفت موقفا عكسيا تماما عندما وقف مندوبها في الامم المتحدة يرفض ان يصدر قرار من مجلس الامن بانسحاب اسرائيل .

اذن الولايات المتحدة كانت تخدعنا وكانت تهيء العدوان الاسرائيلي وكانت تعلم به مسبقا .

فلم يكن العدوان عن جهل من الولايات المتحدة بل كان عن معرفة وعن تدبير ، وكانت تعلم اوضاع قواتنا العسكرية وانها غير مهيأة اطلاقا ، وكل ما فعلته الولايات المتحدة كان تمثيلية من اجل التهيئة للعدوان ومساعدة اسرائيل .

الانحيــاز لاسرائيل

كانت اسرائيل قبل العدوان تطالب بان تعترف الدول العربية بوجودها وتطالب بالمرور في قناة السويس وتطالب بالمرور في مضيق تيران .. هذه كانت مطالب اسرائيل ... وعندما طرح قرار مجلس الامن كانت الولايات المتحدة تعتقد انها سوف تقدم خدمة كبيرة لاسرائيل عندما اكدت لنا انها على استعداد للعمل على تنفيذ هذا القرار ، ثم عادت واكدت هــذا القول بعد صدور القرار الذي تباعدت عنه طوال هذه السنوات الماضية .

هذا هو موقف الولايات المتحدة طوال السنوات الماضية ، واذا نظرنا لتحركاتها نجد انها مستمرة في تزويد اسرائيل بالاسلحة في الوقت الذي ترفض فيه اسرائيل احترام اي قرار للامم المتحدة وترفض الاتصال بيارينغ .

هذا في الواقع الدور المنحاز للولايات المتحدة الــذي يتمشى مع تحقيق اهــداف اسرائيل ، واهداف السياسة الاميركية في الوقت نفسه .

المخطط الاسرائيلي

اذا اكتفينا بهذا القدر في الوقت الحالي من حديثي عن دور اسرائيل واهدافها ودور اميركا واهدافها ننتقل الى خطة اسرائيل في تحقيق هذه الاهداف .

نجد ان خطة اسرائيل الحالية في الواقع تستند على نقطتين :

- الرفض الكامل لتنفيذ قرار مجلس الامن .
- استمرار وقف اطلاق النار .

هذا هو المخطط الاسرائيلي الحالي ، وهذا المخطط سنجد باستمرار ان الولايــات المتحدة تسانده ، قد تعلن عن شيء غير هذا ، ولكن عندما تاتي للتنفيذ سنجد انها تنفذ هذا المخطط ، فهي تعلن عن شيء اما التنفيذ فشيء اخر ، فهي تتكلم عن قرار مجلــس الامن وتعلن انها مع تنفيذ القرار ، لكن عندما نطالبها بتفسير هذا بالنسبة الى الانسحاب نجد انها لا تعطي اي تفسير .

اذا تواضعنا وتحدثنا عن ان حق الشعب الفلسطيني قاصر على موضوع اللاجئين اي تنفيذ مقررات الامم المتحدة المتعلقة باللاجئين ، نجدهــم يعلنون انهم مع تنفيذ هــذا القرار ، وفي كل عام يصدر قرار بهذا المعنى والولايات المتحدة تصوت معه وتؤيده ، ولكن عند التنفيذ نجد ان الموضوع ينتهي الى موقف عملي يتماثل مع الموقف العملي الذي يتخذه الاسرائيليون وهو عدم عودة اللاجئين عن طريق التقدم بمشاريع تنتهي عمليا الى عدم عودة اللاجئين الى اراضيهم .

اهداف المخطط

وحتى نفسر كل التحركات لاسرائيل نجد ان اسرائيل في الواقع — كما تقول — تبني خطتها على امرين :

● اولا : عدم تنفيذ قرار مجلس الامن لان تنفيذ هذا القرار معناه الانسحاب من الاراضي العربية وانهاء التوسع .

● ثانيا : لتحقيق هذا تعمل على استمرار وقف اطلاق النار ، واستمرار وقف اطلاق النار معناه في الحقيقة تحويل الموقف الى ما يشبه الحرب الباردة ، ينتهي الامر الى ايجاد امر واقع ونستطيع ان نعطي مثالا على ما حدث بعد الحرب العالمية الاخيرة .

بالنسبة الى المانيا الغربية مثلا نجد انها كانت ترفض ما يسمى بالحدود القديمة اذ ان بولندا استولت على بعض الاراضي نتيجة هزيمة المانيا في الحرب الاخيرة وكانت المانيا الغربية ترفض انضمام هذا الجزء من الاراضي لبولندا الا انه بعد خمسة وعشرين عاما تقريبا استقر الامر الواقع وبدأت المانيا الغربية نفسها تعترف ، بهذه الخطوط .

وهناك ايضا مثال عكسي فالمانيا الشرقية تطالب وتصر على ان برلين الغربية هي جزء من المانيا الشرقية ، وتحاول ان تضع العالم امام الامر الواقع .

اذن فان اسرائيل تحاول الان ان تثبت وقف اطلاق النار حتى تصبح الخطوط الحالية خطوطا سياسية دائمة او ترغمنا على ان نعترف بجميع شروطها ونقبل كل مطالبها ، وما دمنا غير قادرين على تحريكها من مواقعها فانه لن يكون سوى احد امرين :

اما ان نقبل الوضع الحالي كما هو او ندخل في مساومة .

وفي الواقع فانه ليست عندنا قوة للدخول في مساومة وعلينا ان نقبل ما تقوله من مطالب . اي ان نرضخ الى ما تريده من مطالب .

اميركا .. وشروط اسرائيل

ماذا يطلب الاميركيون منا اليوم ؟

يقضي مشروع روجرز بأن على اسرائيل ان تنسحب من الاراضي المصرية ، ولكنه يضيف في الوقت نفسه ثلاثة شروط تتعلق بقطاع غزة والمناطق المنزوعة السلاح ومنطقة شرم الشيخ ، فاسرائيل تريد السيطرة على قطاع غزة كما تريد وضع قوات دولية في مناطق منزوعة السلاح كما ترغب في ضم منطقة شرم الشيخ اليها ...

وكل تصريحات اسرائيل تنادي بها ، واقرب تصريح صدر من ثلاثة ايام فقط حينما تكلم بيغال الون عن اطماع جديدة لاسرائيل تكلم عن مرتفعات الجولان وعن ضم جزء كبير من الضفة الغربية ومن جعل نهر الاردن حدودا آمنة .

ان المشروع الاميركي ... بالاضافة الى انه قد تجاهل تجاهلا تاما الاراضي السورية ، فاننا نجد شروطا من اسرائيل تقضي بأن يظل جزء من الاراضي المصرية وهو قطاع غزة تحت السيطرة الاسرائيلية . بل هناك نقطة من اخطر النقاط وهي نزع سلاح سيناء حيث تشترط اسرائيل عدم وجود اية قوات في الاراضي التي تنسحب منها قواتها . ومعنى هذا ان تكون مصر تحت سيطرة ورحمة الطائرات الاسرائيلية وذلك لان لدى اسرائيل قوة طيران كبيرة واذا نزع السلاح منسيناء ولم تعد قواتنا اليها فانه سيكون في امكان اسرائيل ان تعبر سيناء في ساعات وتحتلها .

واذا اردنا ان نحمي انفسنا فانه سيكون علينا ان نضع قوات كبيرة علـى الضفة الغربية حتى لا تعبر القوات الاسرائيلية القناة وتهدد عاصمة البلاد .

فاسرائيل الان تضع شروطا سياسية وعسكرية وهـذا ما تبناه المشروع الامـيركي المسمى بمشروع روجرز .

وقد اعلن الاميركيون انهم سيقدمون مشروعا خاصا للاردن وستضع الولايات المتحدة في مشروعها شرط قيام الاردنيين بالتفاوض مع اسرائيل حول الحدود وقد سبق ان ظهرت النية الى ضم بعض المناطق الى اسرائيل ومنها قلقيلية والنطرون ، ثم اعلنت اسرائيل رغبتها في ضم الخليل ايضا وهذا يعني ضم نصف الضفة الغربية ، وهي الان لا تكتفي بهذا بل تطلب عدم رجوع اي جندي الى الضفة الغربية وبهذا تكون تحت السيطرة الكاملـة لاسرائيل ، كما ان هناك كلاما يتردد حول ضرورة ابقاء الاراضي السورية المحتلة تحت سيطرة اسرائيل ايضا .

هذا هو المخطط الاسرائيلي ــ الاميركي وهو اولا عدم تنفيذ قرار مجلس الامـن ، وثانيا ان يكون وقف اطلاق النار وقفا دائما وهذا يحقق لاسرائيل كل اهدافها .

لا يمكن ان نقبل

والسؤال هو هل نستطيع ان نقبل هذا ؟... اذا قبلنا هذا فان قبولنا سيكـون استسلاما لشروط اسرائيل وقرارا منا بالهزيمة ورضوخا لارادة العدو ولهذا السبب فاننا نعلن باستمرار انه لا يمكن ان نقبل الاستسلام ولا الهزيمة ولا الامر الواقع ، وهـذا ما يجعلنا نقول دائما اننا لا يمكن ان نقبل وقف اطلاق النار الدائم ، وبعد ٤ فبراير (شباط) ١٩٧١ ــ بعد انتهاء فترة وقف اطلاق النار ــ يجب علينا ان نكون متأكدين من وجود خطوات جدية من جانب اسرائيل لاتصالات يارينغ وان قرار مجلس الامن سينفذ وان اسرائيـل ستنسحب ، لانه بدون ذلك كله نكون قد قبلنا المخطط الاسرائيلي الذي يهدف الى مد وقف اطلاق النار فترة بعد اخرى وتحويله الى وقف دائم .

التحرك لكشف المخطط المعادي

كان علينا بطبيعة الحال كتحرك سياسي ان نحاول كشف اسرائيـل واقناع العالـم بوجهة نظرنا ، وكلنا نعرف التحرك الذي قمنا به في السنين الماضية ، منذ قبلنا قرار مجلس الامن ثم كان تحركنا السياسي كله يستند في كل وقت على كشف السياسة الاسرائيلية امام الراي العام العالمي ، خصوصا ان هناك قطاعا كبيرا من دول اوروبا كانت اسرائيل قـد نجحت في كسبه الى صفها ، وقد ساعدت بعض الدول العربية والاعلام العربي في سنـة ١٩٦٧ على حدوث ذلك بحيث اظهرت اسرائيل على انها الدولة الصغيرة التي تهاجم من العرب .

ازاء هذا كله كان علينا ان نزيل هذه الصورة ونكسب تاييـــد الراي العام العالمي ونخلق تيارا معاديا لاسرائيل ، كما اردنا ان تكون لذلك نتائج مادية وليس نتائج معنوية فقط ، وهناك امثلة يمكن ابرازها ... منها موقف فرنسا حينما اعتبرت اسرائيـــل دولة معتدية وامتنعت عن تزويدها بالطائرات وبهذا فان التيار المعادي لسياسة اسرائيل يمكن ان يترجم الى قـــرارات مادية ويؤدي الى الضغط على اسرائيـــل لتنسحب من الاراضي المحتلة ولتاييد حق الشعب الفلسطيني .

كان علينا في الفترة الأخيرة ان نتحرك بكل قوة في كافة الميادين السياسية ، فلم نقطع الاتصال باي بلد حتى مع الولايات المتحدة ومع كـــل دول الغرب ودول آسيا وافريقيـــا بالاضافة الى الاتصالات التي جرت في المؤتمرات الدولية حيث امكن تحقيق بعض النجاح .

في افريقيا استطعنا ان نصل الى قرارات حاسمة من كثير من رؤساء الدول الافريقية بتاييدنا وبالمطالبة بانسحاب اسرائيل من الاراضي المحتلة ، كما امكـــن باتصالاتنا مـــع مجموعة دول عدم الانحياز على اكثر من مستوى ، وكما حدث في لوزاكا وبطريق الاتصالات المباشرة وشرح الموقف فان كثيرا من الدول عبرت عن رايها صراحة في انسحاب القوات الاسرائيلية من الاراضي المحتلة وفي المطالبة بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره .

التحرك في الامم المتحـــدة

ثم فكرنا بعد ذلك في الذهاب الى الامم المتحدة وكانت وراء ذلك اسباب عدة :

السبب الاول : انه لم يحدث منذ عام ١٩٦٧ وبعد صدور قرار مجلـــس الامن ان اثيرت القضية امام الامم المتحدة .

السبب الثاني : اننا وجدنا تفهما في الراي العام العالمي سواء في مؤتمرات عـــدم الانحياز او في المؤتمرات الافريقية والاسلامية مما شجعنا على الذهاب الى الامم المتحدة للضغط على اسرائيل والقضاء على العدوان .

السبب الثالث : وهو سبب مهم هو ان اسرائيل قد وقعت في مازق عندما قبلنا في الصيف الماضي مبادرة روجرز لانها كانت تعلن دائما رفضها لقرار مجلس الامن وتصر على وقف اطلاق النار الدائم . وفوجئت اسرائيل كما فوجئت اميركـــا ايضا لقبولنا للمبادرة . ووجدوا انهم في مركز صعب وكان عليهم التخلص من هذا الموقف لانهم كانوا يهدفون الى عدم تنفيذ قرار مجلس الامن والى وقف دائم لاطلاق النار ، ولهذا فان فكرة تحمل اي معنى غير هذا كان لا بد ان تعارضها اسرائيل .

وفي خلال المحادثات الرباعية كانت اميركا تحـــاول باستمرار التركيز على ايجـــاد ضمانات قبل ان يجري اي بحث حول موضوع الانسحاب في الوقت الذي تقدم الاتحـــاد السوفياتي ببعض الافكار التي لا تبعد كثيرا عن الافكار التي تنادي بها اميركا في ما يتعلق بضمان السلام في المنطقة ، لكن الولايات المتحدة وجدت نفسها في الواقع في مازق امـــام الاتحاد السوفياتي في المحادثات الرباعية .

القوى المؤثرة في امريكا

خرجت امريكا بهذا المشروع ونفترض انه كان هناك حسن نية عند البعض وليكن وزير خارجية امريكا . وفي الحقيقة كما نعلم تخرج السياسة الامريكية عموما من اكثر من مصدر واحد ، وأحد هذه المصادر وزارة الخارجية .

وبالنسبة الى اسرائيل بالذات وبالنسبة الى الصهيونية هناك اكثر من مصـــدر ، وهذه مسالة معروفة . كثير من رؤساء الجمهوريات ووزراء الخارجية الامريكية في مذكراتهم يشيرون الى هذا ، ودائما هنالك رايان ، رأي في صالح اسرائيل وراي في غير صالحها ، ولكن دائما نجد ان الراي الذي يقف مع اسرائيل هو الراي الذي يؤخذ به في النهاية ، ولا بد ان نسلم ببعض الحقائق التي سجلها التاريخ والتي دونت في الكتب .

ان بعض الافراد وبعض السياسيين الامريكيين يجد ان ظلما قد وقع ويجب تصحيحه، ونجد فئة اخرى تنادي بتاييد اسرائيل ولكننا نجد في النهاية ان الراي الذي يناصر اسرائيل هو الذي يتغلب ولم نجد في الاثنتين والعشرين سنة الماضية رايا يناصر العرب بل كان الراي دائما مناصرا لاسرائيل .

وانا اذكر هذه النقطة بالذات فقد يتساءل البعض لماذا تقدمت امريكا بهذا المشروع ، الذي كان يبدو ان اسرائيل سترفضه ، او فعلا رفضته . ونتج عن هذا خلاف في الحكومة الاسرائيلية ، مما ادى الى استقالة بعض الوزراء .

امريكا تدعي دور الحكم

وعلى اية حال هذه هي بعض الحقائق بصرف النظر عن التحليل . التحليل يمكن ان يطول وقد يحتاج الى وقت طويل لكن هذه حقائق تشـير الى ان اسرائيل كانت ترفـض المشروع في الوقت الذي قبلت فيه المبادرة الامريكية ، ثم ماذا حدث لهذه المبادرة . بعد ان قبلنا هذه المبادرة تقدمت فجاة الولايات المتحدة بما يسمى ترتيبات وقف اطلاق النار ، ولكن ما تقدمت به امريكا لم يكن جزءا من المبادرة . فالمبادرة تتحدث فقط عن وقف اطلاق نـار موقت ، وهذا يتمشى مع قرار مجلس‌الامن ... تقدمت امريكا فجـأة بما تسميه ترتيبات وقف اطلاق النار ولم تشر اطلاقا الى انها ستكون الحكـم الذي يحكم والذي سيراقب ترتيبات وقف اطلاق النار ، بل تقدمت به في اخر لحظة ، اي في اللحظة التي وافقنا فيها ، وقالت ان لديها اتجاها بان تقوم طائراتها بالاستطلاع . وقلنا ان هذا غير مقبول ولا يدخل في الاتفاق .

الان فالولايات المتحدة تقدمت بمشروع غامض يمكن ان يحدث خـلاف عليه . ففي ٢ سبتمبر (ايلول) ١٩٧٠ اعلنت الولايات المتحدة ان مصر قد انتهكت ترتيبات وقف اطــلاق النار ، ونتج عن هذا في ٦ سبتمبر (ايلول) اي بعد ثلاثة ايام ان اعلنت اسرائيل انها لا تقبل الاتصال بيارينغ .

وبهذا فان الولايات المتحدة تكون قد اعطت الشهادة والتصريح الكبير والعذر لاسرائيل حتى تعلن الاتصال بيارينغ ، وبالتالي اصبح قرار مجلس الامن غير قائم .

حملــة للتنديــد

وفي الواقع قامت الولايات المتحدة واسرائيل بعد ٣ سبتمبر (ايلول) بحملة واسعة للتنديد بنا وكذلك بالاتحاد السوفياتي واخذت تتهم مصر بانهــا لم تحترم كلمتها بانتهاكها ترتيبات وقف اطلاق النار ، وقالت ان مصر هي المسؤولة عن عدم تحقيق الحل السلمي ، والاكثر من ذلك انه ورد في المذكرات الامريكية التي اعطتها لجميع عواصم العالم ان مصر لا تحترم كلمتها فكيف يمكن اسرائيل ان تطمئن حول السلام وانها تشــك في تنفيذها لمــا نتعهد به .

وتحاول بذلك ان تخرج بنتيجة ان ما نقوله حول تنفيذ قرار مجلــس الامن لا يعني شيئا ولا يساوي شيئا وانه يمكن ان يحدث الكثير بعد موافقتنا .

هذا الكلام في الواقع له معنى خطير ... خطير للغاية . لان اسرائيل عندما قــامت باعتداء ١٩٦٧ كانت تبرر هذا بان مصر لا تحترم اتفاق حرية الملاحة وانها تضع قيودا على الملاحة بالنسبة الى خليج العقبة ، ولم يكن هناك اطلاقا مثل هذا الاتفاق ، ولكن الامريكيين ايدوا اسرائيل في ما ذهبــت اليه ، وقامت اسرائيــل وبررت العدوان بان مصر انتهكت ترتيبات وقف اطلاق النار واكثر من هذا فان اسرائيل تبرر موقفها باحتلالها الاراضي العربية لتوجد الحدود الآمنة ، ولذلك رأت انه يجب ان تحتل المزيــد من الاراضي العربية حتى تؤمن نفسها ... لماذا ؟ لان العرب لا يحترمون كلمتهم ، وانها لا تستطيع ان تقبل ضمانات عربية ، او كلمة عربية ، وعلى هذا رأت انه لا بد ان تحتل الاراضي حتى تؤمن نفسهــا وتؤمن سلامتها .

وفي الواقع فان الحملة الامريكية الاساسية اقوى بكثير من ان تستطيع اسرائيل ان تقوم بها ، لان امريكا توزع هذه المذكرات — وقد قرأتها بنفسي — على جميع العواصم في العالم وتحاول ان تثبت فيها ان مصر لا تحترم كلمتها وبذلك لا تتوقــع ان يقوم سلام في المنطقة وذلك لان مصر انتهكت ترتيبات وقف اطلاق النار .

تنفيــذ الادعــاءات

في الواقع هذا الكلام خطير بالنسبة الينا ، خطير جدا . وكان يجب علينا ان نواجه التحدي وان نثبت ان اسرائيل هي الدولة القائمة على الاغتصاب لا تحترم كلمتها ولا تعرف شيئا عن الشرف . وكان يجب ان نقبل هذا التحدي ونحاول ان نثبت ان امريكا هي التي نقضت تعهداتها ، وكان من الضروري ان ندخل في المعركة ، ولكن كيف نستطيع ان ندخل المعركة ... نحن لا نستطيع ان نواجه امريكا في كل عواصم العالم .

لقد ابلغنا بالفعل كل دول العالم عن طريــق السفارات بالحقائق ، ولكن امريكــا تستطيع عن طريق وسائل الاعلام ان يكون صوتها اقوى من صوتنا خصوصا في الــدول التي تتأثر بالنفوذ الامريكي ، ولذا كان من الصعب ان نقنعهم باننا صادقون وان الامريكيين غير صادقين ، خصوصا ان امريكا وزعت عليهم صورا تزعم انتهاكنا لوقف اطلاق النار وهي

كفيلة بأن تقنع اي مطلع عليها بانها صحيحة ما لم نقم باثبات غير ذلك .

ولذلك فانه حينما تقدمت الولايات المتحدة بهذه الصور لعواصم العالم حاولت ان تقنع الرأي العام العالمي بمخالفة مصر لكلمتها ، ولقد كان من السهل ان نقنع العالم بغير ذلك وكان من الضروري ان نذهب الى الامم المتحدة ونخوض معركة مع الولايات المتحدة نكشفها فيها امام العالم كله حتى ننهي هذه الحملة التي اثارتها امريكا واسرائيل ...

ولهذا اثرنا القضية من اولها بالنسبة الى العدوان وبالنسبة الى حق الشعب الفلسطيني . ونستطيع ان نقول اننا لسنا انه كان من السهل ان نثبت بالواقع ان امريكا هي التي لم تحترم تعهداتها وقدمنا الوثائق التي تثبت ذلك . كما كشفنا المذكرة التي كانت الولايات المتحدة قد قدمتها وقالت فيها انها ستكون ضد العدوان . وكشفنا ايضا المبادرة الامريكية حيث ورد نص صريح في ورقة قدمتها ان امريكا لن تقدم طائرات الى اسرائيل . ولقد نسي الامريكيون انهم قدموا الينا هذه الورقة ، فاضطررت الى ان اقرأها في التلفزيون الامريكي ثم قرأناها ايضا امام العالم في الامم المتحدة .

وتدعي الولايات المتحدة الان انها وعدت بهذا الوعد على اساس ان مصر تحترم كلمتها بالنسبة الى ترتيبات وقف اطلاق النار ولكن مصر انتهكت هذه الترتيبات بتحريكها الصواريخ .

ولا شك ان كل الضغوط التي بذلتها امريكا لم تنجح ، اذ ان الدول التي وقفت مع امريكا واسرائيل كانت اربع عشرة دولة ، وهناك دولة صوتت ضد القرار ولكنها ارسلت بعد ذلك خطابا بالاعتذار عن ذلك وهي هولندا . والمهم ان نتيجة القرار كانت القضاء على الحملة الامريكية التي حاولت امريكا ان تشنها علينا بالنسبة الى موضوع الصواريخ وزعمها انتهاكنا ترتيبات وقف اطلاق النار .

لقد هددت الولايات المتحدة اكثر من مرة بالصور ، وقد قلت انني مستعد ان اوقع عليها بانها سليمة غير انه لا يوجد عليها تاريخ وبالتالي فلا قيمة لها .

ادانة لاسرائيل

ونستطيع ان نقول ان القرار الذي صدر من الامم المتحدة كان يدين اسرائيل لاول مرة وكان يطالب بلغة واضحة بسحب القوات الاسرائيلية من الاراضي العربية وقد حاولت اسرائيل ان تصور للعالم ان قرار مجلس الامن لم يعد موجودا .

وللمرة الاولى صدر قرار يؤكد حق شعب فلسطين رغم بعض المواقف التي قام بها البعض ، حيث وقف فايز صايغ مثلا الفلسطيني الجنسية وممثل الكويت لدى الامم المتحدة والذي سبق ان اعجب به الشعب المصري ، موقفا معارضا للقرار برغم الخبرة التي لديه في القضية الفلسطينية في المجال الدولي وذلك على اساس ان هذا القرار اضعف من القرار الذي صدر العام الماضي لشعب فلسطين ، مع ان هذا القرار كان يشير الى حق الشعب الفلسطيني من الناحية الانسانية وليس من الناحية السياسية ، اما في هذه المرة فكان القرار سياسيا ، وواقعيا من ناحية حقوق شعب فلسطين ومن ناحية ان السلام لا يمكن ان يتحقق الا بتأمين حقوق فلسطين .

نتائج القرار

بالنسبة الى موضوع الاتهامات التي واجهتها اسرائيل بشأن عدم موافقتها على بدء الاتصال بيارينغ لاستئناف المحادثات ، ففي الحقيقة ان موقف اسرائيل هذا نتجت عنــه سلسلة من القرارات صدرت من الامم المتحدة وكلها ترفض اتهامات اسرائيل لنا بالنسبة الى موضوع الصواريخ . بالنسبة الى اسرائيل من الناحية الدولية ، لقد صدر قرار من الامم المتحدة يساوي بينها وبين جنوب افريقيا وهو ما يعتبر مشكلة كبيرة بالنسبة اليها لان جنوب افريقيا هي العدو الاول للدول الافريقية . فعندما يصدر قرار يساوي بين حكومة اسرائيل وبين جنوب افريقيا باعتبار انهما يمثلان سياسة استعمارية عنصرية ، نستطيع ان نقول اننا خرجنا من هذه الدورة بعزل السياسة الاميركية واضعاف موقفها امام الرأي العام العالمي .

وخرجنا ايضا من هذا القرار بموقف جديد هو ان الامين العام مطالب بان يتقدم بتقرير الى مجلس الامن خلال شهرين من تاريخ اصدار القرار ، اي ان عليه ان يقدم تقريرا قبل ٥ يناير (كانون الثاني) ١٩٧١ المقبل . ومعنى تقديم هذا التقرير هو ان اسرائيل ستجد نفسها مرة اخرى تواجه المنظمة الدولية في شكل هذا التقرير او في شكل اجتماع لمجلس الامن لو تقرر اجتماع لمجلس الامن ، وهذا هو ما سنقرره نحن غالبا ، وذلك لان الولايات المتحدة تعارض معارضة شديدة في اجتماع مجلس الامن لو طبق هذا التقرير . واسرائيل تعارض معارضة شديدة كذلك في اجتماع مجلس الامن لانها تعرف انها اذا ما عرض موقفها على مجلس الامن فانها لن تحظى بالتاييد وكذلك فان موشي ديان كان يطالب اميركا بان تعطيه وعدا من الان باستعمال حق الفيتو اذا ما صدر قرار ضد اسرائيل ، ولكن الولايات المتحدة لا تستطيع ان تعطي هذا الوعد ولو انها قد تستعمله اذا وجدت نفسها مضطرة الى ذلك .

ان اسرائيل تعارض معارضة شديدة عرض القضية مرة اخرى على مجلس الامن والولايات المتحدة تؤيد ذلك بل وتعارضه معارضة شديدة .

وترى ان الموضوع لا يثار في مجلس الامن على اساس ان اسرائيل ستقوم بالاتصال بيارينغ قبل موعد تقديم تقريره وان الولايات المتحدة سوف تبذل كل جهد من اجل تنفذ قرار مجلس الامن .

اسلوب المشاورة

عندما يقولون لنا هذا الكلام فانني اقول انه ليس جديدا بالنسبة الينا ، لانني قبل سفري من اميركا قلت ليوثانت ان اسرائيل ستقدم قبل ٥ يناير (كانون الثاني) ورقة لك او ليارينغ تدل على انها على استعداد للاتصال بيارينغ لانها اذا لم تفعل ذلك فانه سيقدم تقريرا بانها رفضت تنفيذ قرار الجمعية العامة ، فنستغل ذلك التقرير في عرض القضية على مجلس الامن ، وستجد نفسها في مأزق امام الامم المتحدة ، وهذا موقف لا تطيقه الولايات

المتحدة وهو ان اسرائيل تصبح في هذه الحالة معزولة ، اذن فلا بد ان اسرائيل ستقوم بالاتصال بيارينغ قبل ٥ يناير (كانون الثاني) ثم تبدأ مرحلة طويلة من المناورات والمماطلة بالنسبة الى تنفيذ قرار مجلس الامن لان هدف اسرائيل لم يتغير وهو عدم تنفيذ القرار .

الهدف الثاني هو رغبتها في استمرار وقف اطلاق النار ، هذان الهدفان لها لم يتغيرا، ولكن امام الضغط الدولي يمكن لها ان تتحرك هي وتعرض انها تتصل بيارينغ من اجل ان تضعنا نحن في مازق ، فالعملية عبارة عن مناورات سياسية تكـون مستمرة بالنسبة الى يارينغ . وهذا الموضوع ليس غريبا عليه فقد بدأ مهمته عام ١٩٦٨ وكانت هذه الفترة كافية لاسرائيل لو انها كانت تريد تنفيذ القرار بصفة جدية .

هذا هو الموقف الحقيقي بالنسبة الى اسرائيل وتوقعاتنا لتحركها بالنسبة الى قرار الجمعية العامة وبالنسبة الى تقرير الامين العام .

اعود فالخص ما قلناه ، وهو انه كما قلت ان موقف اسرائيل لم يتغير وما زال هو التوسع وانكار اي حق لشعب فلسطين وسبيلها في ذلك عدم تنفيذ القرار والمحافظة على استمرار وقف اطلاق النار .

الارغام اساسي

اذا كان هذا هو موقف اسرائيل وموقف امريكا ايضا فما هو العمل الذي يمكننا ان نفعله ؟ او ما هي كيفية الوصول الى انهاء هذا العدوان ؟

واضح جدا انه لا يمكن ازالة هذا العدوان ما لم ترغم اسرائيل على ذلك . فالارغام هنا اساسي جدا ، فليس لاسرائيل ان تعود ما لم ترغم على ذلك ارغاما لانها لم تتخط حدودها من اجل نزهة ولكن من اجل احتلال الارض ولكن كيف نحقق هذا الارغام ؟

وكيف نجعل الوقت في صالحنا من اجل ارغام اسرائيل على الانسحاب ؟

لو اننا نظرنا الى موقفنا الحالي والموقف الذي كنا عليه سنة ١٩٦٧ والموقف الـذي كانت عليه اسرائيل سنة ١٩٦٧ والموقف الذي هي عليه الان ، لو نظرنا الى هذا فاننـا نستطيع ان نتصور الموقف وسنجد ان اسرائيـل فشلت في تحقيـق اهدافها السياسيـة الى الان .

اسرائيل كانت تعتقد ان الموقف في مصر منهار واننا سنضطر للتسليم بالامر الواقـع واننا سنقبل شروطها وبالتالي تتبعنا في ذلك بقية الدول العربية ، ولكن حتى اليوم فشلت اسرائيل في ان تفرض علينا ارادتها وفشلت ايضا في ان تحقق اهدافها خلال هذه الفترة . اذا نظرنا الى وضعنا سنة ١٩٦٧ نجد انه لم يكن عندنا قوات مسلحة حيث تحطمت قواتنا في المعركة وسقطت في يد العدو اما الان فاصبحت عندنا قوات مسلحة كبيرة وعلى قـدرة عظيمة جدا ، من الناحية القتالية . اذن نجحنا في بناء قواتنا المسلحة وقد لا يكون ذلـك بالدرجة التي تجعلنا نقول باننا متفوقون عسكريا على العدو ولكن لا شك اننا حققنا تقدما ضخما في بناء قواتنا المسلحة .

وعلى الصعيد الدولي فاننا نجحنا بهذه القدرة في عزل اسرائيل التي قامت اساسا على

عطف العالم وعلى ان شعوب العالم كله تساندها وتؤازرها وتؤيدها . اسرائيل الان تشعر بعزلة شديدة ويمكن لو اننا تتبعنا الصحافة الاسرائيلية لوجدنا انهم يرددون ذلك في صحفهم ويشعرون بالالم لوجودهم في هذا الوضع .

العدو يعـــاني المتاعب

واذا نظرنا الى الوضع الاقتصادي في اسرائيل لوجدنا ان الاقتصاد الاسرائيلي يعاني فعلا متاعب اكثر مما نتصوره واتمنى في الواقع ان تعد ابحاث طويلة تنشر في جرائدنا عن المتاعب الموجودة في اسرائيل وحالة الغلاء في اسرائيل .

وعلى سبيل المثال اثنان متزوجان يريدان ان يحتفلا بعيد قرانهما استمرا طوال العام يدخران لتغطية حفلة العشاء في ليلة عقد القران . وبعبارة اخرى ان عدد السكان حوالي مليونين ونصف مليون نسمة بينما تصل ديونهم الى ٢٫٨ بليون دولار . واسرائيل دولـة عاشت وتعيش على المعونات والهبات فاذا توقفت هذه الهبات انهارت اسرائيل اقتصاديا. وبرغم كل هذه الهبات التي تتلقاها فان الاعباء العسكرية بلا شك تجعل شعب اسرائيل يضيق ذرعا بهذا الوضع الاقتصادي .

ولو اننا قارنا بين الوضع الاقتصادي واسعار المعيشة في اسرائيـــل وبين المعيشة عندنا نجد الفرق كبيرا جدا ، ويجب الا ننسى انهم في اسرائيل يريدون ان يعيشوا علـى مستوى المعيشة الموجودة في اوروبا لان اغلبيتهم جاءت من اوروبا . ولو انهم خفضـــوا المستوى لعادوا اليها . اما نحن فنعيش على مستوانا وهو مستوى اقل بكثير من المستوى الاوروبي ونستطيع بذلك ان نتحمل وان نصبر خصوصا اننا في معركة حق لاسترجاع الارض المغتصبة .

وعندما اشير الى ذلك اقول ان الوقت ليس في صالح اسرائيل ، فالوضع الاقتصادي يجعل سكان اسرائيل تتبرم من الوضع الذي تعيش فيه .

بالنسبة الى القوى البشرية ، اسرائيل عدد سكانها ٢٫٥ مليون ولا تستطيـــع ان تضع كل افرادها القادرين على حمل السلاح في جيشها لان ذلك يؤثر على اقتصادياتها ، كذلك ومن المعلومات التي توافرت لدينا ان حرب الاستنـــزاف ادت الى ان الخسارة خلال هذه الفترة كانت اكبر من خسائرها في حرب ١٩٦٧ .

واضرب مثالا يدل على عدم تحمل اسرائيل لاي نقص في اعدادها الفنيين . فقد اسرنا عددا من الطيارين يتراوح عددهم بين ثمانية او تسعـــة ولا يمر يوم دون محاولات مـــن اسرائيل لاسترداد هؤلاء الطيارين وهي في ذلك تلجأ الى وساطة دول كثيرة لاسترجاعهم .

هذا دليل قاطع على ان اسرائيل لا تستطيع تحمل فقدان اعــداد كبيرة من قواتهـــا حيث انها لم تتحمل فقط هذا العدد البسيط الذي يتراوح بين الثمانية او التسعة طيارين.

ليس الوقت كافيا لكي نعرض الموقف بالنسبة الى الماضي ولكننا نقول انه قد حدث تغيير كبير في صالحنا ، ويمكننا في الوقت نفسه ان نقول ان اسرائيل ما زالت متحملة كـــل هذه المشاكل وما زالت تزيد من قوتها العسكرية عن طريق الولايات المتحدة .

كيف يصبح الوقت في صالحنا ؟

والنقطة الاساسية التي تواجهنا الان والتي يجب ان نفكر فيها هي كيف نجعل الوقت في صالحنا ؟ اعتقد انه يمكن تحقيق ذلك عن طريق :

اولا ــ الجبهة الداخلية . ان الجبهة الداخلية في الواقع هي الاساس ، لان صمود الشعب في الفترة الماضية وصمود الشعب اليوم وصموده دائما هو الذي سيوصلنا الى كسب المعركة ، وان حدوث اية خلخلة في الصف الداخلي معناه ان نخسر المعركة ضد اسرائيل ، لان المعركة اساسها صمود الشعب . ولذلك لا بد ان نكون دائما على حرص وان نتبع سياسة النفس الطويل حتى يكون الوقت معنا باستمرار مهما طال الزمن . ان هذا الموضوع اهم بكثير من اي شيء اخر ما دمنا قد رفضنا الاستسلام فلا بد من الصمود مهما كانت التضحيات والخسائر . ان المعركة المقبلة لو بدات فسوف تكون معركة قاسية لاننا لا بد أن نرغم العدو بالقوة المسلحة على الانسحاب . وفي الوقت نفسه لا بد ان نتحمل الخسائر التي نصاب بها . لا بد ان يكون هناك صمود حتى نستطيع كسب المعركة .

ثانيا ــ العمل السياسي . يجب ان نحرص في كل الجهود السياسية والدبلوماسية على عزل اسرائيل بحيث لا تكسب اية معركة سياسية وتظل معزولة دوليا ، لان ذلك يؤثر على معنويات اسرائيل في الداخل خصوصا لو نجحنا في ذلك في العواصم الغربية . كما ان ذلك يحقق لنا ٥٠٪ من النصر .. لان انهيار معنويات العدو يؤدي الى استسلامه وعدم قدرته على تحمل المعركة ، ولذلك يجب علينا أن نضعف من معنويات اسرائيل بكل الوسائل عن طريق العمل السياسي .

ثالثا ــ التعاون مع الاتحاد السوفياتي . لا بد ان نتكلم عن دور الاتحاد السوفياتي كما تكلمنا عن دور اميركا .. فكما ان اسرائيل لا يمكن ان تقوم بالهجوم علينا دون معرفة الاميركيين او كذلك لا يمكن ان تواصل هذا العدوان دون مساعدتهم .. كذلك ما كنا نستطيع مواصلة المعركة بل ما كنا نستطيع ان نصمد لولا مساندة الاتحاد السوفياتي .. ان الحرب اليوم فيها اسلحة حديثة وليست قاصرة على الشجاعة . ولم تعد حربا تقليدية نستعمل فيها الحراب والسهام . واسرائيل في الواقع قد استخدمت في حرب حزيران ١٩٦٧ كل هذه الاسلحة الحديثة التي كانت تمكنها من التوجه الى اية عاصمة عربية ، الا ان الاتحاد السوفياتي وقف الى جانبنا ثم اقام جسرا جويا وبحريا من اجل تزويد الجيش بكل الاسلحة التي تمكنه من الدفاع والصمود في المعركة ... كما ان الاتحاد السوفياتي حال دون قيام اسرائيل باستئناف هجماتها من اجل تحقيق اهدافها وبذلك تكون اسرائيل قد انتصرت علينا عسكريا ولكنها لم تنجح في فرض ارادتها علينا ولذلك كان عليها ان تحاول ان تستغل هذا الانتصار العسكري وقواتنا ما زالت محتلة في سيناء حتى لو استدعى الامر ان تعبر القناة فما الذي جعلها تحجم عن ذلك ؟

لقد استطاع الاتحاد السوفياتي عن طريق وزنه السياسي ان يؤخر هذا العمل ... ثم بدأ في تحريك اجهزته العسكرية لكي تقدم لنا الاسلحة باسرع ما يمكن لانه كما هو معروف ، اذا نجح سياسيا في ايقاف عمل معين فلا بد بعد ذلك من تقديم الدعم العسكري الذي يؤيد هذا النجاح ، وهذا ما حدث فعلا ، فقد سارع بتزويدنا بكل ما هو متاح له عن

طريق البحر والجو ، واستمر خلال هذه السنين في تزويدنا بالاسلحة من اجل خلق قوة عسكرية جديدة حتى لم يبق عندنا جندي بدون سلاح .

ونحن في الواقع نعاني من مشكلة شرح موقف الاتحاد السوفياتي بالنسبة الى هذه النقطة بالذات ، وهي مشكلة اعلمها ولا اعرف كيف يمكن التخلص منها .

كل يوم تنشر الصحف ان امريكا سوف تعطي اسرائيل ما قيمته ٥٠٠ مليون دولار من السلاح فهل الاتحاد السوفياتي اعطانا هذا القدر من السلاح ام لا ؟ اننا لاغراض السرية العسكرية لا يمكن ان نحدد ونعلن قيمة السلاح الذي ياتينا من الاتحاد السوفياتي ، لاننا لو اعلنا ذلك فسوف تكون النتيجة ان تطالب اسرائيل بمزيد من السلاح من امريكا وقد يصل الى ٢٠٠٠ او ٣٠٠٠ مليون دولار لتواجه به السلاح السوفياتي وبذلك يكون النشر في غير مصلحتنا .

لقد تدخل الاتحاد السوفياتي سياسيا لمنع اسرائيل من استغلال انتصارها العسكري، وفي الوقت نفسه قدم الينا المساعدات العسكرية لوقف اي تهديد عسكري من جانب اسرائيل ولهذا نستطيع ان نقول اليوم اننا في موقف عسكري يتيح لنا الصمود والدفاع .

وعندما اعتدت اسرائيل وهجمت بطائراتها في العمق وضربت بعض المواقع المدنية في القاهرة تدخل الاتحاد السوفياتي ايضا وارسل الينا الصواريخ ، وكلنا نعلم ان هذه الصواريخ كانت تدار بخبراء سوفيات لان الاتحاد السوفياتي عندما وجد ان هناك تهديدا مباشرا علينا من اجل الضغط على الشعب لاخراجنا من المعركة وانهاء الصمود المصري ، كان رد الفعل من الاتحاد السوفياتي هو المعاونة في الصمود ووقف هذا التحدي الجديد . وقد نجح الاتحاد السوفياتي ايضا في ذلك بصرف النظر عن ان التواجد السوفياتي كانت له صبغة عسكرية ، وبذلك يكون الاتحاد السوفياتي قد حال دون استمرار اسرائيل في غارات العمق ، وللمرة الثانية بفضل مساعدة الاتحاد السوفياتي منعت اسرائيل في الواقع من محاولة اخضاعنا او ارغامنا لقبول شروطها .

ان الاتحاد السوفياتي ما زال يواصل تزويدنا بالاسلحة والخبراء والمعدات العسكرية الحديثة وخصوصا المعدات الالكترونية ، والفريق فوزي هو الذي يستطيع ان يتكلم في هذه الامور ، ولكنني تكلمت فيها فقط لربط الموضوعات بعضها ببعض .

دعم في جميع المجالات

واحب ان اشير الى نقطة اساسية ربما تكون اهم من المساعدات العسكرية وهي المساعدات الاقتصادية ، فنحن في غمرة المعركة قد ننسى المساعدات الاقتصادية التي تحقق املنا بالنسبة الى المستقبل . لقد كان شعارنا دائما هو التنمية وزيادة الرفاهية لشعبنا ومضاعفة الدخل ، ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟ كيف نرفع الدخل او نزيد الانتاج الزراعي او الصناعي ؟ ومن الذي ساعدنا في كل ذلك ؟ ومن الذي اقام السد العالي ؟... انه الاتحاد السوفياتي .

لقد كان انتاجنا الزراعي غير كاف اطلاقا خصوصا بعد ان بلغنا ٣٠ مليونا ولذلك

كان لا بد من الاتجاه الى الصناعة ، وساعدنا الاتحاد السوفياتي في ذلك بعد ان رفض الاميركيون تقديم اي عون لنا في هذا المجال . وقد اعلن ذلك الزعيم الراحل جمال عبد الناصر في كثير من خطبه ، وشرح في احدى تلك الخطب كيف ان رئيس البنك الدولي قال بصراحة انهم لن يساهموا في اقامة مشروع واحد وان كل ما يستطيعون تقديمه هو مشروعات زراعية ، والمشروعات التي تقام ببلادنا اليوم في ميدان الصناعة هي بمساعدة الدول الاشتراكية والاتحاد السوفياتي بالذات .

وبذلك يتضح لنا ان الاتحاد السوفياتي لم يدعمنا في المعركة سياسيا وعسكريا فقط وانما ايضا اقتصاديا ، ويجب الا ننسى هذه النقطة لانه بدون هذا الدعم فان وضعنا الاقتصادي يتدهور . ولا بد من التضحية لكي نصل الى معدل التنمية الذي نتمناه في الخطة ، ولكن على اية حال ونحن نواجه المعركة فان اي معدل ولو ضئيل حتى لو وصل الى واحد في المئة مثلا يعتبر نجاحا ولكننا نرجو ان نقيم مشروعات اكثر في مجال التنمية .

الان في اطار المعركة هناك تنمية اقتصادية عن طريق دعم الاتحاد السوفياتي . واعتقد ان هذه النقطة اساسية لانها تساعد الشعب على الصمود ، ولانه بدون ايجاد عمل لكل مواطن وتنمية اقتصادية فان الصمود يكون ضعيفا ، فالعمل الاقتصادي اساس في المعركة لانه الوسيلة الى الصمود .

من كل ذلك نستطيع ان نخرج بنقطة اساسية وهي انه يجب علينا في مجال العمل من اجل المعركة ان نتعاون مع الاتحاد السوفياتي تعاونا مخلصا وسيكون لذلك بلا شك دورا اساسيا من اجل ارغام اسرائيل على الانسحاب ، وبدون ذلك فان معركة الصمود سوف تكون ضعيفة ولا تستطيع ان تصل في يوم من الايام الى مرحلة ارغام العدو على الانسحاب بالقوة المسلحة .

تيار عربي موحد

الميدان الرابع الذي يجب ان نعمل فيه ايضا هو تكوين تيار عربي موحد نرغم به اسرائيل . فبعد ان تكلمت عن الصمود وبناء القوات المسلحة وهي نقطة اساسية ، ثم موقف الاتحاد السوفياتي ، يجب العمل في الجبهة العربية لانه من واجبنا في الواقع ان نحشد كل الجهود العربية .

وبالرغم من كل التجارب التي مرت بنا فان الجهد العربي ما زال مطلوبا وعلينا ان ننسقه ونوجهه من اجل المعركة وذلك في اية فرصة نحصل عليها ولا نتردد ابدا في الحصول على اي مكسب .

ورغم ان الخلافات تزيد من معنويات العدو اليومية من جراء الاقتتال في الاردن بينه وبين الفدائيين وتسيء الينا ، الا اننا لن نتوانى عن الكلام في احياء الجبهة الشرقية وحتى لو وصل الامر الى مجرد جمع الكلمة او مجرد تاييد معنوي ، لان ذلك يساعدنا ضد اسرائيل ويجب ان نعمل قدر استطاعتنا على ذلك .

ونحاول الكلام عن احياء الجبهة الشرقية مرة ثانية ويجب ان يكون هناك عمل في

الجبهة الشرقية لان هناك قوات موجودة في سوريا وقوات في الاردن وانا اسف لان اكثر من ٨٠ في المئة من قوات الاردن غير موجودة في الجبهة امام اسرائيل ولكن جزءا منها امام الجبهة السورية وجزءا اخر امام العراق وجزءا للقتال الدائر مع الفدائيين الفلسطينيين والقلة الباقية امام اسرائيل . واستمرار هذا الوضع بهذا الشكل يعتبر امرا مزعجا بالنسبة الينا ، ولو ان هذه القوات كانت موجودة في الجبهة حتى ولو لم تقاتل فلا بد ان تلفت نظر العدو .

ولو استطعنا ان ندخل ايضا القوات العراقية في المعركة ولو على شكل منظر يشعر فيه العدو بالقوة العربية ويضطر لوضع جزء من قواته امام القوة العربية .

ان الجهود العربية تحتاج دون اي تردد في الواقع الى ان تبذل فيها جهود كبيرة لكسب اي شيء يساعد في المعركة .

من واجبنا ايضا ان نؤيد المقاومة الفلسطينية ودور فلسطين في المعركة بالشكل الذي يفيد المعركة .

تهديد المصالح الاميركية

وهناك ايضا المزيد في مجال العمل العربي ، فالجهود العربية لا تقتصر على هذا ولكنه ما زالت في العالم العربي قوة ومصادر تشكل ضغطا على الولايات المتحدة . وقد سبق ان اشرنا الى هذا الموضوع اكثر من مرة ، وكان من ضمن الاقتراحات التي قيلت في وقت من الاوقات هو التهديد بقطع البترول ، وقد وجد انه لا مصلحة في ذلك ، وان هناك استحالة لتنفيذه ، وكان ذلك في مؤتمر القمة الذي عقد في الخرطوم فتقدم الزعيم الخالد جمال عبد الناصر باقتراح استمرار ضخ البترول على ان يستخدم جزء منه لصالح المعركة ، وهذا ما حدث فعلا ، ولكن ما زالت هناك امكانات للضغط على الولايات المتحدة لانها تحصل على الفي مليون دولار من المنطقة كلها وتعطيها بعد ذلك لاسرائيل على شكل اسلحة ومعونات .

ويجب الا يكون هناك توقف نهائي لضخ البترول ولكن يمكن ان يكون هناك تحكم في انتاجه على اساس ان الولايات المتحدة واوروبا الغربية تحتاج في السنوات المقبلة من ١٥ مليونا الى ٢٠ مليون برميل من البترول يوميا لتغطية احتياجاتها ، ومعظم هذه الكمية لا بد ان تاتي من الشرق الاوسط ، فاذا امكن الدول العربية المصدرة للبترول ان تزيد انتاجه بدلا من وقف ضخه وليس حتى منعه كما فعلت ليبيا ، ولكن بالشكل الذي يلائم الدول العربية المنتجة للبترول ولا يتلاءم مع احتياجات اميركا والدول الغربية . فمثلا لو احتاجوا الى ٢٠ في المئة واحتاج العرب الى ٧ في المئة يجب ان يكون الانتاج ٧ في المئة وليس كما فعلت السعودية عندما زاد انتاجها في العام الماضي ٢٣ في المئة .

هذا وضع يمكن العمل به مع العالم العربي من اجل تشكيل ضغط على الولايات المتحدة ، ويمكن الوصول في المجال العربي الى مواقف تساعدنا في الضغط على اسرائيل.

النقطة الاخيرة طبعا عن القوات المسلحة لانها في النهاية هي الوسيلة المادية الحقيقية

التي يمكن ان ترغم بها اسرائيل على انهاء العدوان ، ومن اجل هذا فان الشعب يعطي كل ما لديه للقوات المسلحة ولم يتاخر لحظة واحدة عن بناء القوات المسلحة . والقوات المسلحة وقادتها لم يتوانوا ايضا عن البذل والفداء لتشكيل ضغط على اسرائيل وانهاء العدوان .

وهناك نقاط عديدة في ميادين عديدة يجب ان نعمل فيها للضغط على اسرائيل والاميركيين من اجل المعركة . وشكرا .

للمؤلف

الحزب الشيوعي السوداني
نحروه ام انتحر 1971

اين أصبح عبد الناصر في جمهورية السادات
(الكتاب الاول من الثلاثية وعنوانه :
اسرار سقوط رؤوس النظام الناصري) . 1972

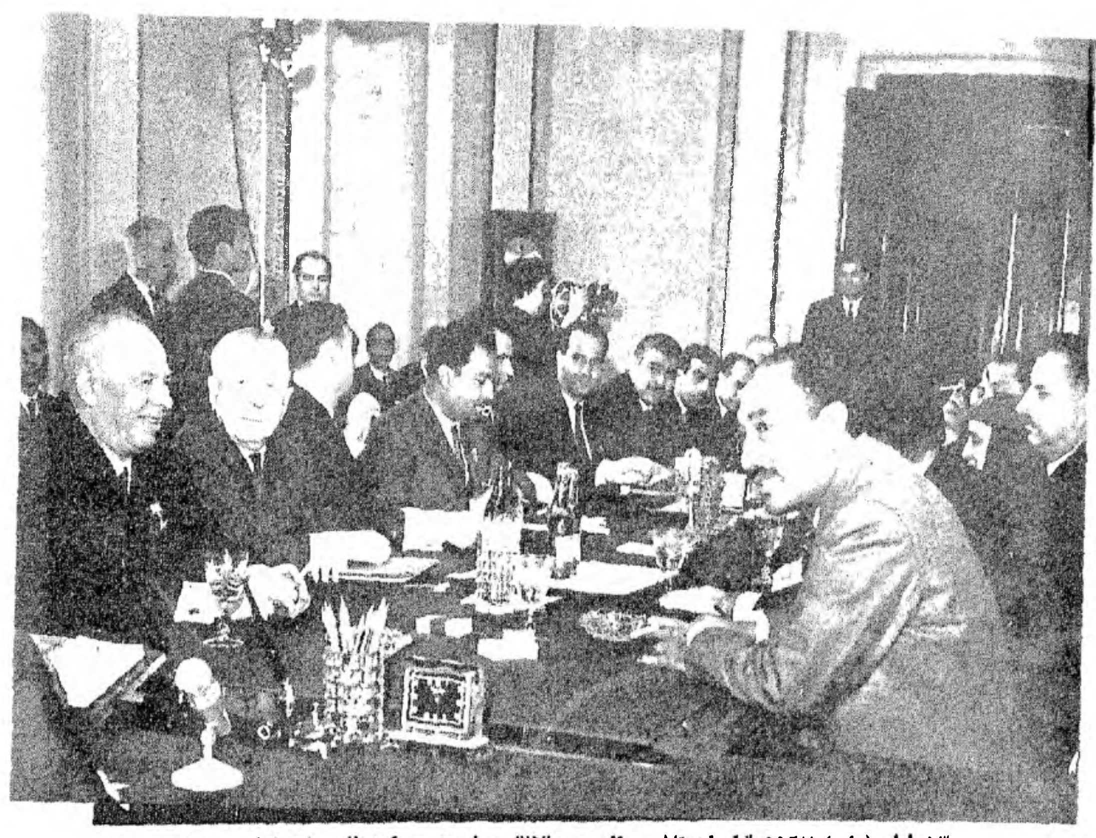


السادات والفريق اول صادق ... في الايام الاولى لبدء مرحلة الشك السوفياتية.



الفريق اول محمد احمد صادق والفريق سعد الدين الشاذلي نجما مجابهة الوجود العسكري السوفياتي في مصر .

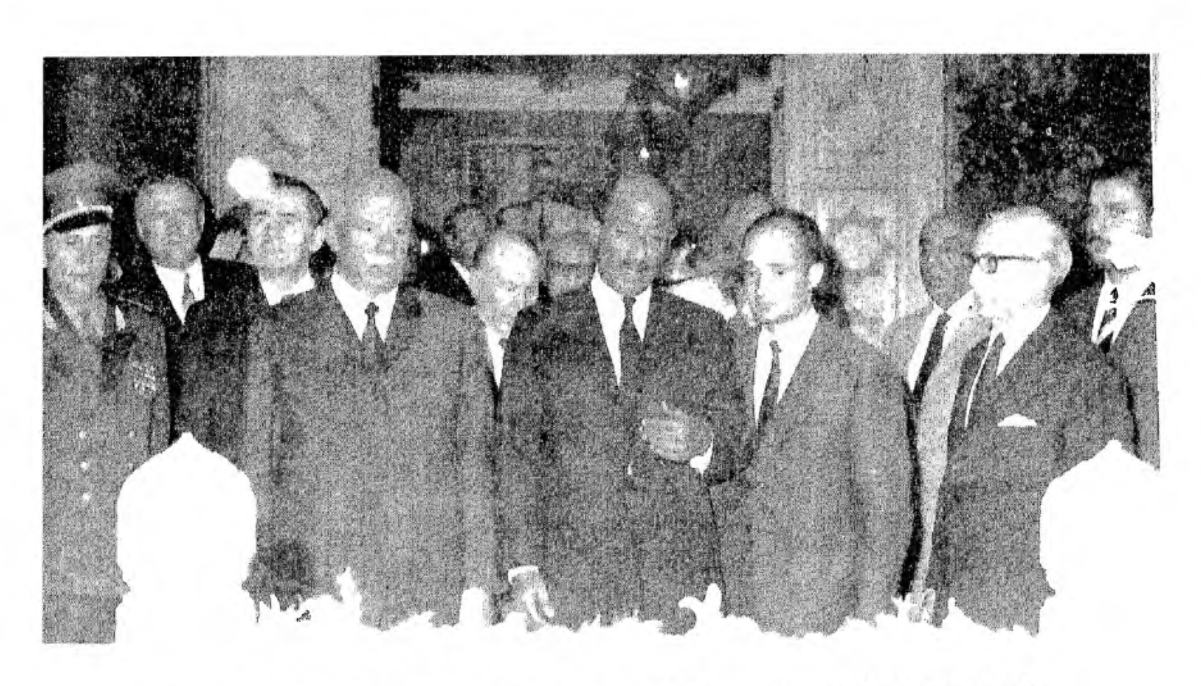
روسيا الناصرية
ومصر المصرية



١٣ ايار (مايو) ١٩٦٧ قبل ان تنشب الحرب بثلاثة وعشرين يوما : انور السادات (نائب رئيس الجمهورية) على رأس وفد مصري يتحادث مع بودغورني في الكرملين

انور السادات الرئيس الموقت للجمهورية والى جانبه كوسيغين تظللهما صورة جمال عبد الناصر كان ذلك بعد ساعات من دفن عبد الناصر . وقد عقدت المحادثات في جو من الحزن السوفياتي على عبد الناصر ... والخوف من المستقبل .





أيار (مايو) ١٩٧١ : بودغورني والسادات امام ضريح عبد الناصر . ويومها جاء بودغورني الى القاهرة بعدما ضرب السادات المجموعة الصديقة لموسكو (علي صبري والآخرين) . وفي خلال زيارته وقع على معاهدة الصداقة والتعاون .



السادات وبودغورني لحظة التوقيع على المعاهدة .



عناق بين السادات وبودغورني بعد التوقيع على المعاهدة .



أسوان : كانون الثاني (يناير) ١٩٧١ . ابتهاج بانتهاء العمل في السد العالي تظهر معالمه على السادات وبودغورني .



...وشد على الايدي وبينهما خالد عبد الناصر بعد التوقيع على وثيقة انتهاء العمل في السد العالي .



تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧١ : الزيارة العلنية الاولى لانور السادات وهو رئيس للجمهورية لموسكو . وقد وصل في طائرة سوفياتية خاصة وكان زعماء الكرملين الثلاثة في استقباله في المطار .



السادات بالقلبق الروسي مع بريجنيف وكوسيغين في خلال زيارته العلنية الثانية لموسكو في شباط (فبراير) ١٩٧٢ .



حزيران (يونيو) ١٩٧٢ : الفريق اول محمد احمد صادق وزير الحربية المصرية في خلال لقائه بريجنيف في حضور الماريشال غريتشكو . وهذه الصورة كانت توحي بأن كل شيء قد سوي لأن الفريق أول صادق يمثل التيار المعارض للسوفيات داخل الحكم المصري ثم تبين ان زيارة صادق لم تزل شيئا من الحساسيات المتراكمة .



السفير السوفياتي فلاديمير فينوغرادوف يقدم اوراقه الى الرئيس انور السادات ..



... ثم ينحني واضعا يده على صدره وأوسمته . والسادات يبتسم له .

يعالج المؤلف في الكتاب الثاني من ثلاثيتـــه المعنونة « أين أصبح عبد الناصر في جمهورية السادات » العلاقات المصرية – السوفياتية منذ رحل عبد الناصر وخلفه أنور السادات الى حين انفجر الصراع الصامت وقرر السادات انهاء الوجود العسكري السوفياتي في مصر .

وفؤاد مطر الذي يتابع السياسة المصرية بدقائقها وتفاصيلها الصغيرة والكبيرة يروي في كتابه الثاني « روسيا الناصرية ومصر المصرية » القصة الكاملة للعلاقات المصرية – السوفياتية في عهـــد السادات مستندا الى خلفية والى وثائق ومعلومات وأسرار أساسية وذات أهمية بالغة .

٥ ل. ل. او ما يعادلها